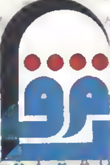
المركز القومى للترجمة



السان سيمونيون فى مصر

1833 - 1851

تأليف: فيليب رينييه

تقديم: أمين فخرى عبد النور

ترجمة

أمل الصبان

أنور مغيث

داليا الطوخى

مراجعة: أنور مغيث

1627

السان سيمونيون جماعة من الشباب، مهندسون من مدرسة الهندسة العليا وأطباء في معظمهم، تجمعوا حول اسم سان سيمون وأفكاره؛ لأنهم قد أصابهم ما كان يسميه الكتّاب الرومانسيون "وجع القرن" أو السخط spleen. لم يعودوا يحتملون أن يبقى الشعب في البؤس بينما هم يعرفون، لأنهم درسوا الآلات، أن هناك وسائل حديثة للإنتاج بكميات كبيرة، وكانوا يختنقون في ظل أخلاق العصر الصارمة. وأنفانتان الذي أصبح رئيسهم المعروف، قال إنهم "رومانسيو السياسة" تجمعوا إذن وشكلوا حزبا صغيرا، أول حزب "اشتراكي" في القرن التاسع عشر.

أن يكون المرء "سان سيمونى" عام 1830 يعنى أنه يريد التصنيع والتسليف والسكك الحديدية والرفاهية وتعليم الشعب فى آن، وأخيرا وليس آخرا، المساواة للنساء. ويمتد هذا في المجال الاقتصادى حتى إلغاء الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج، وفى المجال الأخلاقى إلى الاستقلال التام للمرأة، وكل هذا انتهى- كما يمكن أن نتوقع - بالسجن منذ عام 1832.

السان سيمونيون فى مصر
(1851 - 1833)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1627
- السان سيمونيون فى مصر (1833-1851)
- فيليب رينييه
- أمين فخرى عبد النور
- أمل الصبان، وأنور مغيث، وداليا الطوخى
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

Les Saint – Simoniens en Egypte

(1851 – 1833)

Par: Philippe Régnier

Préface Par: Amin Fakhry Abdelnour

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

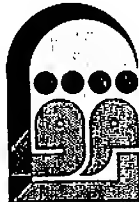
فيـليب رينيـيه

السان سيمونيون فى مصر

1833 - 1851

تقديم : أمين فخرى عبد النور

ترجمـة : أمـل الـصبان
أنـور مغـيث
داليـا الطـوخى
مراجعـة : أنـور مغـيث



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

رينييه ، فيليب
السان سيمونيون في مصر 1833 – 1851/ تأليف : فيليب رينييه، تقديم : أمين فخرى عبد النور، ترجمة: أمل الصبان، وأنور مغيث، وداليا الطوخي، مراجعة: أنور مغيث
ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١١
٢٦٨ ص ، ٣٠ سم
١ – السيمونية
٢– سان سيمون، كلود هنرى دى روندوى، ١٧٦٠–١٨٢٥
(أ) عبد النور ، أمين فخرى (مقدم)
(ب) الصبان، أمل (مترجم)
(جـ) الطوخي، داليا (مترجم مشارك)
(د) مغيث، أنور (مترجم ومراجع)
(هـ) العنوان
٣٦٤,١٧

رقم الإيداع ١٦٦٧٢/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N 978 - 977 - 704 - 257 - 4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هي اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

شكر وتقدير

حينما يضفي السيد روجيه فورو، وزير الصناعة والحكم المحلي، رعايته على المعرض وعلى الكتاب المخصصيْن للسَّان سيمونيين في مصر، فإنه يجذب الانتباه إلى الإشعاع والتفاعل الثقافييْن للنشاط الصناعي؛ أتمنى أن يجد في إهدائي له هذا الكتاب تعبيرًا عن امتناني العميق.

ولقد قدم السيد آلان دوجاميه سفير فرنسا في جمهورية مصر العربية كل دعمه لكل التظاهرات التي نظمتها المؤسسات الفرنسية بالقاهرة حول السَّان سيمونيين. وقد تسلم الراية من السيد بيير هونت، سفيرنا الحالي في البرتغال، والذي أدت مبادرته إلى إتاحة عودة أنفانتان ولامبير وسوزان فوالكان ورفاقهم وخلانهم إلى مصر.

ولقد أسعدني الحظ بأن وجدت في طريقي السيد منير فخري عبد النور، ممثل بنك الاتحاد الأوروبي. رجل ذو ثقافة واسعة وراقية. لم يكتف بأن ينفق بكرم من ماله الخاص لكي يقدم للسَّان سيمونيين مأوى في كتاب جميل، ولكنه، وبحماس امتد للآخرين، أرهق نفسه في متابعة أقل التفاصيل الخاصة بالطباعة. وبتخليه عن أي عائد من هذا الكتاب، أراد أسوة بمحمد علي، أن يقدم لأحد الطلاب المصريين إمكانية أن يواصل دراسته في فرنسا، وأن يقدم للمؤسسات الفرنسية المشاركة في المعرض إمكانية تطوير أنشطتها في مصر.

وفي فرنسا نفسها، تحمل البنك الأوروبي نصيبًا مهمًا من التكاليف.

وأوجه امتناني أيضًا إلى مدام بوزينيه، مديرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، والتي استقبلت بمودة المعرض والأساتذة المحاضرين في هذا القصر العظيم بالمنيرة ، وإلى الباحثين في مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (السيداج)، وبوجه خاص السادة لويزار وفيليبون وبورجا وروسيون ومديرهم السيد جان كلود فاتان، الذي تكفل بنفقات سفر المحاضرين، وكانت حيويته وإصراره قد مهدا من قبل العديد من العقبات، وإلى السيد برنار ريشار، مدير المركز الثقافي الفرنسي بالقاهرة، الذي اضطلع بمسئولية تنظيم المعرض، مضيفًا إلى فاعليته الإدارية كفاءاته كمؤرخ. وإلى السيد فريمون المسئول الثقافي الذي تولى تقديم المعرض بذوق رفيع.

لقد قدم كل من السيد إيمانويل لوروا-لادوري مدير المكتبة الوطنية، ومدام بودرو المسئولة عن قطاع المعارض بهذه المكتبة، والسيد جان كلود جاريتا كبير أمناء مكتبة الأرسنال (قسم من المكتبة الوطنية)، ومدام موزريل الأمينة المسئولة عن أرشيف أنفانتان، قدموا جميعًا بكرم للسَّان سيمونيين وللمهتمين بهم التصاريح اللازمة. ويروق لي أن أقول هنا كيف أن الضيافة الصبورة والودودة لأمناء مكتبة الأرسنال قد سهلت من مهمة إنجاز أبحاثي .

وأحاط "أصدقاء إسماعيل أوربان" عملي بتشجيعهم وأثرَوْه بمعلومات وفيرة قدموها لي بكرم. وأذكـر على وجه الخصوص من بينهم السيد المحافظ ميشيل لوفالوا، من عائلة أوربان، وهو رئـيس ORSTOM، ومدام مرسي المسئولة العلمية عن مركز دراسات الشرق المعاصر (جامعة الـسوربون الجديـدة)، والـسيد سيمور مرسي الذي كشف تعاونه مع الجمعية كثيرًا من الوثائق التي استخدمتها.

وحينما عرفت مدام ماهر منير، مديرة مطبعة العالم العربي، أن السيد عبد النور قد أخذ علـى عاتقـه مهمة طبع الكتاب، استطاعت في زمن قياسي أن توفق بين كل الاقتضاءات التي تضمن نوعية ممتـازة فـي الإخراج.

زوجتي كاترين وبناتنا الثلاث ماري – بلانش وماري – أليكس وماري – كليمـنس، اللائـي قـبلن التضحية بصيف جميل وخريف متألق، ودعمن بإنكار للذات انشغالي التام بالسان سيمونيين ؛ علهن يقـرأن في هذا الشكر البسيط أكثر من اعتراف بدين لا ينسى.

فيليب رينييه

تقديم

مَنْ مِنَ المصريين بإمكانه أن يتعرف، على غلاف هذا الكتاب، إلى جانب الوجه ذي الحضور الطاغي لمحمد علي، على صورتي بروسبير أنفانتان **Prosper Enfantin** وشارل لامبير **Charles Lambert**؟

ورغم ذلك، إذا كان هناك فرنسيون يستحقون تقدير مصر فهم هؤلاء المتعاونون وأصدقاؤهم، أعني السان سيمونيين.

أنا نفسي كنت أجهل هذه التسمية الجمعية الغريبة عندما كان السيد السفير بير هونت **Pierre Hunt**، الذي كان سفيرًا لفرنسا في القاهرة في ذلك الوقت، يسعى إلى تدعيم أواصر الصداقة الفرنسية – المصرية، فذكرهم في حضوري وقيل لي إن أحد المتخصصين في الدراسات المقارنة قد خصص فيما سبق فصلاً من رسالته الجامعية لهذا الموضوع بالغ الغرابة.

وهكذا قرأت في الجزء الأول من كتاب جان مارى كاريه **Jean-Marie Carré** **رحالة وكتّاب فرنسيون في مصر**، الصادر عام ١٩٣٢، الفصل المخصص للسان سيمونيين. وفي أقل من عشرين صفحة وبأسلوب مثير للانتباه مرت شخصيات ذات كفاءات ونزعة للإيثار لا تُبارى، مهندسون، فنانون، أطباء.... بدا، في إشارة سريعة لا تشبع فضولي، أنهم كانوا منخرطين في العمل التحديثي لمحمد علي، في إنشاء قناطر الدلتا، وتكوين مدرسة المهندسخانة التي خرّجت الكثير من المهندسين خلال القرن التاسع عشر، بل وحتى في قناة السويس. لقد استثير فضولي بشدة. وسعيت إلى أن أعرف أكثر، ولم يخب رجائي.

فلنعترف إذن بجميل السفير بير هونت الذي وضعني على أول الطريق قبل أن ينهى خدمته، والسفير آلان دوجاميه **Alain Dejammet** الذي شجعني على متابعة جهودي.

ومن استقصاء إلى استقصاء، وصلت بالفعل إلى مكتبة الأرسنال في باريس. هناك كان المنبع، في أرشيف هائل من الوثائق، أرشيف أنفانتان. وهناك بعد أن أوصلني جان كلود فاتان **Jean-Claude Vatin** بالمختص بالأرشيف، فيليب رينييه **Philippe Régnier** ، رأيت وثائق وأشياء تكشف لى عن أمور جوهرية بالنسبة لتاريخ مصر: جانب مجهول في مسار تمصير مصر، أعني وصولها إلى الاستقلال وإلى العالم الحديث.

كيف نتحمل أن يظل كل هذا غير متاح للمصريين ؟

هكذا أبين لكم كيف ولماذا تمنيت نشر كتاب يجمع ويثبت هذه الاكتشافات.

ولكن نزولاً على رغبة المؤلف فليُسمح للناشر، وهو أنا بهذه المناسبة، أن يلقي بعض الضوء على موضوع هذا الكتاب وأن يعبر عن بعض الآراء الشخصية الخاصة به.

***

في التاريخ، هناك تواريخ تستحق أن نعتبرها تواريخ مفصلية، لأنها تفتح أبوابًا وتغلق أخرى في حياة الشعوب.

والتواريخ المفصلية في بداية القرن التاسع عشر في مصر كانت في نظري هي :

١٧٩٨ : حملة بونابرت، الحملة العسكرية بالتأكيد، ولكن أيضًا الحملة الثقافية، الأولى من نوعها.

١٨٠١ : اكتشاف حجر رشيد.

١٨٠٥ : تولي محمد علي الحكم.

١٨٢٧ : فك شفرة حجر رشيد بواسطة شامبليون.

١٨٣٣ : وصول بروسبير أنفانتان مع مجموعة من السَّان سيمونيين إلى مصر، بعبارة أخرى، ما أسميه الحملة الثقافية الفرنسية الثانية على مصر.

سوف أوضح ما أعنيه: في ٢٢ يوليو حطت سفن بونابرت في الإسكندرية، كان يصحبه فريق من المهندسين والفنيين وعلماء الطبيعة، وطلب منهم إعداد خارطة للبلاد، وإحصاء المناجم والموارد، والبحث عن سبل تحسين ظروف حياة الناس بواسطة آلات وترع وأشغال عمومية، وكان العالم جاسبار مونج **Gaspard Monge** في الرحلة. وجعله بونابرت أول رئيس للمجمع العلمي بمصر. وقام مونج مع الكيميائي كلود برتوليه **Claude Berthollet** باستكشاف برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء. وقام المهندس جاك مارى لوبير **Jacques Marie Le Père** بطرح القواعد النظرية للربط المباشر عن طريق الماء بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وقام علماء المصريات بإعداد نسخ من النقوش التي سمحت فيما بعد لشامبليون بفك رموز اللغة الهيروغليفية. ولقد قام دومينيك فيفان دينون **Dominique Vivant Denon** بدراسة المعابد والمقابر في صعيد مصر والوجه البحري. وقام عالم الهندسة جان باتيست جوزيف فورييه **Jean- Baptiste Joseph**

Fourier ، الأمين العام الأول للمعهد العلمي، ببناء تحصينات للقاهرة. وقد شكل المعهد إجمالاً ١٦٥ شخصًا : أطباء يكافحون ضد الطاعون، علماء نبات، وعلماء حشرات، وعلماء طيور، يجمعون ويصنفون ويرسمون. وقد خرج من عملهم هذا تلك اللوحات الرائعة الموجودة في كتاب **وصف مصر** الذي يعاد طبعه اليوم هنا وهناك... ولكن هذا العمل العلمي هو أيضًا عمل إنساني، من محبين للإنسانية **Philanthropes** كما كان يقال حينذاك : اهتم علماء بونابرت بمشكلة تنقية مياه النيل، وتحسين الأفران المصرية لإعداد الخبز، ودرسوا إمكانية إنتاج البيرة من مصدر آخر غير حشيشة الدينار. باختصار، اهتموا بالحاجات الملحة للشعب المصري. وأقول إن الحملة طبقت دون أن تعرف شعار السان سيمونيين: "صنع كل شيء لتحسين الحالة البدنية والعقلية والأخلاقية للطبقة الأكثر عددًا والأكثر فقرًا".

كان هؤلاء العلماء يمهدون الأرض لحملة ثانية. لا يعرفها إلا القليلون، وذلك لأنه لم يصحبها ضجيج الأسلحة. وأعني حملة السان سيمونيين، حملة علمية، صناعية وثقافية محضة بدأت عام ١٨٣٣ وامتد تأثيرها إلى ما بعد عام ١٨٥٠، خلال عدد من العقود.

ولكن أولاً من هو سان سيمون، من هم السان سيمونيون، وماهى السان سيمونية؟

هنري سان سيمون صاحب لقب كونت **Comte** ومنحدر من عائلة أرستقراطية عريقة، وعلى صلة قرابة بعيدة بالدوق سان سيمون المعاصر للويس الرابع عشر، ولكن ينبغي عدم الخلط بينه وبين مؤلف "المذكرات ***Mémoires***" والذي كان مدافعًا متحمسًا عن امتيازات طائفته.

أما سان سيمون الذي اشتقت من اسمه السان سيمونية، فقد كان رجلاً من رجال الثورة ولد عام ١٧٦٠ وكان تلميذا لدلامبير **d'Alembert** وقاتل بجانب لافاييت **La Fayette** ضابطًا في حرب الاستقلال بالولايات المتحدة وحصل على تكريم **Cincinnatus** . وعند عودته إلى فرنسا، تابع الثورة بشغف، وتخلى عن علامة النبالة في اسمه حتى آخر حياته واشتغل بالأعمال التجارية بنجاح. ولكن خيب أمله استشراء العنف، وكذلك إجهاض أكثر المشروعات تجديدًا في الثورة. فحاول بعد ذلك استخلاص الدرس من هذه الأحداث. وتحت حكم نابليون، ثم بعد ذلك تحت حكم عائلة البوربون التي استعادت السلطة، تحول الجندى ورجل الفعل إلى مفكر العصور الحديثة.

إن سان سيمون هو أول مُنظّر للعصر الصناعي، وهو أمر لا نعرفه بما فيه الكفاية، فهو الذي ابتكر كلمة صناعي **industriel** المستخدمة كمصدر. فحين نقول رجل صناعة أو رجال الصناعة فنحن ندين بذلك لسان سيمون. وقد يكون هذا هو ما ألهم كبار المسئولين السياسيين والاقتصاديين الفرنسيين فكرة أن يطلقوا اسم "مؤسسة سان سيمون" على نادي التأمل الذي أنشؤوه منذ عدة سنوات.

الفكرة الموجهة عند سان سيمون هي أن المجتمع ينبغي له أن يكون منظمًا بأسره من أجل الإنتاج وبواسطته. لا ينبغي له أن يحكم بواسطة "الدبابير" ومن أجل "الدبابير" أى بواسطة ومن أجل المرفهين من النبلاء والمعتمدين على الريع، أي بواسطة غير المنتجين، المستفيدين من عمل الغير، ومن أجلهم. آراء سان سيمون أن يعلي من قدر "النحل" أى بحسب تعبيره "رجال الصناعة"، ومن بينهم رؤساء المصانع ورجال البنوك، والمهندسون وحتى العاملون الأكثر تواضعًا، العمال والفلاحون. ولكن سان سيمون كان يرى أيضًا أن المجتمع لا يمكنه أن يعيش بدون مثل أعلى. ولهذا كان يزعم أنه يؤسس دينًا جديدًا أسماه "المسيحية الجديدة" يشبه تلك العقائد الثورية التي يعطينا الاحتفال بذكرى ثورة ١٧٨٩ فرصة كي نتذكرها.

وفي حياته كان لسان سيمون كاتبان وتلميذان أيضًا، أوجستين تييرى **Augustin Thierry** ، المؤرخ الليبرالى، والفيلسوف أوجست كونت **Auguste Comte** مؤسس الوضعية. ومات عام ١٨٢٥ في حال من البؤس مثل كثير من المخترعين، قبل أن يُعترف بقيمته.

السَّان سيمونيون؟ هم شباب، جماعة من الشباب، مهندسون من مدرسة الهندسة العليا **Polytechnique**، وأطباء في معظمهم. تجمعوا حول اسم سان سيمون وأفكاره، لأنهم قد أصابهم ما كان يسميه الكتاب الرومانسيون" وجع القرن" **le mal du siècle** أو السخط **spleen** . لم يعودوا يحتملون أن يبقى الشعب في البؤس بينما هم يعرفون، لأنهم درسوا الآلات، أن هناك وسائل حديثة للإنتاج بكميات كبيرة. كانوا يختنقون في ظل أخلاق العصر الصارمة. وأنفانتان، الذي أصبح رئيسهم المعروف، قال إنهم "رومانسيو السياسة". تجمعوا إذن وشكلوا حزبًا صغيرًا، أول حزب "اشتراكي" في القرن التاسع عشر.

أن يكون المرء سان سيمونيًا عام ١٨٣٠ يعني أنه يريد في آن واحد التصنيع والتسليف والسكك الحديدية والرفاهية وتعليم الشعب، وأخيرًا وليس آخرًا، المساواة للنساء. ويمتد هذا في المجال الاقتصادي، فى نتيجة قصوى، حتى إلغاء الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج، وفي المجال الأخلاقي، إلى الاستقلال التام للمرأة. وكل هذا انتهى كما يمكن أن نتوقع بالسجن بداية من عام ١٨٣٢.

ربما تتساءلون لماذا يهتم رجل مثل أمين عبد النور معروف أنه جاد ومحافظ وحتى برجوازي كبير بمثل هؤلاء "اليساريين" وأصحاب الأيديولوجيات ؟

السبب الأول، هو أن هؤلاء الشباب في فرنسا أصبحوا بفضل أفكارهم، وليس رغمًا عنها، صحفيين وسياسيين مؤثرين، وأيضًا وهو ما يهمني بشكل خاص، رجال صناعة وبنوك مهمين. كل الناس يعرفون على سبيل المثال الإخوة بيرير **Périere** الذين أسسوا أكبر بنك تسليف في عهد نابليون الثالث **le Crédit Mobilier** . ولقد منحت باريس اسمهم لأحد أكبر شوارعها. ولكن ما لا نعرفه هو أن الإخوة بيرير كانوا من بين السان سيمونيين الأوائل وبقوا سان سيمونيين حتى آخر حياتهم... ويمكن لى أن أضاعف من الأمثلة:

الاقتصادي ميشيل شيفالييه Michel Chevalier أستاذ في كوليج دو فرانس ومستشار نابليون الثالث، والمفاوض مع كوبدن Cobden لمعاهدة التبادل الحر بين فرنسا وألمانيا، هيبوليت كارنو Hippolyte Carnot، وهو ابن كارنو الكبير وأبو الرئيس سادي كارنو، وكان هو نفسه وزيرًا للتعليم العام في الحكومة المؤقتة للجمهورية الثانية، والمهندس بولان تالابو Paulin Talabot الذي بنى جزءًا كبيرًا من السكك الحديدية في فرنسا... بروسبير أنفانتان أصبح هو نفسه رجل أعمال من الدرجة الأولى، وكان مديرًا، إلى جانب أنشطة أخرى، لشركة باريس – ليون – ميديترانيه. ويهمس لي فيليب رينييه بأن هناك سان سيمونيين آخرين من نوعية بازار Bazard وليس من نوعية أنفانتان، قد عُرِفوا في تاريخ الحركة العمالية الاشتراكية.

ولكن السبب الثاني الذي جعلني أهتم بالسان سيمونيين هو أن مصر تدين لسانت بيلاجي، وهو اسم السجن الذي كان به أنفانتان، بأنها استفادت من مقدم السان سيمونيين على أرضها. وأثناء إقامة أنفانتان في السجن جاءه الإلهام بأن يأتي إلى مصر من أجل، حسبما كان يظن، حفر قناة السويس.

سأستعير من إدوار دريو Edouard Driault تحليل دوافع هذه الحملة. في مجلة الدراسات النابوليونية، وفي مقال له بعنوان "نهضة مصر" في يناير ١٩٢٥ كتب إدوار دريو يقول: "في الوقت الذي فتح فيه اكتشاف الطاقة البخارية للصناعة الإنسانية مجالاً للتوسع الهائل، وحيث كانت النزعة الآلية تعلن عن ثورة اقتصادية لم يعرف الناس مثلها من قبل، وفي اللحظة التي كانت الفلسفة الفرنسية تبحث عن تفسير متناسق للكوكب، لم يكن مثيرًا للدهشة أن يفكر السان سيمونيون في مصر؛ كانت تفتنهم بالحكايات الرائعة عن ماضيها وبوعود مستقبلها. كانوا يريدون التعاون الأخوى بين كل الأمم وبين كل الطبقات الاجتماعية واختلاط جميع الأجناس. لقد صار لهم، بعد نابليون، والذين كانوا يعون أكثر من غيرهم قدر عبقريته، سياسة إسلامية، بل وفلسفة إسلامية. كانوا يحلمون، في لغتهم الجريئة، أن يخصبوا الجنس الأسود، الأنثوي والعاطفي بالفصائل الذكورية والعلمية للجنس الأبيض. وقد تبنوا عن طيب خاطر كلمة بونابرت: «عن طريق مصر سوف تتلقى شعوب وسط إفريقيا النور والسعادة».

ويضيف دريو أنه لم يكن لهؤلاء المثاليين سياسة وفلسفة إسلامية فقط ولكن سياسة وفلسفة متوسطية. لم يكن شق قناة السويس بالنسبة لهم مجرد فتح تكنيكي يخلد اسم صاحبه أو وسيلة عظيمة لتنمية التجارة الدولية. بل بدا لهم ضرورة دينية حقًا. إن رسم الخط الأزرق للقناة، على خريطة العالم إنما هو رسم علامة كبيرة للسلام والتضامن والحب بين القارات ورابطة وحدة بين البشر، لأنهم حين استعادوا مشروع بونابرت والمجمع العلمي المصري صاغوه بطريقتهم. لم يعودوا يلوحون به كشعلة حرب، وكتحدٍّ للإنجليز وتهديد ضد الطريق إلى الهند، ولكنهم كانوا يحملونه كمشعل من أجل إضاءة طريق الإنسانية. كان طموحهم هو جعل البحر المتوسط سريرًا للزفاف بين الشرق والغرب، حسب تعبير ميشيل شفالييه، وتزويج الشعوب القائمة بين شاطئيه من خلال مشروع صناعي.

فاسمحوا لي أنا المصري أن أوفي لهم ما يستحقونه بأن أقدمهم لكم مشيرًا إلى بعض النتائج التي ترتبت على وصولهم.

لن أسميهم جميعًا لأنني عددت من بينهم حوالي ٨٠ شخصًا – فضلاً عن تلاميذهم المصريين. لم يصلوا جميعًا في نفس الوقت، ولكن في صورة مجموعات متعاقبة، وكثيرون كانوا مجرد عابرين. ولكن كثيرين أقاموا لسنوات، وبعضهم قضى كل حياته العملية في مصر، بل والبعض مات ودفن فيها، وصار لبعضهم نسل يعيش اسمهم في مصر بفضل أبنائهم وأحفادهم.

أول من رحل منهم إلى الشرق، وهم من أنار الطريق، كان اسمهم "رفاق المرأة". كانوا متصوفة، مقتنعين بوجود ما يشبه "امرأة نبية" في الشرق مقدرة للزواج من أنفانتان: يسمونها "المرأة" أو "الأم". كان رئيسهم هو إميل بارو **Emile Barrault** أستاذ الأدب والخطيب البارع الذي صار بعد ذلك رئيسًا لتحرير أكثر من صحيفة وعضو برلمان في الجمهورية الثانية. ونشر في عام ١٨٥٥ أحد مشروعات حفر القناة. وكان أبرز من جاء معه :

– فيلسيان دافيد **Félicien David**، والذي ألف فيما بعد سيمفونية صحراء **Désert** التي أدخلت الموسيقى الشرقية إلى أوروبا.

– النحات فريدريك آلريك **Frédéric Alric**، الذي كان له شرف تنفيذ تمثال صدري لمحمد علي ومات بالطاعون عام ١٨٣٥.

– الشاب توماس أوربان **Thomas Urbain** الذي كان ابنًا هجينًا من زوجين من فرنسا وجزر جوايانا، واعتنق الإسلام في مصر وحمل اسم إسماعيل وكان الملهم الأساسي لسياسة ما سمي بـــ"المملكة العربية " لنابليون الثالث.

ثم المهندس الزراعى جول توشيه **Jules Toché**، والمهندسان فيليكس تورنو **Félix Tourneux**، وجان براكس **Jean Prax**، الضابط البحري الذي اعتنق هو أيضًا الإسلام وحمل اسم عبد الرحمن أفندى، وكان رئيس الصيادلة في الجيش المصري في حملة الحجاز، ومهندس الطرق والكبارى بيير تيودور دوشارم **Pierre- Théodre Decharme** .

هذه المجموعة سافرت من مارسيليا في ٢٢ مارس ١٨٣٢، في يوم الربيع الذي اختير خصيصًا بواسطة أنفانتان نظرًا لقيمته الرمزية. وكانت ترافقهم جماهير غفيرة حتى الميناء. وكان مساعد القبطان في

مركبهم هو جاريبالدي **Garibaldi** الزعيم الوطني الإيطالي الذي تعاطف معهم. لم يقيموا طويلاً في تركيا لأن ملابسهم ومواعظهم الحماسية أزعجت السلطات التركية. يجدر الإشارة إلى أنهم كانوا يرتدون "زي مهمة الشرق"، والذى كان فى شكل جاكتة مفتوحة وصِدار أحمر وسراويل لاصقة حمراء مشابهة لما كان يرتديه الناس في أوروبا مع إيشارب طويل، وقفازات جلدية سوداء، وأحذية برقبة طويلة وحزام كأحزمة الحجاج. وسريعًا ما طُرد أصدقاؤنا أنصار المرأة إلى أزمير ومنها اتجهوا إلى الإسكندرية في نهاية ١٨٣٣.

وفي الإسكندرية التقوا بأربعة رجال كانوا قد رحلوا من فرنسا فى خلال ذلك الوقت بقيادة كازيمير كايول **Casimir Cayol**، وهو تاجر من مارسيليا كان إيمانه بالسان سيمونية لا يعادله إلا إعجابه بنابليون. هؤلاء الرجال الأربعة لم يترددوا في طلب مقابلة محمد علي. وفي زيارتهم الأولى، ٢ مايو، كان نائمًا، وفي الثانية غاب مترجموه. وفي النهاية نجح الأربعة كازيمير ورفاقه في تحية محمد علي في الترسانة. وعلق الباشا قائلاً: "هل هذا كل ما يريدونه"؟ ولكنها مجرد بداية.

وكانت البداية بالأحرى سيئة. بعض الاجتماعات العامة بالقرب من عمود السوارى وبعض الحفلات الموسيقية. ولكن سرعان ما انتهت النقود. وقنصل فرنسا ميمو **Mimaut** الذي عرف بمغامرات إسطنبول الخائبة بذل كل جهده في منع الرفاق من السفر إلى القاهرة. فظل السان سيمونيون يراوحون في نفس المكان.

وجاء الحل سريعًا من حدثين.

كان أولهما اللقاء مع سليمان باشا، أو الكلونيل سيف **Sève** ، الذي كان ضابطًا في جيش نابليون وساعد الوالي في تحديث جيشه وكان له فضل كبير في انتصار الجيش المصري على الجيوش التركية. وكان في بيروت حين سمع بعض السان سيمونيين الذين كانوا يمرون بها وعلى رأسهم أوربان وكونيا **Cognat** بوجوده. فطلبوا مقابلته، وأحسن استقبالهم رغم ملابسهم، وجعلهم يدخنون من غليونه، ويشربون القهوة، ودعاهم إلى القاهرة. وأخيرًا انفتح باب، وليس أى باب.

بيد أن أبوابًا أخرى فُتحت في فرنسا في نفس الوقت : وهي أبواب سجن سانت بيلاجي، الذي خرج منه أنفانتان بعفو خاص من الملك لوى فيليب **Louis Philippe**.

وأريد أن أصرح بسر صغير، كانت حكومة لوي فيليب تنظر بعين راضية إلى سفر أنفانتان إلى مصر. ليس فقط لأن بعض مثيري الشغب سوف يرحلون معه، ولكن لأنها توافق على المشروع الصناعي للسان سيمونيين. في الواقع، بدا أن خروج أنفانتان قد تم إعداده بشكل سرى من خلال لقاءات بين وسطاء وصديق أنفانتان المهندس هنرى فورنل **Henri Fournel**.

ينبغي أن نعرف من هو هنري فورنل، لقد كان مهندسًا خريج مدرسة الهندسة العليا ومدرسة المناجم. وقبل أن يعتنق مبادئ السان سيمونية كان مديرًا لمسابك كروزو، وهي وظيفة مهمة جدًا، وهي أساس شركة شنايدر. وكان أنفانتان يعتمد عليه في إدارة العمليات. وفي ٢٣ سبتمبر ١٨٣٣ أي في يوم من أيام الخريف، ترك أنفانتان بدوره ميناء مارسيليا مع بعض الأصدقاء، ومنهم هنري فورنل وشارل لامبير- ولنحفظ جيدًا هذا الاسم – وهو أيضًا خريج مدرستي الهندسة العليا والمناجم. وكان هذان الاثنان يرتديان زي مدرسة المناجم ليبينوا أنهم من مهندسي الدولة الفرنسية. بعبارة أخرى بدأت الأمور تتخذ شكلاً جديًا. ووصل أنفانتان إلى القاهرة في نوفمبر ونزل على سليمان باشا الذي قدم له الضيافة وأهم من ذلك الصداقة. وخلال بضعة أشهر سرعان ما عقد السان سيمونيون صلات مثمرة مع محمد علي بفضل سليمان باشا وقنصل فرنسا ميمو. لقد فهم الاثنان تمامًا الفرصة الاستثنائية المتاحة لإطلاق التعاون بين فرنسا ومصر بفضل هذا التدفق من الكفاءات الموجودة.

اقترح محمد علي العمل الذي بدا له أكثر جدوى بالنسبة لمصر وهو إقامة سد على النيل عند مدخل الدلتا، لتحسين الري والملاحة. وحتى يفهم الجميع عزمه على أن يقود بنفسه العمل في المشروع، كلف به مهندسًا، وإن كان فرنسيًا، إلا أنه موظف مصري في خدمة الوالي منذ سنوات، لينان دي بلفون **Linan de Bellefonds**، وليس فورنل. ونظرًا لخيبة رجائه في أن يتولى مسئولية تناسب كفاءته، عاد المدير القديم لكروزو إلى فرنسا.

هل يعد هذا فشلاً ؟

لا، لأن الوالي، مع تأكيده على ان يظل سيدًا في بلده، كان قد لاحظ شارل لامبير وعينه مسئولاً عن إعداد مهندسين مصريين للمناجم. كما قبل أن يشارك المهندسون السان سيمونيون ومن بينهم أنفانتان خريج مدرسة الهندسة العليا، في بناء السد تحت الوضع الاستثنائي "مسافر"، وهو ما يعني بالتركية "مدعوين"، وضع استثنائي بلا سابقة ولن يتكرر بعد ذلك أبدًا! يعمل السان سيمونيون في خدمة مصر ويتلقون من الوالي أموالاً نظير عملهم لكنهم لم يكونوا موظفين لديه. لم يريدوا أجرًا وما يتلقونه كان أقل بكثير مما كان يمكن أن يكسبوه في أوروبا. كانوا يعدون أنفسهم "متطوعين" كما هو الحال في الجيش، وكانوا يعتقدون بالفعل أنهم يشكلون أول كتيبة من "الجيش الصناعي" كما كانوا يقولون، أول جيش مسالم بل وأقول نصير للسلام.

للاحتفال بالحدث، نظم أنفانتان حفلاً في موقع بناء السد، وكان ذلك في ١٥ أغسطس ١٨٣٤، وهو عيد ميلاد نابليون. كان أنفانتان يعرف قيمة الرموز ! حملت ذهبية مزينة مدعوين مرموقين: اللواء مختار

بك رئيس أركان الجيش، واللواء أدهم بك وسليمان باشا بالطبع. ولكن سوف أذكر مدعوين مصريين آخرين محمود بك مدير القناطر، ومصطفى أفندي مدير مدرسة المهندسين، والمهندسين أحمد بارودي ورشوان أفندى. ومن الجانب الفرنسي أشير إلى حضور فردنان ديليسبس وكان دبلوماسيًا شابًا حينذاك، وكان العشاء فخما وغنيا بالمشروبات، ليس من مياه النيل، ولكن بخمور قادمة من بورجوني وشامبانيا بلا سدٍّ يخفف من تدفقها. ولاختتام الحفل تم وضع حجر الأساس لمدرسة الهندسة المدنية مع الحروف الأولى لنابليون ومحمد علي، وقد حفرهما سليمان باشا على أول النصب.

ولكننا نعرف أن السد لم يبدأ بناؤه بالفعل إلا عام ١٨٤٧ تحت إشراف موجل بك، وقناة السويس قد احتكرها لنفسه فردنان ديليسبس الذي اقترن اسمه بها.

ولنوضح أولاً حالة السد. في بداية عام ١٨٣٤ عزا محمد علي للينان دي بلفون إدارة العملية، على أساس أن يساعده المهندسون السان سيمونيون. عكف لينان ولامبير وأنفانتان بحماس على إعداد الخرائط واختيار المواد وتقدير التكاليف. وطلب أنفانتان مساعدة اثنين من تلاميذه بقيا في فرنسا وهما بيير دنيس هوارت **Pierre-Denis Hoart** وميشيل برونو **Michel Bruneau**. وطلب منهما استجلاب مهندسي مياه وعمال مؤهلين. ولكن المهندسين لم يتمكنا إلا من جلب فريق صغير؛ لأن مصر كانت بعيدة في هذا الزمن، ولأن المختصين كانوا يفضلون العمل المستقر المريح والمربح على مغامرة "المتطوعين" المعسكرين على شواطئ النيل.

من هم هؤلاء الشجعان؟ هوارت وبرونو بالطبع على رأس الحركة، وكانا ضابطين في المدفعية من خريجي مدرسة الهندسة العليا. واستقالا من الجيش للحاق بأنفانتان، والمهندس إيفون فيلارسو **Yvon Villarceau**، خريج المدرسة المركزية للصناعات والفنون، والطبيبان جالات **Jallat**، ولاشيز **Lachèze** والعمال: ألكسندر، بيس، كورفلييه، دومولار.

وهذا عدد قليل لا يكفي لتنظيم آلاف الفلاحين الذين جمعتهم الإدارة التركية في موقع العمل بواسطة نظام السخرة المعتاد.

وأود بوصفي مصريًا في هذا الصدد أن أشدد على أمر مهم. فالسان سيمونيون على عكس الكثير من الغربيين، يفهمون ما في هذا النظام الموروث من القدم من لا إنسانية وعدم فاعلية. كان بناء السد بالنسبة لهم فرصة لتأسيس علاقات جديدة في مجال العمل: كانوا يبنون مساكن بالحجارة ومستشفى مخصصًا للموقع، ويطلبون أن تُدفع تعويضات للعمال، وأن يحصلوا على تغذية مناسبة، وأن يتم استخدام جنود بدلاً من فلاحين منتزعين من حقولهم وعائلاتهم.

للأسف جاء الطاعون ليقضي على بداية هذا "الجيش الصناعي". كان العمال المصريون يموتون أو يهربون، وسقط العمال السان سيمونيون جميعًا بلا استثناء ضحايا. وكان هوارت نفسه ضحية للوباء. علاوة على ذلك لم تصل المواد اللازمة، لأن الحرب كانت تلتهم موارد الباشا. الموقع بدأ تدريجيًا في الانطفاء. وفي ١٩٣٧ كان شارل لامبير مكلفًا بتقديم تقرير أمام لجنة السد التي يرأسها مختار بك، وبناء عليه أعاد إبراهيم باشا إطلاق المشروع. ويمكن لنا أن نقرأ هذا التقرير في مكتبة الأرسنال في باريس، وهو يحتل دفترًا مليئًا بالأرقام والتحليلات الفنية والاقتصادية. ولكن الأزمة الاقتصادية تغلبت على هذا الجهد الجديد، وتم إهمال المشروع، حتى إعادة إطلاقه بعد ذلك بعشر سنوات على يد موجل.

ولكن جزءًا كبيرًا من المعطيات الفنية والإنسانية تم إعداده بفضل السان سيمونيين.

وآتى الآن للحالة الثانية، القناة. السيناريو متشابه. أعد السان سيمونيون الملف وعملوا على إنضاجه والتعريف به والتصديق عليه، أما التنفيذ فقد أفلت من أيديهم لصالح مواطن فرنسى مثلهم وصديق لهم. في تاريخ قناة السويس، أؤكد على أن السان سيمونيين هم الحلقة التي لا غنى عنها بين حملة بونابرت، أي تقرير لوبير المعروف عن القناة بين البحرين في بداية السلسلة، والشركة العالمية التي كونها ديليسبس في آخرها.

فلننظر عن قرب أكثر.

قلت إن الهدف المبدئي الوحيد لمقدم السان سيمونيين إلى مصر كان حفر قناة السويس. بالإضافة إلى ذلك كانوا ينوون أيضًا حفر قناة بنما في إطار رؤية على المدى البعيد للربط بين القارات والشعوب. لا ينبغي أن نعتقد أنهم كانوا يتخلون بسهولة عن أفكارهم ولا أن دورهم كان يقتصر على تلقين ديليسبس حماسهم للقناة. التاريخ القاصر قد حفظ لنا لقاءهم مع مساعد القنصل أثناء إقامتهم بمصر. ولكن التاريخ الحقيقي أكثر ثراء من ذلك.

يوجد فصل كامل في كتاب جول شارل رو **Jules Charles-Roux** عن القناة مخصص للسان سيمونيين. هذا المؤلف، الذي لا شبهة في أنه يريد أن يقلل من استحقاق ديليسبس، يرى أن دورهم كمنبهين للعقول كان حاسمًا. ويشير بوجه خاص إلى إسهام ميشيل شفالييه، في عام ١٨٤٤ في مجلة ما زالت مرموقة حتى يومنا هذا **La Revue des Deux Mondes**، مع ذلك ندين لفيليب رينيه لعثوره على مقالات أوجست كولان **Auguste Colin** السابقة على مقال شفالييه والثرية بالأفكار والمعلومات: وكيف لنا ألا نعتقد أنهم لم يؤدوا إلى تقدم التأمل لدى أفضل العقول المعاصرة؟ وفيها نجد، بجميع المقاييس، الحلول التي تم اللجوء إليها، بصرف النظر عن نزعتهم الاشتراكية.

ولكن الحدث الذي يحتفي الكتاب الذي بين أيدينا بميلاده هو ٢٧ نوفمبر ١٨٤٦. هذا اليوم في باريس وقد أصبح أنفانتان شخصية محترمة في عالم الأعمال، أسس جمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس. وعلى أساس المبدأ الذي قامت عليه الشركة العالمية : تجميع ممثلين رسميين لأهم الأمم الأوروبية، لكي يتجاوزوا التعارضات القومية.

من هم في الواقع الأطراف المتعاقدة ؟

- المهندس الإنجليزي روبيرت ستيفنسون والمواطن الإنجليزى إدوارد ستاربوك.
- المهندس النمساوى لويس نيجرلي، ومن بروسيا (حيث إن أسماءهم الفرنسية لا توحى بذلك) دوفور.
- فيرونس وسيلييه.
- أنفانتان نفسه وصديقه آرلس- دوفور (أكبر رجال الصناعة في ليون في تلك الفترة وأصبح فيما بعد السكرتير العام للمعرض الدولي في باريس ١٨٥٥)، والأشقاء الثلاثة تالابو.

لا داعى للتذكير بأن الجانب الفرنسي كان كله سان سيمونيًا متحمسًا، ولم يكن هذا على الإطلاق حال الإنجليز ولا نيجرلى ولا البروسيين. وكان أنفانتان وآرلس يتمتعان في هذه الفترة بمصداقية كافية لكي يجذبا خلال بضعة أشهر انضمام الغرف التجارية في ليون ومارسيليا وبلدية تريستا ولويد من النمسا، والغرفة التجارية بفينيسيا وبراغ والجمعية الصناعية بفيينا.

وما إن تم تكوين الشركة وتوفير رءوس الأموال حتى تم البدء بالدراسات. من الجانب الفرنسي كلف بولان تالابو المهندس بوردالو **Bourdaloue** أن يعمل على تحديد جديد لمستويات السطح بالتعاون مع لينان دي بلفون.

كانت النتائج مثيرة. لقد أخطأ جاك مارى لوبير، كان البحر الأحمر والبحر المتوسط تقريبًا على نفس المستوى!

النتائج التي استخلصها تالابو من دراسات الخبراء كانت محل نقاش. باختصار، لم يعتقد، على العكس من شفالييه، أنه بالإمكان إنشاء ميناء والعناية به في البحر المتوسط في مكان آخر غير الإسكندرية، يكون ميناء ذا عمق كافٍ لاستقبال السفن، ومن ثم تقلص الأمر إلى تخيل "مسار غير مباشر" يقطع النيل وكل الدلتا مع استخدام جسر- قناة، إذا دعت الحاجة. اليوم يبدو لنا هذا عبثيًا. ولكن تالابو أسهم بطريقة غير مباشرة في توجيه العقول إلى المسار المباشر، لأنه بيَّن بكثير من الاستقامة المشاكل الكبرى التي سيواجهها الحل غير المباشر.

ماذا صار بعد ذلك؟ كيف تركت جمعية الدراسات الدولية، ذات الرأسمال الكبير، والتي تستند على دراسات خبرة متينة، نفسها لكلام ديليسبس؟ هذا ما سوف أتطرق له سريعًا مقترحًا تفسيرى للوقائع.

كان أنفانتان وديلسبس يعرفان بعضهما جيدًا بل جيدًا جدًا، وفي هذه الفترة كانا يلتقيان كثيرًا للحديث عن القناة. كان الموقف مجمدًا عندما جاء خبر وفاة عباس باشا ووصول سعيد باشا إلى العرش. وكان ديليسبس قد تعامل كثيرًا مع الوالى الجديد عندما كان قنصلاً في الإسكندرية وكان يعتقد، عن حق، أن الباشا يثق به شخصيًا. ولذا فقد اتفق مع أنفانتان وآرلس وتالابو أن يكون بمثابة سفير جمعية الدراسات أمام الوالي وأعطوه كل الملف والخرائط والتقارير وتقدير التكاليف. وفي نهاية شهر نوفمبر ١٩٥٤ أعلن ديليسبس نجاحه لهم: لقد حصل على تنازل القناة. ودون أن يكون هناك اتفاق صورى بينهم كانت العلاقات بين السان سيمونيين وديلسبس واضحة تمامًا. كانوا شركاء بالفعل. وهكذا نجد في خطاب بتاريخ ١٧ يناير ١٨٥٥ تصريح ديليسبس أن آرلس يبدو له أنه الرئيس المقدر لمجلس إدارة شركتنا المستقبل، وأشدد على "**رئيس**" و"**شركتنا**".

ورغم ذلك فإن ديليسبس في نهاية المطاف عندما صار الماسك بخيوط اللعبة ترك حلفاءه الأوائل. بل قطع معهم قطيعة بائنة لدرجة أنه حرص ألا يكون من بينهم واحد في مجلس إدارة الشركة العالمية.

وإجمالاً، وللمرة الثانية، ودون إقلال من استحقاق ديليسبس وجد السان السيمونيون أنفسهم محرومين من مجد مشروع تحملوا تكاليفه الأولى وبلغوا بملفه الفني وبالاستراتيجية الدبلوماسية درجة عالية من الاكتمال.

الدوافع الفنية للطلاق بين ديليسبس والسان سيمونيين هي في العمق ثانوية. سواء كانت مسارًا غير مباشر كما كانوا يحبذون، أو مسارًا مباشرًا كما كان يريد الوالي والصواب في جانبه، كان أنفانتان وأصدقاؤه يطلبون على وجه الخصوص، وكانوا يقولون ذلك بأنفسهم، أن يتم حساب الإيجابيات والسلبيات. ولكن، كما يبين بوضوح فيليب رينيه، كان خطؤهم أنهم فكروا في هذه المسألة بمفاهيم أوروبية وليست مصرية وقالوا ذلك بصوت مسموع.

وإذا وقفنا عند مستوى المنافسة الفرانكو فرنسية، فإن السان سيمونيين في موضوع القناة قد لعبوا دور السلحفاة في حكاية لافونتين بينما لعب ديلسبس دور الأرنب.

فقط في موضوع القناة انقلبت الآية، فالأرنب هو الذي فاز والسلحفاة هي التي خسرت. فبالفعل انطلق ديليسبس متأخرًا جدًا ولكن في اللحظة المناسبة، وهي لحظة وصول حاكم أكثر ميلاً إلى أوروبا وإلى فرنسا بوجه خاص، وكانت حملته سريعة لم يكن لديه وقت لالتقاط الأنفاس. السان سيمونيون انطلقوا مبكرًا ولم يستطيعوا أن يقطعوا كل المسافة.

ولكن حان الوقت اليوم للاعتراف بدورهم. وأقول من باب الاستمرار في المجاز الرياضي، إنهم قطعوا الشوط الأول وسلموا العصا الشاهدة بأفضلية حاسمة.

***

ولأقلْ ما أفكر فيه في أعماقي، لا ينبغي أن تخفي القناة كل الباقي، العمل اليومي المستمر بمجمله الذي مارسه السان سيمونيون في مصر خلال عقدين من الزمان ودام تأثيره زمنًا أطول.

وما نعرفه بصورة أقل هو ما أريد الانتهاء بالحديث عنه.

لأن كثيرين منهم بقوا بعد رحيل أنفانتان، مثلهم مثل بعض الجنود والضباط والخبراء في جيش بونابرت بعد رحيل قائدهم. وهؤلاء هم رجال المؤخرة الذين هم الأكثر نفعًا لأنهم الأكثر صمتًا.

أريد أن أشير أولاً للذكرى إلى لينان دي بلفون، الذي نجد في الجمعية الجغرافية بمصر رسومًا بالزيت له تركها أبناؤه؛ للتذكرة فقط؛ لأنه بالنسبة للسان سيمونيين لم يكن سوى رفيق طريق، لم يكن عضوًا في جماعتهم. ورغم ذلك نجده في قلب مشروعين كبيرين، السد والقناة، وله نصيب كبير، بوصفه باشمهندس الطرق والكباري في مصر في إنشاء وصيانة جزء كبير من شبكة المياه في مصر. إن حالة لينان دي بلفون هي حالة ممثلة تمامًا للتأثير الأيديولوجي الذي مارسه أصدقاء أنفانتان. سوف أقارنها بطريقة عمل هذه البلورات التي ما إن وجدت في وسط ملائم، حتى صاغت هذا الوسط حسب نموذجها. حظي السان سيمونيون بترحيب من الموظفين الفرنسيين المحيطين بمحمد علي، المتأثرين في أغلبهم بأفكار عصر التنوير وبعملية إعادة التنظيم التي بدأها بونابرت. ونفكر أيضًا في سليمان باشا وكلوت بك وهما أكثرهم شهرة وفي الطبيب اللطيف دكتور دوساب **Dussap** الذي استضاف في بيته توما أوربان ثم سوزان فوالكان **Suzanne Voilquin** أو الدكتور نيكولا بيرون **Nicolas Perron** الذي جاء إلى مصر، جمهوريًا، ثم اعتنق السان سيمونية وصار أستاذًا في مدرسة الطب، وانتهى بأن حل محل كلوت بك في المؤسسة التي أقامها.

لقد كان السان سيمونيون يتركون بصمتهم على هذه العقول لأنهم كانوا جماعة نشطة، بدرجات متنوعة بلا شك ولكن بلا استثناء. وإحدى فضائل فيليب رينييه هى أنه أراد أن يعيد الحياة إلى هذا "المجتمع المتناهي الصغر"، بحسب تعبيره، والذي أدى حضوره المتواصل إلى ضمان الاتصال بين مصر وفرنسا.

أما في قائمة الوجوه السان سيمونية حقًا التي يقدمها لنا فيليب رينييه، الشخصية التي أفضلها بوصفي مصريًا فهي شخصية شارل لامبير. فبالنسبة لنا نحن المصريين، المهندسون المهمون في المرحلة والذين نحن فخورون بهم لأنهم أول المهندسين المصريين في عصر الصناعة، هم رجال مثل: محمد بيومي، مصطفى بهجت ومحمد مظهر وأيضًا بالتأكيد، في الجيل التالي مباشرة، علي مبارك. نحن نعرف جميعًا ما تدين به كفاءتهم إلى إقامتهم في فرنسا في إطار البعثات الدراسية وخصوصًا البعثة الأولى والأكثر أهمية، بعثة عام ١٨٢٦ التي ضمت رفاعة الطهطاوي.

الإسهام الفريد لهذا الكتاب، هو بيان الدور الشخصى لشارل لامبير. لقد أصبح مدير مدرسة المهندسخانة في بولاق بعد إنشائها بقليل، وحتى عام ١٨٤٩. لقد كان يتكفل باستثمار رأس المال البشري من المعارف العلمية والتقنية التي جمعتها البعثات المصرية في فرنسا.

يروى لنا المؤلف كيف أن هذا الرجل ذا المظهر المتواضع، وهذا التلميذ النابغة لمدرسة الهندسة العليا في باريس، قرر أن يصبح فرانكو عربيًا لكي يتحمل بتفانٍ مثالي مهمة أن يكون الأساس المحوري لكل نظام التعليم الذي أراده محمد علي حتى يعطي مصر الكوادر التي لا غنى عنها لاستقلالها.

في المقام الأول ، اهتم لامبير بإتقان إعداد أربعة مصريين عهدوا إليه لكي يشكلوا نواة هيئة جديدة للتعليم: بيومي، وطايل ودوجلي وعبد الرحمن. وقد لاحظ مدير مدرسة بولاق كيف أن التقديس بلا منازع للرياضيات البحتة في مدرسة الهندسة العليا في باريس قد تركهم محدودى المعرفة في مجالات العلوم الفيزيائية والتكنولوجيا الصناعية والاقتصاد السياسي، فوضع برنامجًا وصاغ دروسًا تغطي هذا النقص.

لقد قلَّبتُ بنفسي في المخطوطات التي تحدد ساعات الدراسة، والكتب المقررة، والمسائل التي ستعالج. أقل ما يقال هو أنها تتعرض لكل المعارف النافعة لمهندس، بما فيها الاقتصاد السياسي لجان باتيست ساي **Jean Baptiste Say** الذي ربما تم تنقيحه، ولا أعد ذلك شيئًا سلبيًا، على ضوء مبادئ المذهب السان سيموني. يبدو بوضوح أن لا مبير قد تم تكليفه بمهمة أن ينتج وبسرعة مهندسين يعملون في الميدان. وتبنًى المهمة بلا تحفظ لشعوره بأنه بذلك يخدم مصر أكثر مما يخدم محمد علي.

ودليلي على ذلك هذه الحكاية المدهشة التي تبين أنه كان يدرس العربية وليست التركية، بصحبة من سماهم "شباني الأربعة"، أو "أولادي"، الأربعة مدرسين الأوائل في مدرسة بولاق. لقد تعلم لامبير بالفعل العربية لكي يكون قادرًا على الحديث مباشرة مع التلاميذ؛ لأن هؤلاء التلاميذ على عكس أغلبية أعضاء البعثات الدراسية، هم مصريون أكثر فأكثر من مصر، ولدوا على شواطئ النيل وأقل فأقل أتراك مجلوبون من الإمبراطورية العثمانية ليضمنوا هيمنتها.

بيد أن لامبير حينما عمل على إعادة ابتكار ثقافة علمية عربية بصياغة الكتب المدرسية التي تحوي أفضل ما في العلم الأوروبي وبترجمتها إلى العربية، لم ينسَ أن معرفة جيدة باللغة الفرنسية هي بالنسبة لهؤلاء الطلاب الوسيلة الوحيدة لتمكينهم من وصول دائم وحر للاكتشافات الأكثر صعوبة والأحدث، وتسمح لهم بالمشاركة الكاملة في النقاشات العلمية. باختصار أراد أن يجعل منهم مساوين لأساتذتهم. ولست أنا أمين عبد النور الفرانكفوني الذي يراجع لامبير حول هذه النقطة، بل على العكس. حيث إن موقف لامبير فيما يخص المسألة اللغوية، لم يؤدِّ قط إلى لغة مهيمنة تبتلع ما عداها من لغات. بالنسبة له تمثل الفرنسية للعربية ما تمثله اللاتينية للفرنسية: لغة مرجعية، وأداة لإتقان اللغة المستخدمة، مرآة نتحقق فيها باستمرار من قابليتها للتطور والإثراء.

وأنا بوصفي رجل اقتصاد لا أستطيع إلا أن أكون مهتمًا بالنصائح الاقتصادية التي كان يقدمها لامبير لمحمد علي. لن أتحدث عن التحليلات الاقتصادية لأوجست كولان، رغم أهميتها النظرية الكبرى، بما أنه ليس لدينا ما يسمح بالتيقن من أنها كانت معروفة في مصر.

ولكن الاقتراح الذي قدمه لامبير لمحمد علي منذ عام ١٨٣٤، بأن يلجأ إلى الاقتراض ليمول مشروعاته الكبرى يجعلني أستغرق في حلم. فلنتخيل هذه الأداة الهائلة لتطوير الاستقلال وهي الاقتراض في يد محمد علي بالمقارنة بما صنعه بها أحيانًا أبناؤه. ولأنني رغم ذلك أفضل العمل على الخيال فإن آراء لامبير في المجال النقدى تبدو لي أكثر أهمية. لقد رأيت في مكتبة الأرسنال الصناديق الثلاثة التي جمعها البك منذ اللحظة التي طُلب منه فيها أن يتدخل في هذا الشأن. ولأنه كان إداريًا ومهندسًا كان ينظم التفاصيل الصغيرة المادية لصناعة العملة المصرية من شراء المواد الخام والإشراف على مدى نقاوتها وحتى مزايا وعيوب الماكينات المستخدمة في السك. وحصل من مراسليه الباريسيين على النصوص المنظمة لمصلحة العملة واستلهمها لتحديد القواعد المصرية.

اللجنة التي كلفها محمد علي في ١٨٤١ بمناقشة ومراقبة صناعة العملة، والتي يرأسها، حسبما يصح، أدهم الذي يثبت فيليب رينيه بشكل واضح انتماءه للسان سيمونية، كان أعضاؤها هم لامبير، بالطبع، وبيرون (الذي أشرت سالفًا لانتمائه للسان سيمونية وعمله الطبي بمصر) وأستاذان مصريان على صلة به هما: حسين رشيدي وأحمد زادة (الأول أستاذ صيدلة والثاني أستاذ كيمياء في مدرسة الطب)، وكذلك أحمد فاهت (أستاذ كيمياء في مدرسة المهندسخانة). وكان عبد الرحمن، الصديق الحميم للامبير، هو الذي صاغ، في أغسطس ١٨٤٢، التقرير النهائي للمجلس الخاص. وإذا انتابنا شك في: من هو موجه هذا التقرير فإن خطاب من آرلان بك بيّن لنا من هو: يشير كاتب الوالي وترجمانه أن سموه لم يفهم جيدًا بعض العبارات في الترجمة التركية وطلب الأصل الفرنسي للقيام بالتصحيحات اللازمة.

بيّن لامبير انطلاقًا من اعتبارات تقنية لا غنى عنها (وإن استعصت قليلاً على محمد علي) أن العملة المصرية سيئة الصنع، لأنها ثقيلة في قيمتها ووزنها وسبيكتها. فهي ما إن تُخصص للصرف حتى يجمعها الناس، نظرًا لأهمية المعادن المكونة لها. ويشرح لامبير ما يجدر عمله لتصحيح هذا العيب. فيما وراء الأرقام التي يقوم برصها كانت رغبته هي أن يمنح مصر العملة القومية الصلبة والفعالة، المستقلة عن تركيا والعملات الأوروبية. وإلا فإن الدولة المصرية، حسب تفسيره، سوف تشبه هذه الإدارات الاستعمارية التي تستخدم كل العملات الأجنبية إلى جانب عملة الدولة الاستعمارية.

إلى أى مدى وصل لامبير والسان سيمونيون في تحقيقهم لأهدافهم في هذا المجال الحاسم وفي غيره؟ لا يستطيع فيليب رينييه أن يقوله لنا بشكل كامل، ففي الجانب السان سيموني يقف في وجهه حاجز اللغتين، العربية، والتركية العثمانية – وأضيف بعد أن عرفته جيدًا بعد هذه الشهور من التعاون، باحترامه لاستقلالية وجهة النظر المصرية. إنه يعرض، بالمعنى التام لهذا الفعل، كل ما قرأه في الوثائق، وفي كل مرة يلمح فيها غموضًا، وتباينًا وتناقضًا، فإنه يشير أو يلمّح إليه بحيث يمكن للقارئ المصري أو الشرقي أن يبنى بنفسه قراءته الخاصة للوقائع والنصوص. لا شك في أن المعلومات الخارجية تساعد أحيانًا في تعميق فقده لحدود ما يسميه بوعي النقل الثقافي. ألاحظ على سبيل المثال أن علي مبارك الذي دخل عام ١٨٣٩ في مدرسة المهندسخانة ببولاق التي كان لامبير يتولى إدارتها الفعلية، لم يكن يعرف الفرنسية حينما وصل إلى المدرسة العسكرية المصرية بباريس عام ١٨٤٤. بيد أن بعض رفاقه كان يعرفونها ويحافظون بحرص على هذا الامتياز حتى لا يدركهم أقرانهم. ويروى علي مبارك كيف استطاع أن يتعلم الفرنسية وحده ويحصل على الجائزة الأولى. ولكن لماذا في بولاق، لم يكن مزودًا، مثل غالبية الآخرين، بهذه اللغة الحيوية؟ حينما أصبح وزيرًا، تذكر معاناته وقرر في عام ١٨٨٠ أن يتم مبكرًا تدريس بعض المواد بالفرنسية مباشرة باستثناء بعض المعلومات التي يوجد مصدرها في مصر. يقدم لنا فيليب رينييه كل المعلومات المتاحة للحكم على ما أراده السان سيمونيون وأصدقاؤهم المصريون، وقياس المسافة بين رغباتهم وتطبيقاتها التي أرادها وسمح بها محمد علي. فليُسمح لي، في هذا الصدد، أن ألفت الانتباه إلى نقطة أخيرة. نحن نرى هنا كيف أن رجالاً على درجة كبيرة من الأهمية مثل إبراهيم أدهم وعبد الرحمن رشدي قد تأثروا بالسان سيمونية، ونحن نتعرف على عناصر من سيرتهم ووظائفهم كانت غير ملحوظة بل مجهولة حتى الآن. لأى مدى كان بإمكانهم التأثير في قرارات الحكام؟ وهل فعلوا ذلك؟ ما هي صلاتهم بالضبط مع رفاعة؟

على القراء، ولا سيما الباحثون المصريون، أن يستخدموا كتاب "السان سيمونيون في مصر" أفضل استخدام.

أمين فخري عبد النور

القاهرة، نوفمبر ١٩٨٩

مدخل

أن تعرض هو أن تطرح أمام النظر بشكل كامل. ولكن كيف يمكن أن نبيّن بشكل واف "السان سيمونيون في مصر" دون أن نعرض أيضًا، بصورة ما، للنصوص التي تشكل كتلة الوثائق التي لا تبيّن الصورة المقدمة إلا الجزء المشهدي منها؟ ولذا فإن هذا الكتاب هو أكثر من، بل وشيء مختلف عن، كتالوج مرافق للعرض. بل يسعى لأن يكون خط سير لقراءة ومسارًا استكشافيًا يرسم الحدود ويعيّن الأقاليم والطرق الأساسية لموقع للذاكرة الأرشيفية المشتركة بين مصر وفرنسا.

لأن الأمر يتعلق بالفعل بأن نُخرج من طي النسيان شبكة غير معروفة من البشر والأفكار، مجتمع متناهي الصغر غير رسمي، تم بواسطته، خلال عقدين من الزمان، تنظيم مجمل أنواع التبادل بين البلدين ومنحها دلالة خاصة. وكما لاحظ الأستاذ رشدي فكار، فإننا نتحدث دائمًا عن الدور الذي لعبه الأوروبيون في تطوير مصر تحت ولاية محمد علي، ولكن لا نحددهم إلا بواسطة جنسياتهم وننسى ونتجاهل الانتماء السان سيموني لعدد كبير منهم[1]. هذا النسيان وهذا الجهل يشبه إلى حد كبير نوعًا من الرقابة، إن لم نقل من الكبت.

إن تشتت المصادر وصعوبة الوصول إليها ثبطا بالتأكيد همة الكثيرين من ذوي النوايا الحسنة. فأرشيف أنفانتان وأرشيف إيشتال **Eichthal** في مكتبة الأرسنال بباريس يجمعان وحدهما ما بين ٣٥ إلى ٤٠ ألف وثيقة مخطوطة. والحال أنه لا يكفي الذهاب مباشرة إلى أوراق لامبير أو أوربان، أو إلى الصناديق الكرتونية لجمعية دراسات قناة السويس لالتقاط المعلومات المفيدة. فبعض السطور الضائعة في خطاب مجهول، في الغالب تثبت واقعة وتاريخًا وهوية أو تشير إلى مسار شخصية أو كتاب أو كتيب أو مقال أو دفتر.

في الحقيقة لا يمكن للعقبات المادية أن تبيّن لنا سر الكتمان المتعلق بالسان سيمونيين بوصفهم كذلك. فكلوت بك على سبيل المثال، ربما كان يخشى أن يدخل اعتبارات غير علمية في رسالته "عن الطاعون"، عندما أراد تكريم معاونيه أثناء الوباء في عام ١٩٣٥ ، نجده يمتنع عن أي إشارة إلى دوافع الأطباء فوركاد ولاشيز وبيرون. والقنصل العام ميمو من جانبه، في رسالته إلى دوق دو بروجلي، لا يمكن أن يلزم الصمت إزاء الآراء المهمة لبعض رعاياه، وقدم لهم طوعًا مساندته بسبب وضعهم المرموق كمهندسين. ولكنه لا يخفي قلة تعاطفه مع مجموعة يرى أنها محكوم عليها أن تُنسى، ولا يريد أن يرى سوى أفراد مهمين في موضع كان يمثل تعبيرًا عن تعاضد جماعي[2]. أما فيردنان ديليسبس فلديه أسباب بديهية من الدبلوماسية والمجد الشخصى ليمحو حتى وجود حلفائه المبكرين. المنافسة والكراهية الإيديولوجية، أو الحرص على عدم التورط تواطأت جميعها لكي تفرض إخماد الذكرى.

ولا يخلو الأمر من بعض المغرضين الذين أخفوا أحيانًا من باب الحذر انتماءهم. ويروى ماكسيم دو كان **Maxime Du Camp** صديق فلوبير **Flaubert** في كتابه **ذكريات أدبية**، أنه في أحد الأيام في حفل عشاء بحدائق تويلري كان النقاش يدور حول الفضيحة المتعلقة بكل الطوائف الناشئة، ضرب الإمبراطور نابليون الثالث مثلاً بالسان سيمونية وأشار إلى أن عديدًا من المنتمين إليها موجودون على مائدته. ويروى المؤلف عضو الأكاديمية الفرنسية: "رأينا الأمير.. يقف ويقول : «إنه ابن تالابو وابن لامبير وابن أنفانتان وابن أوليند رودريج وابن سان سيمون» وهو ما جعل الإمبراطور ينظر بتمعن إلى ثلاثة وزراء وسيناتور من بين مدعويه. ولكنهم امتنعوا بحذر عن الاستجابة للإغواء"(٣). هل نضيف أيضًا أن دو كان نفسه لم يقرَّ صراحة وعلنا بإيمانه بسان سيمون؟

المهام التي لا غنى عنها كانت هي كتابة قائمة بأسماء السان سيمونيين الذين أقاموا في مصر، وكذلك كشف حساب وتاريخ دقيق لأعمالهم. وبعد جمع هذه المعلومات يبقى تجميعها في كل متجانس وفك شفرة ما نتج عن عملية إعادة البناء هذه.

***

أحد مفاتيح القراءة الإجرائية هو مفهوم الحداثة، والذي يمكن أن ندرج فيه، بعد إجراء اللازم، حركة الإصلاحات التي قامت في الإمبراطورية العثمانية – وضمنها مصر – التي استبقت النهضة في نهاية القرن والملامح الأكثر تجديدية في الفكر السان سيموني في المجال الاقتصادي، وكذلك في المجال الأيديولوجي.

وجهة النظر هذه لا تتضمن دفاعًا بلا تمييز عن المسيرة السان سيمونية، ولا تبنّى بلا تحفظ لسياسة محمد علي. لا تستبعد أبدًا الاعتقاد بأن الحداثة ليست حكرًا على الغرب، ولا تحكم مسبقًا بأنه لا يوجد سوى نموذج وحيد، إجباري بصورة عامة ومفيد بصورة جوهرية.

ونحن نعتقد على العكس أن مصر محمد علي انطلاقًا من وضعها الخاص، وباستخدام قواها الخاصة وتلبية لحاجاتها الخاصة، تشق الطرق لمستقبلها. والحال أن هذا العمل "للبعث"، كما كان ينظر له حينذاك في أوروبا، يؤدى إلى أحكام بالغة التناقض(٤).

الرجل الذي يقود المسيرة أتى من هوامش الإمبراطورية العثمانية، لكنه ذو ثقافة تركية، وغريبٌ يكاد يكون محتلاً. وهو تاجر تبغ قديم وضابط محارب، كانت قيمه تدفعه إلى احتلال الأراضي، والإثراء عبر التجارة مع الغرب، على المدى القصير بدا وكأنه "آخر المماليك". كانت سلطته تستفيد من قاعدة اجتماعية محدودة حاول أن يضمن استمرارها، لأنها على صورته. ولكن على المدى الطويل كانت طموحات محمد علي تذهب إلى أبعد من ذلك. كان يهــدف إلى خلق دولة مستقلة عن الباب العالى وتمد سيادتها على

الجزيرة العربية والشام وفلسطين، وداخل البلاد يجدد ويغير نظام قنوات الري، فحفر من القاهرة إلى الإسكندرية الترعة المحمودية لنقل المسافرين والبضائع داخل البلاد ولري زراعات التصدير في الدلتا. وأقام في بولاق محالج ومغازل للقطن المصري للتجارة فيه. الموارد التي جلبها هذا التحديث الممول ذاتيًا، دعمت إنشاء جيش نظامي كبير العدد، قادر على هزيمة العثمانيين وخلق قوة بحرية تحمي الأسطول التجاري الوطني الذي أنشأه عمليًا من الصفر.

وهذا يفترض وجود ترسانات ومصانع بارود ومستشفيات عسكرية، ومدارس للضباط... وهكذا كانت التنمية الزراعية والصناعية والتجارية في مصر غير منفصلة عن تنامٍ ملحوظ للقوة العسكرية، وقوة الدولة في البلاد. وقد نتج عن هذه الصيغة ديناميكية قومية، وكانت عبقرية محمد علي تكمن في أنه لم يكبح جماحها. بل على العكس نشّطها بقدر ما يستطيع مخاطرًا بوضع الامتيازات الأرستقراطية التركية في خطر. هل يوجد نقص في الضباط والمهندسين؟ نراه يستقدم الخبراء الأوروبيين ويرسل مجموعة من الشباب للدراسة في فرنسا، وهؤلاء يختارهم أولاً من العائلات التركية والشركسية والجيورجية واليونانية والأرمنية والكردية التي تشكل طبقته. ولكنه يرضى بأن يضم إليهم بعض المصريين الأصليين القادمين من الأزهر مثل رفاعة الطهطاوي. وعلى مستوى أكبر لم يتردد في تشكيل جيش من الجنود العرب، الذين تعلموا على الطريقة الأوروبية ودربهم بمستويات ترتفع مع الوقت وبواسطة ضباط عرب.

هذه المسيرة الإجبارية نحو الاستقلال والقوة كان الباشا يقودها بصورة استبدادية مفرطًا في التحكم في عمل وحياة الفلاح بصورة أدت إلى عشرات الآلاف من الضحايا. وفي هذه الظروف كان الشعب يعيش التحديث بوصفه صيغة من الاستغلال جديدة وقصوى. كان على كلوت بك، على سبيل المثال، أن يكافح ضد الخوف المنتشر من أن يكون المصل علامة مخصصة للتجنيد. ولكن الفلاحين لم يكونوا على خطأ في حذرهم، لأن سياسة الصحة العامة التي ينفذها هذا الطبيب القادم من مارسيليا كان هدفها رفع معدل النمو السكاني لسد الحاجة إلى الجنود واليد العاملة.

وكذلك كانت الأسر لا تستحسن أن يُنتزع منها أبناؤها لإدخالهم مدارس على النمط الأوروبي، لأنه، باستثناء مدرسة المهندسخانة، كان المستفيدون مما يمكن أن يشبه التعليم المجاني والإجبارى يخضعون في سكنهم الداخلي لنظام عسكري: ويمكنهم أن يصبحوا حسب الحاجة مهندسين مدنيين، أطباء، معلمين وأيضًا ضباطًا.

"لم نرَ يومًا الرغبة في إسعاد شعب وتحديثه بمثل هذه القسوة". هذا ما لاحظه عام ١٨٣٣ البارون بوالكونت **Boislecomte**، الذي كان في مهمة دبلوماسية في الشرق. ويرى هذا السان سيموني، من جناح بوشيه **Buchez** ، أن دخول العصر الصناعي إلى مصر عدّه المصريون المحتجزون للعمل في المصانع "وباءً جديدًا" مكافئًا لتجنيد ممتد إلى النساء والأطفال(٥) .

ومن هذا المنظور، طرح نموذج التنمية الذي دشنه محمد علي على السان سيمونين أسئلة وجدوا صعوبة في التعامل معها نظريًا. فمن جانب كان الباشا يحقق بإعجاز مذهبهم: تركيز ملكية الأراضي والملكية العقارية والصناعية في يد من هم أقدر على استثمارها (أى الوالي نفسه الذي وصفه ميشيل شفالييه بـ "الباشا الصناعي") وتعبئة الشعب حول مشروعات كبرى للمصلحة العامة، وإعداد مهندسين للدولة،... إلخ. ولكن من جانب آخر روح الغزو العسكري والعواقب الإنسانية لسياسته كانتا على نقيض المثل العليا التي تعبر عنها شعارات صحف أورجانيزاتور **Organisateur** وجلوب **Globe**:

- لكل حسب قدرته، ولكل قدرة حسب أعمالها.
- كل المؤسسات الاجتماعية ينبغي أن يكون هدفها هو تحسين الوضع الأخلاقي والبدني والثقافي للطبقة الأكبر عددًا والأكثر فقرًا.
- التنظيم السلمي للعمال.

لأنهم بلا شك يعولون، على عكس السان سيمونيين الجمهوريين (مثل بوشيه وبيرو لورو **Pierre Leroux**)، على أن نمو الإنتاج بواسطة الصناعة، أكثر مما يعولون على توزيع متساوٍ للدخول، لذا فقد راهن السان سيمونيون الأنفانتينيون (نسبة إلى أنفانتان) على محمد علي. لقد كانوا مفتونين بإعجابه بنابليون، وما إن وضعوا أقدامهم في الإسكندرية حتى صار بديهيًا بالنسبة لهم أن الشعب المصري يستحق الاهتمام الأول. "هنا بلا شك الطبقة الأكثر فقرًا، والاستعباد الفظ للمرأة مستقر بصورة تدعو للتمرد، ولا نستطيع أن نتوافق مع أوضاع كهذه"(٦). هذا الانطباع الأول للامبير يعبر عن صدمة اللقاء الأول التي حركت رسالته "الفرنسية – العربية".

***

هذا اللقاء بين هذه الطرق المتوازية إلى الحداثة، وهذه الفجوة النابعة من ثقافتهم الأصلية، والتصادم بين الأهداف والواقع، تحمل في طياتها ما يحفز على التأمل الراهن.

في هذا الصدد، تقوم المغامرة السان سيمونية برد اعتبار مفهوم اليوتوبيا؛ لأن هؤلاء المهندسين الذين فشلوا في إقناع محمد علي بإتمام بناء قناطر النيل أو بالشروع في حفر قناة السويس، كانت لهم الجرأة على الإيمان بهذه المشروعات غير المحتملة وإعدادها على المستوى الفني. والحال أن ما يسمح لهم بالاستباق هو هذه القدرة على "الخيال" التي كان كثيرًا ما قلل أوجست كونت من شأنها، والتي دافع عنها سان سيمون ضد سكرتيره وتلميذه كونت وكان يطلق عليها اسم "الملكة العاطفية". ومع محمد علي حاز السان سيمونيون، فيما وراء اختلاف الأديان، الثقة غير المحدودة في قدرات البشر على أن يصبحوا سادة الطبيعة وملاكها، والإيمان بأن المجتمع بأسره يمكنه ويلزمه أن ينتظم حول الإنتاج.

ولهذا فنحن نبذل جهدًا جادًا لفهم المشروعات والممارسات الأكثر طوباوية، بل حتى الأكثر صوفية، على اعتبار أن هذه الهلوسات نفسها لم تكن مجانية ولا خالية من الفاعلية العملية. فالأب أنفانتان في نهاية الأمر هو في آن مؤسس لطائفة ورجل أعمال ماهر ومبتكر نجح في توحيد شركات السكك الحديدية بفرنسا، ومستندًا لنجاحه هذا أسس أول جمعية لدراسات قناة السويس.

ولنفس السبب، يتم لفت الانتباه إلى ضروب الفشل والصعوبات وبنفس القدر إلى نجاحات التحويل الثقافي الذي استدعاه محمد علي وأجراه السان سيمونيون. من المهم أولاً أن نعرف ما الذي تم تحويله في الواقع. ولكن من المهم أيضًا أن نحدد ما الذي لا يتمكن من عبور الحدود الثقافية، وما هي دوافع الأطراف المختلفة وعبر أى وسطاء يتم التبادل، وما هي النتائج التي تتعرض لها الثقافة التي تقوم بالاستيراد...

***

بدأت المغامرة السان سيمونية في مصر عام ١٨٣٣ في لحظة قوية من تاريخ العلاقات المصرية الفرنسية في القرن التاسع عشر، وانتهت في ١٨٥١ مع رحيل شارل لامبير في غمار رد فعل عباس باشا المضاد للأوروبيين والمحابى للإنجليز في نفس الوقت.

وهذا يعني أن المغامرة على الرغم من زعمها بأنها تتم على مستوى كوني، فهي لا تفلت من لعبة التحالفات والتنافسات الدولية، وتتم من ثم في إطار المعاونة المعروفة التي كانت تقدمها لمحمد علي الحكومات المتعاقبة لملكية يوليو في فرنسا.

ولكنها تقلب هذه المحددات وتخترقها أحيانًا، باعتبارها فتحت، فيما يتجاوز القرن الذي حدثت فيه، مجالاً لمناقشات وإمكانيات ما زالت راهنة.

فليسمح لنا، إذن، أن نعبر عن أمنية، ونعرضها للفحص والنقد، أن نرى الجمهور المصري راغبًا في استعادة الذاكرة الحية لهذه المغامرة.

الهوامش

(1) Voir *L'influence internationale de Saint-Simon et de ses disciples,* thèse parue sous le titre: *Sociologie, Socialisme et Internationalisme prémarxistes*, Delachaux et Niestlé, Neuchâtel (Suisse), 1967, p. 246.

(2) Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Correspondance politique des consuls, Egypte, vol. 4, p.131.

(3) Op. cit., éd. 1883. T. II. Pp. 122-23.

(٤) انظـــر الإشــــارة إلى هـــذه الآراء والتأليف الواضح بينها فى d'André Raymond, "Muhammad Ali et la naissance de l'Egypte moderne (1805-1849)". Dans *Le Regard du Voyageur – Pascal Coste (1788-1879), architecte marseillais*, Bibliothèque Municipale de Marseille, 1987. p.p. 49-50.

(5) Archives du Ministère des Affaires Etrangères. Correspondance d'Orient, 1834, p. 143 v°. sur le saint – simonisme buchézien de Boislecomte. Voir F.A. Isambert, De la charbonnerie au saint-simonisme. Etude sur la jeunesse de Buchez, Paris, Minuit, 1966, pp. 72-227 et Annexe I.

(6) Journal inédit de Charles Lambert, Fonds Enfantin (F.E.) de la Bibliothèque de l'Arsenal, Ms. 7.751/11 (en date du 26 octobre 1833).

الفصل الأول

الشرق، قطب الفكر السان سيموني

"الشعوب المسيحية ليست هى وحدها اليوم العطشى للتقدم"

(ميشيل شفالييه، *Système de la Méditerranée*، ١٨٣٢)

بنظرة سريعة على القرن، نجد أن حملة مصر للسان سيمونيين إعادة إنتاج لحملة بونابرت.

ومن الأرجح فعليًا أنه بعد بضعة عقود لا نجد اختلافًا أساسيًا يميز أيديولوجية علماء المعهد عن أيديولوجية التلاميذ القدامى للمدرسة النابليونية جدًا، وهي مدرسة الهندسة العليا التى يمثلها أنفانتان وعدد كبير من رفاقه.

ولكن فرنسا التي رحل منها السان سيمونيون ليست فرنسا نابليون، ولا مصر التي وصلوا إليها هي مصر المماليك. لا نستطيع أن نغفل الاختلاف في الأزمنة، اللهم إلا إذا اكتفينا بانعكاس مشوش للواقع.

ومهما كانت رغبة المجموعة الصغيرة المحيطة بأنفانتان قوية في تنشيط ذاكرة الجيش الفرنسى في مصر، فإن البحث عن الدوافع ينبغي أن يتم في الأرض الفعلية لمعاركها هي نفسها، في السياق الأصلي لسنوات ١٨٢٠ – ١٨٣٨.

***

الحال أن الشرق بالنسبة لأوروبا في زمن الحلف المقدس، وبوجه خاص بالنسبة لـــ فرنسا التي عادت تحت حكم عائلة البوربون الملكية، لم يكن جاذبًا. لم يكن القطب الثقافي لأنصار الشرعية، وكذلك لليبراليين هو الجنوب ولكن الشمال، فمنذ مدام دى ستايل **Mme de Staël** وكتابها **عن ألمانيا De l'Allemagne**، أصبح هو الموطن الطبيعي للمسيحية والرومانسية.

في الأصل، السان سيمونية جماعة ليبرالية، موجهة إلى الشمال، ولا ترى أن هناك أى مركز في العالم سوى أوروبا. وكانت أهرام مصر بالنسبة لسان سيمون تشهد على حالة طفولة للإنسانية، حيث كانت هناك لذة في بناء كومة كبيرة من الأحجار. وهو إذ يقبل أن يكون العرب فى طليعة العلوم حتى القرن الخامس عشر، فإنه يضم تحت كلمة "البربرية"، آلهة مصر القديمة والهند والإسلام، الذي، حسبما يرى، تبنى ونشر "الأحكام المسبقة" للبربرية بقوة السلاح[1]. في إطار هذه النظرة للعالم التي تعد إلى درجة كبيرة تجديدًا لعقلية الحروب الصليبية، فإن ديانة محمد تستخدم كمُنفّر يهدد الهوية الأسطورية لأوروبا.

ولكن العلامتين المتعارضتين للهلال والصليب، في الوقت الذي تمثلان فيه قيمًا، تساعدان الفكر السان سيموني على بناء نفسه وإدراك حدود النظام الروحي والزمني لسنوات ١٨٣٠.

وواحد من التعبيرات الأولى المبتكرة للمذهب الخاص بأنفانتان يتشكل تحديدًا من خلال طرح ثنائية متعارضة : فهناك من جانب، "الأخلاق المسيحية" التي أساسها "عزوبية الكهان، كتعبير عن رفض الجسد" وهناك من جانب آخر "الأخلاق المحمدية" القائمة حسبما يرى، على تعدد الزوجات كتعبير عن الاستعباد المنزلي للمرأة وفظاظة الشهوات البدنية في الشرق المحارب"[٢]. الحل، السهل تخمينه بناء على تلك الفروض، لن يوجد إلا من خلال تجاوز تأليفي لكلتا المنظومتين الأخلاقيتين. ما زال أنفانتان لا يجرؤ على أن يقوم علنًا بمديح تمرد الجسد. ولكن يكفي أن نقوم بإظهار، بالمعنى الفوتوغرافي للكلمة، هذه الصورة السلبية لفكره، من أجل الحصول على صورة الشرق التي سيفرضها في الحركة السان سيمونية بعد انشقاق بازار، أى بعد شهر نوفمبر ١٨٣١: ألا وهي الصورة الإيجابية، الجذابة لبلد الشهوة الحسية والمادة المنتصرتين.

توجد مجموعة من العوامل المعقدة تحكم هذا الانشقاق، وهذا التعديل لاتجاه السان سيمونية من قبل أنفانتان. لقد قامت شمس يوليه، أو بعبارة أخرى، لترجمة هذه الاستعارة التي كان يستخدمها معاصروه، وهي ثورة ١٨٣٠، بالإطاحة بالأخلاق المتزمتة لفترة الردة الملكية. وكان من مهامها جعل الطلاق مشروعًا. والرومانسية، التي ولدت مناصرة للشرعية، ومنتسبة للعصور الوسطى وكاثوليكية، صارت ليبرالية وحديثة وبيرونية **Byronien** .

في داخل المجموعة السان سيمونية نفسها، والتي تشكلت في صورة "عائلة" أذابت لعبة السلطة والحب الصرامة الجمهورية التي كانت موجودة في البدايات وشجعت على الحلم بعلاقات متعددة ومتغيرة.

في هذا السياق، فإن القيم التي يُزعم أنها شرقية، تؤدي بسهولة إلى التوازن مع القيم القديمة، ضد التفاني المطلق للفرد من أجل المجتمع، وضد الزواج الاقتصارى، وضد النضال الذي لا يتزعزع من أجل الجمهورية، وهو ما يعنى عمليًا ضد بازار وأنصاره، قام أنفانتان بتبجيل قوة العواطف كوسيلة لجذب الأفراد في الحركة الاجتماعية، وبرر تعدد العلاقات العاطفية، ودعا إلى تسويات مع الحكومة والقوى المالية. وبدلاً من العناد انتظارًا لتغير جذري للنظام الاجتماعي في أوروبا، الذي أصبح بعيدًا بسبب الاستثارة الثورية عامي ١٨٣٠ و١٨٣١، عكف الرئيس الجديد للسان سيمونية على إعادة التفكير في المسلمات الجمهورية ومراجعتها.

وفي نظره، تكمن الرذيلة الجوهرية للجمهوريين في لجوئهم إلى العنف، سواء كان تآمريًا، كما في حالة جماعة شاربونري، التي ما زال بازار متعلقًا بها، أو كان جماعيًا، كما في حالة انتفاضة عمال النسيج في ليون الذين لم يبقَ أمامهم سوى هذا الاختيار: "الحياة عملاً" أو "الموت قتالاً".

التقدم بالنسبة لأنفانتان ناقص، مبتور وغير مقنع، بل سيئ، إذا لم يضم في غماره نصف الإنسانية الذي هو النساء، وهؤلاء السكان المنسيين، وهم الشرق.

ميشيل شفالييه، نائبه في إدارة صحيفة جلوب **Le Globe**، تلقى وكأنه وحي بالمعنى الصوفي للكلمة، فكرة أن السان سيمونيين ولمدة طويلة جعلوا الشرق يلعب دورًا سلبيًا، وكان يجدر التفكير في وظيفة نشطة له في الحركة الإنسانية". ويرى أنه فيما قبل: "بسبب الأحكام المسبقة الليبرالية، والأحكام المسبقة الأوروبية، لم تكن الأمم الشرقية بالنسبة له سوى «تراب بلا قيمة»، «أجلاف بؤساء» جديرين بتلقى ضربات الكرباج، وإجمالاً، غير جديرين بالنزعة الإنسانية لعصر التنوير"[٣].

هذه الثورة الكوبرنيقية للعقل الغربي غير معروفة. فقد تم تجاوز الجهل بفضل الاكتشاف الضخم بواسطة أوروبا في القرن التاسع عشر للأديان الكبرى والثقافات القديمة للشرق والتي تم إدراكها بنوع من سوء الخلط على أنها هي كل ما ليس أوروبا باستثناء العالم الجديد. إن "البعث الشرقي" بحسب تعبير السان سيموني المنشق بيير لورو، تمت دراسته وتأويله.

ولكن المفهوم بالصورة المستخدم بها يستبعد الإسلام، فهو لا يقر بخصوصيته وأبعاده، لا بوصفه دينًا، ولا بوصفة تكوينًا تاريخيًا – اجتماعيًا. وليس له، في فرنسا على الأقل، القوة لتجاوز إطار التفسير الأكاديمي، لكي يضع الفلسفة المركزية الأوروبية للتاريخ والموروثة من كوندورسيه **Condorcet**، موضع المساءلة.

ولكن علينا أن نأخذ في الاعتبار أن كتاب كوندورسيه الشهير "**مخطط تاريخي لتقدم العقل البشرى**" كان هو الإطار الفكرى الذي خلّفه سان سيمون لتلاميذه، وعلى رأسهم أوجست كونت، والذي اشتق منه قانونه المعروف "المراحل الثلاث"، وهو القانون القاسي إزاء المجتمعات التي تجهل الفتوحات العلمية لفرنسا وإنجلترا وألمانيا.

وهناك تجديد ملحوظ بالنسبة لتصور الأستاذ تمثل في بلورة نظرية عن التبادل الدوري للمراحل الدينية أو "العضوية" والمراحل غير الدينية "النقدية". هذه النظرية جذبت في الحال الكثير من المعاصرين، حتى فيما وراء صفوف السان سيمونيين، لأنها كانت تسمح بالوعى باستثناءات من قانون التقدم من خلال التعامل معها بوصفها تقهقرات ظاهرية. ومن هذا المنظور بالفعل يمكن أن تبدو فترات الفوضى والانحطاط وكأنها مراحل نضج لضروب جديدة من التقدم. ويمكن من ثم الدفاع، على سبيل المثال، عن القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية، حتى أمام العقول المحافظة، بوصفهما مراحل نضج لتنظيم جديد دنيوي وروحي قادم، وبالطريقة نفسها سبق إقامة النظام الإقطاعي المسيحي، سقوط الإمبراطورية الرومانية في البربرية[٤]. وجدت السان سيمونية في هذا التصور أحد أدلتها الأكثر صلابة على تأييد زعمها في أن تصبح دينًا جديدًا يفوق ما قبله من أديان.

ولكن هذا التصور للتاريخ، وإن كان يحطم بواسطة الدورات المفهوم الخطي الذي تخيله كوندورسيه، فإنه يترك خارج مجال الرؤية كل الفضاءات غير الأوروبية، وكل الثقافات المتباينة بوضوح. كل شيء يحدث وكأن الشعوب المستبعدة من النظر انفصلت بصورة مطلقة ونهائية عن التطور.

ولهذا السبب أدى تقدير القيم المسماة بالشرقية بأنفانتان إلى اقتراح نموذج مختلف تمامًا.

وبدلاً من المنهج "الزمني، الحسابي"، الذي يرسم "خطًّا مستقيمًا تكون نقاطه عبارة عن الرجال المشهورين الذين وجهوا مصائر البشر"، يفضل أنفانتان "منهجًا جغرافيًّا، وصفيًّا بحسب المكان". دوائر "مشتركة في المركز" تبين كل واحدة منها "الحالة العامة للحضارة" في حقبة ما، و"متوسط" حالتها الدينية، ومعارفها العلمية، وقوتها الإنتاجية، وهذا بالنسبة لمجمل الأمم في لحظة ما، وانطلاقًا من نقطة أولية حيث يتسع تراكب هذه الدوائر إلى ما لا نهاية فيرسم بذلك شكلاً منشوريًّا مقلوبًا.

بلا شك كانت فكرة " الحضارة" المرجعية بحاجة كبرى لأن يتم التخلص منها طالما كانت تتضمن نظامًا واحدًا من المعايير التي تطبق بلا تمييز على شعب من الشعوب. ونحن نعرف جيدًا كم كانت سلاحًا في خدمة كل ضروب الاستعمار اللاحقة.

ولكن فلسفة التاريخ عند أنفانتان، دون أن تكون متخلصة من هذا الخضوع لكونية مسيطرة، تميل أيضًا لأن تعطي حقًّا ومكانًا للاختلافات القومية الخاصة. إن كلمة حضارة تقبل التعدد وحتى التنوع، ولا سيما حينما يتعلق الأمر بـــ "تراث الجسد" الذي بقى حيًّا في الجنوب، كما لاحظ أنفانتان، بفضل "المسلمين" وغيرهم.

بقي أن هذا الشرق وقد أعيد بناؤه عام ١٨٣١، مفتقد لقوام على الرغم من سمته الجسدية. وهو، في هذا الصدد، مبجل ومقدس حتى أصبح مبدأً مجردًا وغير زمني، ونوعًا من القوة المغناطيسية الحاضرة بصورة كلية. وبهذا المنظور لا وجود له بنفسه مستقلاً عن الغرب، كما لا يوجد الجسد بلا روح. إنه نسبي ومتطور. وكما يصرح أنفانتان "القانون هو الانسجام المتقدم بلا توقف للجسد والروح، للصناعة والعلم، للشرق والغرب، للمرأة والرجل"(٥).

لم يعد الأمر يخص الجغرافيا ولكن الأنطولوجيا.

***

هذا التجوال الطويل في شرق الروح أعاد رغم ذلك السان سيمونيين إلى الشرق الواقعي، الذي يتحول.

تبين مجموعة من مقالات ميشيل شفالييه، المنشورة في صحيفة جلوب ابتداء من يناير ١٨٣٢، وتم جمعها بعد ذلك في كتاب بعنوان **نظام البحر المتوسط**، أن المصير السياسى والصناعي لأوروبا يتقرر حول البحر المشترك بين الغرب والشرق. ومنذ ذلك الوقت تروى الصحيفة وتناقش بشكل منتظم الأخبار الواردة من الإمبراطورية العثمانية.

وهذه الصحيفة اليومية المفتونة أولاً بالسلطان والتي تستقي معلوماتها من صحيفة المونيتور العثماني **Moniteur Ottoman** (أخبار أزمير فيما قبل) كرست في ١١ فبراير ١٨٣٢ السلطان محمود بوصفه "هادمًا مقدامًا للعادات القديمة (...) تقوده غريزة التقدم التي تسيطر على كل الرجال الأقوياء، والتي تشجعها المعتقدات الشرقية، بتقديمها على أنها إلهام إلهي". وقد عُدت تركيا "الحارس المتقدم للحضارة الشرقية، في زمن فيه الشرق والغرب مستعدان لترك كراهيتهما القديمة وتشييد تحالف سامٍ". ولهذا تنزع صحيفة جلوب إلى ثنى السلطان عن العداوة لمن "ينبغي له أن يكون حليفه في هذا العمل على الأحياء" أى باشا مصر.

ولكن الصحيفة لم تلبث، بعد غزو سوريا بواسطة محمد علي، أن فهمت أن للتابع فرصًا جيدة في التقدم على "السيد"(٦) في ميدان الحرب، وكذلك في موقع التحديث. بل إن سرعة الأحداث الشرقية جعلت السان سيمونيين يفكرون في أن ضروب التقدم المقبلة لن تتم في الغرب حيث "أغلب الحكام (...) يستهلكون أنفسهم في جهد بلا طائل لتكبيل ازدهار الأمم"، ولكن في هذا الشرق "الذي يهتز فوق قواعده الكبرى الصامدة"(٧).

وفي ٢٨ فبراير ١٨٣٢ أطلق رئيس التحرير كافال **Caval** من تلقاء نفسه، أو بأمر فوقي، بالونة اختبار. فمقاله المعنون "كيف يجب أن تتشكل عائلة مالكة جديدة"، يتسم بصيغة استفهامية وغامضة بعض الشيء. ولكنه لا يكتم ما يجول بخاطره:

"نحن (السان سيمونيون) في أيدينا كل الوسائل لكي نخلق المجد، شرط لا غنى عنه لتمكين عائلة مالكة. وسواء كان الواحد منا فنانًا، عالمًا أو رجل صناعة لدينا ما يرضى أكثر الناس طموحًا بحلفنا بين الشرق والغرب، وبشبكتنا للسكك الحديدية التي تحتضن الأرض (إشارة إلى برنامج ميشيل شفالييه) وبالتأليف الثلاثي لنظامنا العاطفي والغرامي (...) وإذا كانت كل الأحزاب خربة ومدركة لعجزها، فإن جمعية ترتفع فوق كل هذه الخرائب تبيّن أنها شابة ومتنامية بمشروعات نضجت لوقت طويل، مزودة بسر إلهامها لحماس الجماهير، وبفخامتها، وأصلها وتفانيها، وإيمانها الذي لا يتزعزع، ودوائها لكل الجروح، وعالميتها، وحين يعود رئيس هذه الجماعة من الحملة المصرية، ليقدم نفسه أمام هتافات الشعب، من يمكنه، أو من يريد أن يقول "لا"؟"

بلا شك كان من المبالغ فيه أن يتم تقديم أنفانتان بوصفة نابليون الجديد. ويمكن أن نقول أيضًا إن المكان قد شغله في مصر الباشا نفسه.

الاستراتيجية السياسية التي تتحدد ملامحها هنا هي رغم ذلك منسوخة من استراتيجية بونابرت: فتح مصر من أجل فتح فرنسا، إضفاء الشرعية في الخارج على سعيه إلى حكم مواطنيه.

ولكن التشابه لا يقف عند هذا الحد، إذ يوجد، بالفعل نقاط التقاء مهمة يجدر إبرازها الآن بين السياسة المصرية لبونابرت وسياسة السان سيمونيين.

تبدو كلتا السياستين أنها تنهل أفضل استلهاماتها من موسوعة ديدرو ودالامبير. ألم يزعم سان سيمون أنه كان تلميذًا لهذا العالم؟ ولوحات كتاب **وصف مصر** أكان يمكن طباعتها دون أن يسبقها لوحات ذلك العمل الكبير لعصر التنوير؟ ويلخص عالم الرياضيات جان باتيست جوزيف فورييه **Jean-Baptiste Joseph Fourier** في مقدمته التاريخية (١٨٠٩) لكتاب **وصف مصر**، السياسة المصرية لبونابرت في عدة نقاط استخدمت جميعها بعد ذلك، فيما عدا النقطة الأولى التي عفا عليها الزمن، مع اختلاف في ترتيب الأولويات، في وضع كشف حساب الحملة السان سيمونية : "إلغاء طغيان المماليك"، "التوسع في الري والزراعة"، "فتح مجال اتصال دائم بين البحر المتوسط والخليج العربي"، "تكوين مؤسسات تجارية"، "أن يقدم للشرق النموذج النافع للصناعة الأوروبية، من أجل جعل شروط حياة السكان أكثر رفاهية، وأن يقدم لهم كل مزايا حضارة وصلت إلى حد الإتقان".

ربما نقول إنه لا حاجة إلى عبقرية الرياضيات أو الحرب لكي نصل إلى مثل هذه النتائج البديهية. هذا صحيح. تأتي الخطوط الأكثر إثارة للدهشة بعد ذلك، حين يشرع فورييه في الدفاع عن "حكومة مستنيرة قوية" لمصر القديمة. ويكتب: "كانت القوانين والأعراف الشعبية والعادات المنزلية تتعاون في اتجاه هدف واحد: كانت قائمة على المعرفة بأخلاق الإنسان وعلى المبادئ الخالدة للنظام والعدل، المحفورين في كل القلوب". بيد أن فكرة الهدف المشترك للنشاط كضرورة لكل تنظيم اجتماعي جدير بهذا الاسم هي إحدى الأفكار الأساسية التي سيدعو لها **عرض المذهب السان سيموني**. ولا سيما أن إشارة فورييه لما يشبه الحق الطبيعي قبل الأوان، تؤدي إلى وصف للدين يشف عن بداية ملامح العبادات الثورية، منبئًا بدقة عن أطروحات كتاب **المسيحية الجديدة** (١٨٢٥)، الكتاب الرئيسي لسان سيمون: "كان الدين، عند ربطه بدراسة الظواهر الطبيعية عقليًا وفيزيقيًا في آن، موحيًا لبعض العقول الحكيمة بمبادئ الأخلاق، كان يقدمها للجميع في صيغ محسوسة، كان ينظم الأفعال والأفكار، يحتوى الشعوب بقسوة، ويهب المؤسسات الاجتماعية دعم سلطته الثابتة (...) كان يتفادى الفراغ باحتفالات وأعياد، وبمشروعات تشييدية كبرى مخصصة للأعمال العامة"[٨].

هذا العصر الذهبي يشبه لدرجة خادعة ذلك العصر الذي فشل السان سيمونيون في إحيائه في فرنسا، فسعوا كي يواصلوه في أعمالهم الكبرى المصرية.

***

عصر آخر رغم ذلك وأخلاق أخرى وأفكار أخرى. كان بونابرت عسكريًا، وكان يجهل السكك الحديدية ولم يكن ذا نزعة جماعية.

ميشيل شفالييه، رجل سلام ومهندس. وكان مقتنعًا، وربما كانت هذه هي اليوتوبيا الكبرى الخاصة به، بالسمة "السلمية المجانية للصناعة". وهو يشعر بقوة حضور التطور الكبير لـــ "شبكة البنوك" و"شبكة خطوط

المواصلات. ويفسر ذلك شفالييه قائلاً " في نظر الناس المؤمنين بأن الإنسانية تسير نحو الشراكة الكونية ويهبون أنفسهم لقيادتها في ذلك، تظهر السكك الحديدية بصورة مختلفة": هي ليست وسيلة لتخفيض تكلفة نقل البضائع، ولكن وسيلة لتغيير "شروط الوجود الإنساني". والتنبؤ بأنه في اليوم الذي "يرحل فيه مسافر من ميناء الهافر في الصباح الباكر يمكنه أن يتناول غداءه في باريس، وعشاءه في ليون، وفي مساء اليوم نفسه يتجه إلى طولون ليركب السفينة البخارية في اتجاه الجزائر أو الإسكندرية". في مثل هذا اليوم، ما كان يطلق عليه (...) [في عام ١٩٣٢] أمة كبرى، ستصبح ضاحية ذات حجم متوسط". وأكثر من ذلك : "بواسطة هذه الوسائل – السكك الحديدية والبواخر – وبمساعدة اكتشافات أخرى حديثة مثل التلغراف" يمكن الاحتفاظ بإمكانية "حكم الجزء الأكبر من القارات التي تحيط بالبحر المتوسط بنفس الوحدة وبنفس المباشرة الموجودة في فرنسا".

العصر الصناعي يقدم بهذا الفرصة لإنهاء "الصراع الأكبر هولاً، والأكثر عمومية وتجذرًا، الذي أبقى على الأرض دائمًا في صخب وقتال"، منذ حصار طراودة والحرب الميدية وحتى الحروب الصليبية: الصراع بين الشرق والغرب، "سمة مميزة لمرحلة الحضارة التي مرت منذ أصل الأزمان التاريخية وحتى أيامنا هذه"، و"التجلي الأكثر سطوعًا للحرب التي تقوم منذ ستة آلاف سنة بين الروح والمادة وبين الروحانية والحسية".

وشفالييه، إذ يقرن الأنطولوجيا بالصناعة، يقترح إذن خطة نظام عام للسكك الحديدية، والقنوات والموانئ التي ستجعل من البحر المتوسط" سرير زفاف الشرق والغرب". ويضيف في النهاية هذه "الوحدة المتوسطية" سوف تنفتح هي نفسها على أجزاء أخرى من العالم من خلال حفر قناتي السويس وبنما(٩). لن يصبح العالم عندئذ سوى جسد واحد، تخترقه دورة لا تنقطع من البشر والسلع.

الربط لهذه السياسة المتوسطية مع الاقتصاد السياسي السان سيموني ومع النظام الاجتماعي الذي أقامه محمد علي لم يتم التنظير له سوى بعد عامين من ذلك الوقت، أي بعد وصول أنفانتان إلى مصر. انطلق التأمل حول هذه النقطة من ملاحظة لأنفانتان، طورها هـوارت، في سلسلة من الرسائل المكتوبة والمنشورة في كتاب **Le Livre des Actes.**

في خطاب بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٨٣٣ إلى هوارت وبرونو، يبين أنفانتان أنه مهتم بالطريقة المستخدمة بواسطة الوالي لكي يكون فعليًا مالكًا للأرض، بتعويض الملاك القدامى من خلال ريع يجرى عليهم طوال حياتهم. ويرى أن ذلك ليس إلا "التحقيق المبالغ فيه... لأنه يستبق التدمير (السان سيموني) للميراث". وإجمالاً، في نظره، عملية الاحتكار التي يقوم بها حاكم مصر بنفسه قد حققت أحد الشروط الأساسية التي حددها السان سيمونيون لإعادة تنظيم المجتمع الأوروبي حسب المبادئ الحديثة للصناعة: وضع أدوات الإنتاج بين يدي من هم قادرون على استخدامها على أفضل وجه"(١٠).

التقط هوارت، في بداية ١٨٣٤، بلا تأخير هذه المعطية لكي يقنع متطوعين بأن يأتوا للمشاركة في ترقية مصر. ويشرح قائلاً: في الشرق، ولا سيما في مصر "السلطة تمتلك، أو يمكن لها بحرية، أن تمتلك سلعًا، بصورة تجعل من العامل والتاجر منتفعين وموظفين". هذا الشكل الاجتماعي من الملكية يضع، بحسب رأيه، أساسًا "لإمكانية التنظيم العاجل لجيوش مسالمة، وورش هائلة تكون فيها كل الجهود متناسقة بصورة هيرارشية، فتسمح بتطور كبير في الأشغال، قادر على توزيع المستحقات السنوية لكل فرد حسب التقدم في الثروة الاجتماعية". وبعد أن تثبت السان سيمونية فاعلية مبادئها بواسطة التجربة، في الشرق، خارج "مجال المنافسة"، لا يبقى أمامها سوى أن تنتشر في أوروبا بقوة المثال[١١]. المرور عبر مصر يصبح إذن طريقًا مختصرًا تاريخيًّا.

***

يمكن لنا هنا أن نرجع إلى علماء المعهد لكي نعي قدر الاختلاف الجوهري الذي يمثله ابتكار التناول السان سيمونى للشرق.

كان فورييه يستهجن، عن حق، وضع الفلاح المصرى "المحكوم عليه (...) بعمل شاق، لا تعود ثماره البتة إليه". وزميله بيير سيمون جيرار **Pierre-Simon Girard** يرى بوضوح أنه يجدر إقامة "مؤسسة تجعل الفلاح مشاركاً في ملكية الأرض"[١٢].

من الواضح أن هذا البرنامج في المشاركة في ملكية الأراضي والذي يشير بقوة إلى ما قامت به الثورة الفرنسية، لا ينتمي على الإطلاق للسان سيمونيين. وإنما تم تكييفه في الحال فيما يبدو، ليتواءم مع الوضع في أرض الاستقبال كما هي.

الهوس الذي أظهره أنفانتان وأصدقاؤه بخصوص البعد الثقافي والديني للعلاقة شرق/غرب، وطموحهم في توافق إسلامي / مسيحي يعبران عن ابتكار آخر.

وبقدر ما كان خطاب المعهد يظهر كخطاب قومي بقدر ما بدا خطاب السان سيمونيين عالميًّا. لم يتردد كاتب مقدمة كتاب **وصف مصر** في التعبير عن تمني تحويل البحر المتوسط إلى "بحر فرنسي"، ويحلم صراحة بالتأثير الذي يمكن أن تمارسه مستعمرة فرنسية (أى مصر) ذات موقع ممتاز على حال البلاد المحيطة بها"[١٣]. أما ميشيل شفالييه فهو ينطلق من وجهة نظر نقدية تماماً فيما يخص "المجتمعات الحديثة"، التي أفسدتها الأنانية، وعطلها العجز". إنه يمول القلاع الصناعية في مصر، لو أمكن القول، بالميزانيات الضخمة التي خصصتها فرنسا وإنجلترا لحروبها، ويستبعد بلا أي لبس كل عملية تستند إلى القوة. ولكن هذا لا يمنع أن مركزية العالمية التي ينادي بها تتجه إلى فرنسا. فهي بالفعل، كما يبين موقعها الجغرافي وتراثها في المركزية "فيما بين جميع البلاد، باستثناء إنجلترا، (...) البلد الأسهل في إيصال اندفاعة المركز إلى أطراف المحيط"[١٤].

ولكن هناك فرضية أخرى عبر عنها في مكان آخر ميشيل شفالييه نفسه، هي أن العالم يسير باتجاه «قطبية كونية[١٥]».

الهوامش

(1) *Introduction aux travaux scientifiques du XIX ° siècle*, in Œuvres *de Cl.-H. de Saint-Simon* (Paris, édition Anthropos), 1. VI, pp. 134-136; *Mémoire sur la science de l 'homme*, p. 68 du vol, XI de la reproduction en fac-simile des *Œuvres de Saint-Simon et d'Enfantin; Introduction aux travaux scientifiques du XI X° siècle.* même référence, p. 135 ; *L'Industrie, ibid.*, 1. I, p. 61 du vol. II des *Œuvres de Saint-Simon et d'Enfantin : Mémoire sur la science de l'homme*, même référence, p. 84.

(2) Lettre d'Enfantin à sa mère, 1830, Fonds Enfantin de la Bibliothèque de l'Arsenal (F.E.), Ms 7.688/14. Texte reproduit dans la *Correspondance inédite d'Enfantin* (éd. Dentu).

(3) *Enseignements d'Enfantin, Œuvres de Saint-Simon et d'Enfantin*, t. XIX, p. 112 (intervention de Chevalier lors de la séance du 18 fevrier 1833.

(4) Voir la Première séance (17 décembre 1828) de *l'Exposition de la doctrine saint-simonienne, Première année* (différentes éditions à Paris à partir de 1830).

(5) Même référence que supra note 3, enseignement du 20 novembre 1831, pp. 56-57, 59 et 63.

(6) "Turquie", *Le Globe*, n° du 1er mars 1832. Article d'Henri Lagarmitte.

(7) "Turquie, L'Orient et Mahmoud", *Le Globe*, n° du 29 février 1832. Article de Louis Delaporte.

(8) Op. cit., éd. de 1809, pp. vj-viij.

(9) *Politique industrielle et Système de la Méditerranée*, Paris, 1832, pp. 107, 131-133, 124, 126, 148, 145.

(10) F, E., Ms 7.669/22.

(11) "Troisième Lettre sur l'opportunité d'un mouvement extérieur industriel", in *Livre des Actes, publié par les femmes*, Paris, 1833, pp. 268-269

(12) *Mémoire sur la culture, l'industrie et le commerce de l'Egypte*, éd. 1821, p. 200.

(13) *Op. cit.*, p. xxxiij.

(14) *Système de la Méditerranée*, p. 133.

(١٥) انظر القصيدة التى تحمل هذا العنوان فى نسخة *Livre Nouveau* المحفوظة فى la Bibliothèque de l'Institut, Ms 837.



أنفانتان "الرئيس الأسمى للديانة السان سيمونية"

لوحة لأوجست ديديون Auguste Didion مأخوذة من رسم للكلير Leclerc

0, 40 x 0, 57 .Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal.

أنفانتان الرئيس الأسمى للديانة السان سيمونية :

الشخص يُعرف من اللقب "أب" المكتوب على صدره. هذا اللقب وكذلك ألقاب "أمهات"، "إخوان"، "أخوات"، أصبحت محل استخدام ابتداء من ديسمبر ١٨٢٨ لتدعيم الروابط الشخصية بين أعضاء المجموعة والتعبير عن أوضاعهم الهيراركية.

في إبريل ١٨٣٢، نفدت مواردهم المالية فأوقف السان سيمونيون صحيفتهم اليومية جلوب. فاستضاف أنفانتان للإقامة حينئذ أربعين من "الحواريين" في المنزل الذي ولد به في منلمونتان في تلال باريس. هذا المنزل الريفي يضم مبنيين للسكن الرئيسي وفناء وشاليهًا وكشكًا مقامًا على مساحة كبيرة من العشب الأخضر محددة بممشى من أحجار القرميد.

وخصص السان سيمونيون أثناء هذه "الخلوة" أمسياتهم للتأمل الجماعي والتي يشكل محضر اجتماعاتها أغلب "**الكتاب الجديد**"، وهو مخطوط غير مطبوع مخصص، في فكرهم، لتكملة الوحي الوارد في "الكتب" الكبرى للأديان التوحيدية القديمة. أما النهار فكانوا يشغلونه في إعادة ترتيب الحديقة في صورة مسرح على الطراز اليوناني القديم (معبد للديانة السان سيمونية) نرى مخططه في الخلفية.

إن العزلة وقسم العزوبية والقواعد التي تقلد الرهبنة الكاثوليكية يتم تكميلها برموز وطقوس مبتكرة.

وهكذا فالكهان الجدد، رغم انتمائهم إلى النخبة بحسب المولد والمهنة، ينفذون بأنفسهم المهام المنزلية الأكثر تواضعًا ليعبروا عن إرادتهم في وضع نهاية لـــ "استغلال الإنسان للإنسان" (هذه الصيغة ابتكار سان سيموني).

منذ نهاية ١٨٣٠، ميز المنتمون أنفسهم أمام الأنظار برداء أزرق – من الأزرق الفاتح للقادة الكبار وحتى الأزرق الملكي للمنتمين الجدد.

وعندما ارتدوه في احتفال عام في ٦ يونيه ١٨٣٢، أصبحت بدلة منلمونتان أكثر تعقيدًا: حذاء أسود، بنطلون أبيض، قميص أبيض بلا ياقة، وبأزرار وأربطة من الخلف، وشريط أحمر حول الرقبة وعلى الصدر كُتب بحروف كبرى اسم الحواري، وصدار أحمر (غائب هنا) وجاكتة قصيرة لونها أزرق بنفسجي، وبيريه أحمر (غائب هنا) وإيشارب حر (غائب هنا) وحزام جلد أسود لامع بحلقة من النحاس.

والألوان التي هي هنا ألوان العلم المتموج على قمة الشاليه في الخلفية وعددها ثلاثة.

هذا العدد يشير بالطبع إلى الأشكال الماسونية الثلاثية للثورة الفرنسية، الـــقبعة، والعلم الوطني، وشعار الجمهورية "حرية، إخاء، مساواة". ولكنه يرمز أيضًا إلى التكوين الثلاثي، من وجهة نظر السان سيمونيين، لكل مجتمع (رجال دين، علماء، رجال صناعة)، وكذلك إلى تشكيل النفس الفردية (عاطفة، عقل، إيمان)، وتشكيل الوجود (حياة، روح، مادة).

وينقل ماكسيم دوكامب في كتابه **ذكريات أدبية** قراءة للزي على الأرجح مستقاة من مصدر موثوق :

" كان البنطلون أبيض، والصّدار أحمر، والجاكت أزرق بنفسجيًا، والأبيض لون الحب، والأحمر لون العمل، والأزرق البنفسجي لون الإيمان. كان الزي يعني إذن أن السان سيمونية كانت تستند على الحب، وتقوى قلبها بالعمل ويضمها الإيمان"(١٦).

ولكن براكس **Prax** يقترح شفرة مختلفة نوعًا ما: "الأبيض للدين، البنفسجي للعلم، والأحمر للصناعة"(١٧).

ولا توجد إشارة موثوقة لحسم أحد التفسيرين. صمم أنفانتان القميص بنفسه وأرسل التصميم إلى ورشة أجاليه سانت هيلير(١٨). صعوبة ارتداء هذا القميص الذي يقتضى مساعدة شخص آخر للزر والربط يرهن الحياة اليومية للحواريين بشعور التعاون، وهو قيمة أساسية في "الاشتراكية، الأنفانتينية، أما فيما يخص الهوية المعلنة للشخص من خلال الاسم المطرز فهو يضمن العلنية العامة وشفافية أخلاق من يرتديه.

اللحية والشعر الطويل علامة مميزة غير مبتكرة للسمة الدينية. لو وضعنا أنفسنا في السياق التاريخي لوجدنا أن اختراع هذا الزى أقل غرابة مما يبدو لنا اليوم. فنحن نذكر بالفعل أن التمييز من خلال الملبس كان أحد المجالات الرمزية لكفاح الثورة الفرنسية لإلغاء الألقاب ووضع تراتبية اجتماعة جديدة. الدليل على تلك الملابس التي رسمها الفنان دافيد للوظائف العامة المختلفة، والأزياء المتعددة النابليونية. ويشهد على ذلك استهجان ستاندال في كتابه **الأحمر والأسود** ضد الملبس الأسود الحزين الذي خصص زيًا للبرجوازية. وكذلك الشعر الطويل والصّدار الأحمر للرومانسية في معركة هرنانى **Hernani** يشهدان بقوة على استمرارية هذا الإرث الثوري.

علاوة على ذلك، وضع أنفانتان – الساقين والذراع الشمال في شكل فرجار – وعرض أدوات العمل – عربة وفأس، استعارات وتلميحات للماسونية(١٩).

وفي نفس الوقت تذكير بالاحتفالات عن طريق العمل بالأعياد الثورية مثل عيد شان دو مارس. وكان هناك عدد من السان سيمونيين مسجلون في أحد المحافل الماسونية.

زي مهمة الشرق :

نسبة هذا الزي إلى ماشرو **Machereau** جاءت على أساس البورتريه الذي رسمه لنفسه بشكل صغير بالحبر الأحمر (في أسفل اللوحة يمينًا) والذي يرافق عادة توقيع الفنان في رسائله.

لقد تم استقبال زى «حواريي منلمونتان» وكأنه موضة حقيقية، ولهذا فقد تم عرضه بصورة مألوفة على اللوحات التي تعطي المعاصرين صورة وافية عن أنماط الأناقة.

وبعد وضع الأب في سجن سانت بيلاجي في ١٥ ديسمبر ١٨٣٢، وبعد تخليه المؤقت عن كل سلطة، أصبح ذلك إيذاناً بانطلاق الحركة السان سيمونية في تنويعات شتى.

كل واحدة كانت تعبر عن الرسالة الخاصة التي تحددها مجموعة لنفسها أو فرد منعزل.

هذه المجموعة التي نشأت بعد أول انشقاق في جماعة رفاق المرأة، هي الأولى التي حاولت تجربة المغامرة الشرقية: الاثنا عشر الموجودون حول بارو وبارو نفسه وكان ماشرو واحدًا منهم.

أقلع رفاق المرأة هؤلاء من مارسيليا في ٢٢ مارس وبعد إقامة قصيرة في إسطنبول وصلوا متفرقين إلى الإسكندرية في نهاية شهر مايو.

وغياب اللون الأزرق ربما يعبر عن الرغبة المراد إعلانها بواسطة بارو ألا يُحَمل بعد ذلك اسم "السان سيموني" ما لم يتم العثور على المرأة – المسيح.

لم ينقص سوى البيريه والكاب، والذي تؤكد النصوص حملهما.

أما فيما يخص التأثير الناتج، فيحكي أوربان في كتابه رحلة الشرق **Voyage d'orient** أن الرفاق حينما مروا على السجاجيد الفخمة في أحد القصور التركية كان يبدو عليهم "أنهم حفنة من الفرسان وليسوا جماعة من الكهنة"[٢٠] .

والعِقد الذي نراه، والذي تقرر في فبراير ١٨٣٣ هو علامة على الإخلاص لشخص أنفانتان : فحمله كان يعني الانتماء إلى "جماعة الأب". وكان منحه يتم في احتفال مشابه لاحتفالات المبايعة في العصور الوسطى.



زى مهمة الشرق

رسم بالألوان المائية لماشرو

0, 23 x 0, 18 Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal.



زى الفنانين، رسم بالألوان المائية منسوب لماشرو

0, 23 x 0, 18 Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal.

كل سلسلة في شكلها ومعدنها الخاص تمثل أحد رؤساء الحركة. وهكذا ظهر أنفانتان في نصف دائرة من النحاس الأصفر والذي نظرًا لأنه يتعلق كما يجدر بالرئيس الأعلى ينهي العِقد. هذا الشكل الذي ينقصه نصفه يعني عزوبية وحالة عدم اكتمال السان سيمونية طالما أن النساء لم يتحررن بعد بفضل ظهور "المرأة – المسيح" أو "الأم". ولكن إتقان الدائرة كان يشير إلى التقدم الذي تم تحت إدارته منذ سان سيمون (والذي يمثله مستطيل بسبب الخاصية الثنائية لفكره الاجتماعي) باتجاه مفهوم منسجم عن العالم ، والــنحاس الأصفر معدن لامع، كان ربما ليحل محل الذهب، وهو معدن نبيل ربما كان يليق أكثر بالأب، ولكن قلة الموارد المالية حالت دون ذلك. وكانت نصف دائرة أنفانتان تحتوى، علاوة على ذلك، في الوجه المحدب الآخر لها على أرقام سنة ١٨٣٣ يحيط بها خمس نقاط بارزة تأخذ شكل نجمة (رمز ماسونى) وعلى الوجه الأملس مكتوب "إلى الأم".

زي الفنانين:

هذا الزي تالٍ لزي مهمة الشرق. ومع أنه قد استعار منه المظهر المنفوخ والقفازات الجلدية السوداء فإنه يتميز عنه بالتعارض السائد بين الأبيض والأسود (الأحمر لم يستخدم إلا في إكسسوارات البيريه والإيشارب)، كما يتميز بالشكل، قلب تحته تطريز أسود، في فتحة الجاكتة. الأزرق يعلن الوفاء للأصل السان سيموني ويذكِّر بنبرة أكثر وضوحًا، باللون الأزرق في زي منلمونتان .

إن مجموعة "الفنانين" كوَّنها روجيه **Rogé** في أول مايو ١٨٣٣ عند العودة من الجولة التي قادها هوارت في الجنوب للإعلام بمهمة الشرق. هؤلاء المنشقون، غير الموافقين على الأساليب العسكرية لهوارت ومع عزمه على الاستقرار في ليون، اقترحوا على أنفسهم "الشروع مشتركين في عمل دعاية بواسطة الفن والعمل والكلام". كان عددهم ٩ : روجيه الذي عدته المجموعة "الأخ الأكبر" ثم شاربان، وكومب، وجوريه، ولامي، وماشرو، ومانجان، وماريشال وتاميزييه، ثم لحق به بعد ذلك أوجست كولان وأوليجيه. دومينيك روجيه واسمه الحقيقي تاجان روجيه، موسيقار في أوركسترا الأوبرا الكوميدية، تزوج للتو من كلوريند التي سوف تؤسس جماعة "نساء الأم" عندما دعاه أنفانتان إلى المشاركة في الخلوة.

أثناء سجن أنفانتان، عايش في ليون خبرة ظروف الطبقة العاملة عندما عمل "عاملاً يدويًا لتشغيل العجلة" مقابل ٤٠ سو في اليوم. وبعد أن تابع روجيه هوارت من ليون إلى مارسيليا ومن مارسيليا إلى ليون قاد فرقته إلى إقليم بورجونيا ثم إلى فرينى (إجلالاً لفولتير) وجينيف (إجلالاً لروسو).

وبينما كان أغلب الفنانين يصلون إلى مصر في ٧ أغسطس استجابة لنداء بارو، قام روجيه بسفر قصير إلى الجزائر مصطحبًا معه ماسول **Massol** لكي يحملوا اسم سان سيمون إلى الشعب العربي.

بعد عودته إلى فرنسا، تلقى من أنفانتان أمرًا بالبقاء من أجل جلب وتعليم موسيقيين ومطربين من أصل شعبي مخصصين أن يحفزوا بفنهم أعمال "الجيش السلمي" الذي ينوي الأب تشكيله في مصر. ولكن لم يكن لدى أحد من هؤلاء المتدربين الشجاعة للرحيل.

وحينما وصل إلى الإسكندرية في ديسمبر ١٨٣٤ على نفس السفينة التي جاءت عليها سوزان فوالكان تم تعيينه مدرسًا للموسيقى في مدرسة الفروسية بالجيزة.

وفي مارس ١٨٣٨ غادر مصر بصحبته كلوريند وابنهما إلى سان بطرسبورج، حيث قضى وقتًا ملحقًا بالكنسية الإمبراطورية.

تصميم الزي:

فيما يبدو أن كثيرًا من الفنانين تعاونوا على ابتكار زي منلمونتان : ريمون بونور **Raymond Bonheur**، بول جوستوس **Pool Justus** وجوزيف ماشرو، والمسئولية الوحيدة المعروفة هي تصور الزي وقام بها أنفانتان. فقد كان يعيب دائمًا على معاصريه أنهم لم يعودوا يعرفون ما الأسطورة وما الرمز والعلامة، وكان يرى بوجه خاص أن الزي ينبغي أن يكون له "معنى".

ألبوم ماشرو يحتوي على عدة صفحات للتصميم. بعضها مستلهم من موديلات من العصر الوسيط، وأخرى من موديلات عصر النهضة. لقد كان لدى السان سيمونيين تبجيل خاص لهاتين الفترتين: الأولى لأنها تقدم النموذج النوعي لتنظيم روحي وزمني قوي، والثانية لأنها على العكس تمثل جهدًا للتحرر والتقدم أكثر قربًا من القيم العلمية والمادية الحديثة.

والصفحة المنشورة هنا تبين أن الاستلهام الشرقي هو أيضًا لم يكن غائبًا في لحظة الاختيار، حتى وإن لم يبق منه شيء مهم في نهاية العمل.

ونتعرف في الرسم غير الملون على الزي الذي كان يُلبس بالفعل. فلقد حل بمصر أنفانتان وأغلب السان سيمونيين وهم مرتدون هذا الزي.

سهم صحيفة لوبرودكتور Le Producteur:

مات سان سيمون في ١٩ مايو ١٨٢٥، في الوقت الذي بدأت مدرسته للتو في التشكل. منذ مطلع يونيو التالي حقق تلاميذه مشروعًا تكوّن في حياته: إقامة صحيفة أسبوعية. والمبادرة جاءت من أولند رودريج وبروسبير أنفانتان.

كان أولند رودريج (١٨٥١- ١٧٩٤) ينتمي إلى عائلة يهودية كبيرة في بوردو.

وكان عالم رياضيات رفيع المستوى، وأستاذًا لأنفانتان في مدرسة هنرى الرابع الثانوية. ولكنه استُبعد من مدرسة المعلمين العليا بسبب أصوله، فانشغل بالأعمال المالية.

بعد أن عرف سان سيمون عند أحد رعاته، وهو المصرفي أردوان **Ardoin**، شغل لديه المنصب الشاغر بعد انسحاب أوجست كونت. وهو الذي قام بتعريف المذهب الجديد لأخيه إيوجين وأنفانتان وأيضًا لليون حاليفي **Léon Halévy** وبيرير **Périere** – صهريه – وإلى جوستاف دي إيشتال **Gustave d'Eichthal**. الدور المهم لهؤلاء اليهود في الحركة وانتماؤهم لعالم المال يفسر جزئيًا الربط الموجود في خيال السان سيمونيين بين الشرق و"الصناعة".

ظهرت صحيفة **Producteur** (المنتج) من أكتوبر ١٨٢٥ إلى أكتوبر ١٨٢٦ بإيقاع أسبوعي ثم شهرى. وكان يكتب فيها، إلى جانب مؤسسيها، مسئولون قدامي كبار من جماعةً شاربونري السرية " مثل بازار، لاشيز، أوجست كونت، أدولف بلانكي (الاقتصادي شقيق الزعيم الاشتراكي أوجست بلانكي)، ليون حاليفي، بول ماتيو لوران، إلخ.

بدا التحرير فيها غير صريح ينادى فقط "بفلسفة جديدة" تتمحور حول فكرة أن مصير النوع البشري هو "أن يستغل ويعدل الطبيعة الخارجية لمصلحته". ثم جاءت السجالات مع الليبراليين ولا سيما بنيامين كونستان وستاندال، لكي تؤكد أصالتها ومواقفها لصالح القرض البنكي والشركة الصناعية والاتصالات (سكك حديدية، قنوات، نقل بالبخار..) ولكن أيضًا لصالح تكوُّن سلطة روحية جديدة.

أدولف بلانكي كتب فيها عام ١٨٢٥ مقال "اعتبارات حول الحالة الراهنة للصناعة والتجارة في مصر" وبدا معجبًا بازدهار البلد ولكنه معارض لنظام الاحتكار من قبل الباشا.



مخططات للزي. رسوم بالريشة والألوان المائية لماشرو

0,29 x 0,21 Album de Machereau, Bibliothèque de l'Arsenal.

Ms. 13,910. f° 31 r°.

N°. 5. **LE PRODUCTEUR.** **F.1000.**

JOURNAL

de l'Industrie, des Sciences, des beaux-Arts et de la Littérature.

Société en Commandite par Actions, de mille francs

Acte du 1er Juin 1825 sous la raison

ENFANTIN RODRIGUES et Cie.

Numéro Cinq

ACTION AU PORTEUR DE MILLE FRANCS,

Cette Action donne droit :

1° à un intérêt annuel de 5 p. % payable de 6 mois en 6 mois à partir du 1er juillet 1825
2° à une répartition des bénéfices dans la proportion d'un Cinquantième par Action, le 1er Juillet de chaque année.

Paris, ce 1er Juillet 1825.

Signature des Fondateurs Gérants.

سهم صحيفة لوبرودوكتور

0,21 x 0,31 Fonds Enfantin. Bibliothèque de l'Arsenal.

إذا لم يكن النجاح التجاري لهذه المجلة كبيرًا، فإنها باهرة بالجودة الفكرية، وكانت سببًا في مد الحركة السان سيمونية بعدد كبير من أوائل أعضائها وأفضلهم.

بارو، شفالييه ودوفيرييه

الرجال الثلاثة مقدمون في زي منلمونتان أثناء الخلوة.

إميل بارو (١٧٩٩-١٨٦٩)

اعتنق السان سيمونية في ١٩٢٨، وترجع سرعة صعوده في الهيراركية السان سيمونية إلى كونه مؤلف أول مانيفستو جمالي للجماعة، وهو نداء "إلى الفنانين" (مارس ١٨٣٠).

وهو أستاذ الأدب في مدرسة سوريز الشهيرة، ومؤلف مسرحية، ويتميز بمواهبه كخطيب، وبميله إلى إدراج السان سيمونية في تيار الرومانسية الأدبية.

مبكرًا، ومنذ خلوة منلمونتان، التي كان منضمًا إليها، دعا إلى "رحلة مسيحانية" لأنفانتان. بعد سجن الأب أسس جماعة «رفاق المرأة» وأقلع بها إلى إسطنبول، ثم إلى الإسكندرية في بحث صوفي عن "الأم"، أي زوجة لأنفانتان تكون محررة للنساء.

بعد إقامته في مصر نشر بعض الكتب : "الشرق والغرب" (١٨٣٥)، الحرب والسلام في الشرق (١٨٣٦)، تاريخ حرب محمد علي في الشام (١٨٣٦)، وعامان من تاريخ الشرق ١٨٣٩-١٨٤٠ (١٨٤٠) والتي منحته سمعة متخصص في المسألة الشرقية. كما شرع أيضًا في احتراف العمل الصحفي. فنجد مقالات له في مجلات **Le Temps, La Presse, La Patrie, La Revue Universelle, la Revue des Deux Mondes** وكان على التوالي رئيس تحرير صحيفة **Le Monde** ، صحيفة **Courrier Français** ومؤسس صحيفة قصيرة العمر **Tocsin des Travailleurs** في ١٨٤٨، ويشير أليكسيس بتي **Alexis Petit** إلى مشاركته في صحيفة **Le Moniteur Ottoman** في عام ١٨٣٤[٢٤]. ولكن لم نتمكن من التحقق من هذه المعلومة.

سافر إلى الجزائر عام ١٨٤٨ لكي يؤسس مستعمرة زراعية في جبال أطلس، وانتخب فيها عضوًا في الجمعية التشريعية ولكن معارضته لانقلاب الثاني من ديسمبر جعلته يعود إلى الحياة المدنية. وقد رافق ديليسبس في ١٨٥٥ في مهمة دراسية لحفر قناة السويس وصاغ في عام ١٨٥٦ مع شقيقه أليكسيس، المهندس في المدرسة المركزية، مشروعًا عنوانه "سياسة قناة السويس، المسائل الفنية والاقتصادية".

ميشيل شفالييه (١٨٠٨ – ١٨٧٩)

تلميذ قديم لمدرسة الهندسة (دفعة عام ١٩٢٣) ومدرسة المناجم ودخل إلى السان سيمونية عن طريق شارل لامبير.

وعندما حصل سريعًا على ثقة أنفانتان اعتبر كأنه "رئيس الأركان"، وتم تكليفه بمسئولية إدارة الصحيفة اليومية جلوب عندما وقعت هذه الصحيفة المعارضة للملك شارل العاشر في يد المجموعة. وإلى جانب منصبه كمدير للصحيفة كتب فيها أغلب المقالات التي تعالج السياسة الداخلية.

وانتزعه القضاء من خلوته في منلمونتان مع أنفانتان وأودع سجن سانت بيلاجي. فكر في السفر إلى مصر ليحقق الجزء المصري من حلمه "نظام البحر المتوسط". ولكن قطيعته مع أنفانتان أدت به إلى أن يفضل، عند الخروج من السجن، السفر للدراسة في الولايات المتحدة.

تولى ميشيل شفالييه بعد ذلك وظائف عديدة مهمة : محرر صحيفة **Débat** ، مستشار دولة، أستاذ الاقتصاد السياسي في كوليج دوفرانس... ونشر عام ١٨٤٤ في مجلة **Revue des Deux Mondes** دراسة مزدوجة مهمة عن بنما والسويس. وفي عهد الإمبراطورية كان مستشارًا مسموعًا من نابليون الثالث وشارك مع كوبدن Cobden في مفاوضات معاهدة التبادل الحر بين فرنسا وإنجلترا [٢٥].



بارو وشفالييه ودوفيرييه.

لوحة لكال Cals عن كونييه L. Cogniet

0, 19 x 0, 28 Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal.

شارل دوفرييه (١٨٠٣- ١٨٦٦)

ابن أحد بارونات الإمبراطورية، مهنته محامٍ ومنتمٍ للسان سيمونية قبل عام ١٨٣٠. أثناء الخلوة، ونظرًا لزعمه أنه ينهل من مصدر إلهى إلهامه الكوني والنسوي نال لقب "شاعر الرب". ولقد أسهم وصفه للـ "المدينة الجديدة" وباريس السان سيمونيين في كتاب **Le Livre des cent-et-un** بصورة حاسمة في تحرير كتابة الكثير من الحواريين ابتداء من توما أوربان، والذي سيصير إسماعيل أوربان، والذي كان قائده الروحي لفترة من الوقت.

وإلى جانب كون دوفيرييه مؤلفًا مع أخيه للكثير من المسرحيات (تحت الاسم المستعار ميلفيل **Mélesville**) كان رجل أعمال ورجل صحافة من مستوى رفيع: شريكا في شركة السكك الحديدية باريس – ليون، مؤسس ومدير الشركة العامة للإعلانات (أول شركة للدعاية في الصحف، والتي جعلها مستعدة لتقديم خدمة حملات صحفية لصالح قناة السويس)[٢٦]، مؤسسًا للصحيفة الأنفانتينية اليومية **Le Crédit**، مشاركًا في صحيفتي **Opinion Nationale, Journal Des débats**.

كل هذا المسار المهني قد تم بمشاركة حميمة مع أنفانتان وأصدقائهما المشتركين[٢٧].

الهوامش

(16) Op. cit., Paris, 1883, t. II, p. 124

(17) Journal de Prax, F. E., Ms 7.773/90, f° 10 r°.

(18) Voir lettre d'Enfantin à Aglaé Saint-Hilaire, juin 1832; Texte reproduit par d'Allemagne, *Les saint-simoniens*… pp. 283-284.

(١٩) ندين بهذه الملاحظة للسيد Bruno Etienne الأستاذ في معهد الدراسات السياسية في جامعة إكس أن بروفانس، فليقبل شكرنا.

(٢٠) Manuscrit inédit, Fonds Eiechthal de la Bibliothèque de l'Arsenal. Ms 13 736, p. 11.

(٢١) من أجل تفسيرات كاملة انظر la correspondance d'Enfantin et de Chevalier avec Holstein dans les Archives, volume V (Bibliothèque de l'Arsenal, F. E. Ms 647). توجد عدة نماذج من العقد محفوظة فى الأرسنال .

(22) Sources : Procès ; 1833 ou l'année de la Mère: Fonds Enfantin; Ms 7,647? Ff. 463 et 135 v°, 7.776/66 et 69 ; 7.676/119 et 138, 7.739/41 et 66 فيما يختص بباقي المسيرة المهنية والروحية انظر *le Dictionnaire biographique du mouvement ouvrier* de J. Maîtron.

(23) Lettre à Thérèse Nugues, 15 août 1832, F. E., Ms. 7.621, f° 171.

(24) Lettre à Enfantin du 31 mai 1834, F. E., Ms. 7.614 f° 100.

(25) Voir Jean Walch, *Michel Chevaliers, économiste saint-simonien*, Paris, Vrin, 1975.

(26) Voir F. E., Ms 7.671/29.

(27) Voir la notice dans *Dictionnaire de biographie française*.

الفصل الثانى

من مارسيليا إلى الإسكندرية : رحيل وضياع

توجد غريزة نبوية تدفعني إلى الشرق، بحثًا عنها

(بارو، Mission d'Orient، ٨ فبراير ١٨٣٣)

" **السويس**

مركز حياتنا **العملية**

هنا نقوم **بالفعل**

الذي ينتظره العالم

كي يعترف بأننا

ذكور"

من أنفانتان إلى بارو، ٨ أغسطس ١٨٣٣

كانوا حوالي ٨٠ شخصًا قاموا بالسفر، لم يرحلوا جميعًا سويًا ولا لنفس الأسباب، ولكنهم قرروا عبور البحر، وحتى إن رحلوا بصورة مشتتة، فإنهم كانوا يلتقون في الهدف، وهنا توجد الحقيقة الجماعية.

في النهاية يوجد ميناء الإسكندرية، في هذه الأوقات الأخيرة للبحرية الشراعية لم تكن الريح هي التي تدفع سفن كلوريند وبولاكو والممتاز والمصرى وبرنسيبي اريديتاريو وماريا وأونوراتا وميلناريس. كانت الإلهامات السان سيمونية تهب من كل سفينة. وسواء كانت عبورًا هادئًا أو رحلات مليئة بالمخاطر، فإن المسارات المتتالية تستحق أن يشار إليها لما تعبر عنه من تنوع وتلاقٍ بين الأفراد والجماعات المزمعة في الرحيل.

***

تعطينا أوقات السفر صورة عامة أكثر عقلانية من تلك التي نكوّنها بمحاولة تتبع الحركات التي تبدو تائهة لهؤلاء وأولئك في البحر المتوسط.

أول المسافرين في ٢٢ مارس ١٨٣٣ كان الجناح الغالب في جماعة "رفاق المرأة". كانوا ثلاثة عشر، أو بالأحرى (وليس ذلك صدفة) اثنى عشر حواريًا ورئيسهم بارو : ألريك، وكارلوس، ودافيد، وديشارم، وجرانال، وجانس، وبراكس، وريجو، وتوشيه، وتورنو وأوربان. كان مأربهم إسطنبول حيث كانوا ينوون القيام بعمل

دعاية. ووصلوا إليها في ١٥ إبريل، وطردوا منها بعد ذلك بأسبوع. وبعد توقف لمرات في الجزر اليونانية الخاضعة للسيطرة العثمانية ولا سيما إزمير وصلوا إلى الإسكندرية في ١٤ مايو التالي. واستقبلهم فيها "رجال كايول Cayol" وهم أقلية من نفس المجموعة عددهم أربعة برئيسهم، رحلوا مباشرة إلى مصر في ٧ إبريل ووصلوا في ٣٠ منه: كايول، وفليشي، وجرمان وبانتييه.

هذه السلسلة الأولى من الأسفار قد أطلقتها أساسًا نبوءة بارو عن ظهور المرأة– المسيح في الشرق أثناء سنة ١٨٣٣.

وتم إعادة انطلاق الحركة بسبب خروج أنفانتان من السجن، حيث استفاد من عفو ملكي في ٣١ يوليه، وبسبب إعلان حملته إلى مصر من أجل حفر قناة السويس.

وهذه بداية للسلسلة الثانية من الهجرة.

في ١٩ ديسمبر أُرسل شارل دوجيه Charles Duguet إلى الإسكندرية كدليل.

أنفانتان نفسه غادر مارسيليا في ٢٣ ديسمبر، يرافقه خمسة رجال اختيروا لكفاءاتهم وإخلاصهم للأب: هولشتين، فورنل، لامبير، أوليفييه وبتى. ومنذ ١١ نوفمبر التالي، غادرت سيسيل فورنل (زوجة فورنل) وكلوريند روجيه من قادة النساء السان سيمونيات.

تلا ذلك فترة راحة لأكثر من ستة أشهر، استكشف أثناءها أنفانتان إمكانية التعاون مع الوالي. وبانتظار النتيجة طلب من أتباعه الباقين في فرنسا أن يستعدوا.

واستدعاهم حينما تم البدء بمشروع قناطر النيل. فغادر حينئذٍ برونو وهوارت في ١٢ يولية ١٨٣٤ ، وفي ١٣ نوفمبر غادر دورو، جوندريه، ماسول، روجيه وسوزان فوالكان. أثناء هذه الفترة مع فواصل زمنية، تدفق آخرون تلبية لنداء أنفانتان للعمل في السد. وآخر هجرة مهمة هي مجيء بوسكو، أحد المتعاطفين، غادر في ٥ أكتوبر ١٨٣٥ .

بعد معاينة هذا التدفق، يبقى تفسير لماذا وكيف تم الرحيل الجماعي السان سيموني على مرحلتين وتركز في مصر.

***

السان سيمونية، فيما وراء خطابها الواضح، مثلها مثل كل جمعية إنسانية ومثل كل حزب، ومثل كل دين، ولأنها كانت ترغب أن تكون كل ذلك، كانت في الواقع مسكونة بتيارات متناقضة، تجسدها شخصيات قوية تتنافس فيما بينها للتأثير في اختيارات الحركة وضمان مجد قيادتها.

المحاولة الأولي، المستفيدة من رضا أنفانتان كانت مرتبطة قبل كل شيء بشخصية بارو.

ولد إميل بارو وتربى في جزيرة موريس وتبعه وهجها، وعبر عن الحنين لها بأحلام عنيدة في مستعمرات بعيدة[١]. ويذكر إيشتال علاوة على ذلك أنه كان له "عشيقة يهودية وزوجة يهودية" (وكانت ابنة عم لإيشتال من الدرجة الثانية)[٢]. بيد أننا نعرف أن اليهوديات كانت الشرقيات الوحيدات الموجودات في أوروبا، وكن يمثلن نمطًا من الحساسية النسائية أشاد به فيكتور هوجو تحديدًا في ديوانه **الشرقيات** (١٨٢٩). وهكذا تحيز بارو للإعلاء من موضوع الشرق في موعظة بتاريخ ١٥ يناير ١٨٣٢. ووضع فيها بالتوازي الأزمتين المتزامنتين للغرب المسيحي والشرق المسلم ورأى أن الساعة قد حانت لاتصالهما السلمي[٣].

في ١٢ إبريل التالي، دعا إلى بعثة في إقليمي فرنسا الأكثر تدينًا، وهما الغرب والجنوب، بدلاً من الخلوة. لكنه صحح نفسه في اليوم التالي ووجه آماله شطر " رحلة مسيحية " أو كما يقول أيضًا بنبرة دينية، شطر "حملة صليبية رائعة" تهدف إلى مصالحة السلطان والباشا حول "مشروعات كبرى". وهكذا بعد أن يتعرف "ملوك المجوس الجدد" على أنفانتان "المسيح الجديد" سيقوم بعودة منتصرة إلى أوروبا ويضمن تثبيت السان سيمونية كدين عالمي. وسوف يقترح بارو نفسه أن يقوم بمهمة رسولية "في مدن أمريكا الكبرى وفي آسيا وإفريقيا"[٤].

وكان حبس أنفانتان وميشيل شفالييه في ١٥ ديسمبر ١٨٣٢، قد ترك المجال مفتوحًا لتنفيذ هذه المشروعات.

بينما كان عدد كبير من المناضلين قد تجمع في مدينة ليون، أكبر المدن الصناعية، مع النية على الوجود مع البروليتاريا والاندماج في الإنتاج، كان بارو لا يفكر إلا في أوروبا الموعودة لأنفانتان .

لأنه كان راسخًا لدى السان سيمونيين، منذ انشقاق بازار، أن امرأة متحررة، بطلة لجنسها، سوف تظهر لتأسيس أخلاق جديدة ولتكوّن مع الأب الزوجين المدعوين لقيادة الشراكة الكونية بين الشعوب.

وبسبب الصعوبات في أن يكوّنوا فيما بينهم مجتمعًا منسجمًا، دون تصادم بين الأفراد، فقد استنتجوا بالفعل استحالة وجود سلطة ذكورية خالصة. كانت عزوبية حواريي منلمونتان وسيلة للتعبير عن هذا الانتظار لتلك التي تعودوا أن يطلقوا عليها بصورة صوفية "المرأة"، أو مستخدمين اللغة الرفاقية لكي يفهمهم الشعب: "الأم".

وبهذا اختار بارو مهمة الإسراع بقدومها، وفي ١٥ يناير ١٨٣٣، أسس في ليون "جماعة رفاق المرأة" وتم اختراع الهدف بعدها مباشرة.

وصباح يوم ٢٨ بعد ليلة يمكن أن نتوقع أنها كانت إشراقية، صرح بما أوحى إليه: "أنا أعرف أين توجد الأم، في الشرق"[٥].

وأضاف متفقًا مع إيشتال، أنه يعتقد أنها يهودية.

كانت إيديولوجية حملة إسطنبول على أقل تقدير معقدة وملتبسة.

عند القراءة الأولى، يزكي الانطباع رومانسية مسيحية متحمسة. كان الرفاق يحسبون أنفسهم فرسانًا، ويمكن لنا أن نتساءل عمَّ إذا كان نموذجهم التاريخي هو الحملات الصليبية أكثر من كونه جيش الشرق. علاوة على ذلك، كان بحثهم وعقيدتهم في "مريم الجديدة"[٦] يستبق في جوانب كثيرة هذا التفاني المريمي الرجعي الذي ظهر في نهاية القرن.

ولكن نظرة أكثر تدقيقًا للمعنى والشكل ستكشف، حتى بالنسبة لبارو، أنها تعبير عن حاجة واحترام للثقافة الشرقية. فمؤسس جماعة الرفاق يشرح لنا أنه لا ينتظر شيئًا من المرأة في الغرب. فهي مفرطة "في الغيرة على استقلالها الذي انتقل إليها من العذراء المسيحية"، فهي تطالب بحرية اكتسبتها بشكل كبير ولكنها تبدو، حسب رأيه، غير قادرة على إدراك وظيفتها الخاصة في اتحادها بالرجل[٧].

وعلى الرغم من ذلك فمن سجن سانت بلاجي، حيث كان أنفانتان يتأمل في زنزانته، أتى ماينير بالطريقة التي سيتم التعامل بها مع أرض الإسلام. فقد تلقى، قبل بارو بيومين، الإلهام فيما يخص إمكانية البحث عن الأم في الشرق، فأقر له حتى قبل أن يطلب منه، وأعد له قائمة من التوصيات المحددة. "يجب على بارو أن يعمل على تكريس أشياء جديدة بالنسبة لهمّ الأوربيين" وأن ينقطع لـــ "دراسة القرآن والعادات" وأن يبحث في شهور المسلمين وأعيادهم عن "تقارب" و"ارتباط". وحينما يقابلون فتاة من الشرق، عليهم أن يحيوها باسمه بالانحناء لأسفل، رافعين البيريه. وينتهي الخطاب المرسل بتاريخ ٢٦ يناير بإشارة تثبت دراسة أنفانتان للإسلام وحدسه بإمكانيات بدء حوار:

"بارو، إنني أحلم بتلك المرأتين بالقرب من محمد، مارية وفاطمة، وسوف تجد في ذلك أمرًا ما. يوجد هنا، حسبما أعتقد، نبوءة وتراث، التراث انتهى فلتبدأ النبوءة.

يوجد هنا تكملة لمريم المسيحية، أم بلا عيب : تحول إلى مارية الجديدة، إلى الزوجة الحرة، المكافئة"[٨].

***

للرفاق إذن الحرية في أن ينغمسوا فيما يسميه بارو "الجنون السامي بالمرأة"[٩]، بالإحالة إلى مديح الكاتب إرازم Erasme للجنون الإلهي للمسيح.

ولكي يعطي السان سيمونيون صدى أقصى في فرنسا لرحيلهم إلى مهمة الشرق قاموا بجولة للدعاية في الجنوب.

ترك بارو وأتباعه المخلصون ليون في ٤ مارس عبر نهر الرون جنوبًا، وفي محطاتهم كانوا ينشدون غناءهم ويستعرضون حللهم البيضاء الزاهرة التي صممت خصيصًا للرفاق.

في نفس الوقت، رحل هوارت في اليوم التالى في نفس الطريق على رأس أتباعه "البروليتاريين"، واتخذ مسارًا حافلاً سيرًا على الأقدام من مدينة نيم. وكانت أساليب الدعاية تتنوع فيما بين مظاهرة الشارع (غناء، موكب بالزي، مواعظ في مفترق الطرق) والاجتماعات العامة ذات الشكل التقليدي. وفي نيم نفسها استقبلتهم "صيحات آكلي لحوم البشر"، أكثر من ١٠,٠٠٠ شخص، وكادوا يتسببون "بالقرب من شجرة الحرية" في "احتكاك بغيض بين البروتستانت والكاثوليك". وفي قلب هذا الإحياء للعواطف الدينية، جاءتهم الإمارات الوحيدة على التعاطف من قبل طائفة الإسكافيين. وباقي الطريق كان أيضًا متنافرًا، ترحيب وشتائم في مونبلييه، إلقاء حجارة، وحماة عاطفيون في سيت، صياح من الجمهور واستقبال حسن من جانب السلطات في إيج مورت...

فقط ظهر في مدينة آرل بداية تطور مؤيد. فقد حيا فيها جمهور متحمس فريق هوارت عند عودته لركوب السفينة في نهر الرون، وفي الليل أنعم الصيادون على هؤلاء المبشرين بالتين واللوز، وأعدوا لهم في كبائنهم وسائد من الأسل وشباكًا وقلوعًا. ولكن في مدينة مارسيليا التي مهدتها خطب دورى وريتوريه وجانان، حدثت المعجزة الشعبية. بعد مأدبة بها عدة مئات من الأشخاص، نزل المبشرون إلى كانبيير وتم اصطحابهم إلى الميناء في بهجة لم يسبق لها مثيل، وأعد هوارت عن ذلك تقريرًا غنائيًّا مقدمًا إلى أنفانتان :

"لم يكن الميناء يكفي للجمهور المتعجل، لم يكن هناك ما يكفي من القوارب لأولئك الذين يريدون الذهاب حتى سفينة كلوريند. وكان البحر مغطى بـسلال تتصادم في هوادة. وكان الجو مليئًا بالغناء المتنوع الذي يحتفي بالرفاق، وكانت أصداء الصخور تردد بعيدًا اسمي الأب والأم"(١٠).

كان ذلك في يوم ٢٢ مارس، يوم اعتدال الربيع – وهو تاريخ أوصى به أنفانتان، وقبله بارو كرمز للمساواة بين الرجل والمرأة.

وبينما كان هوارت يعود راجعًا إلى ليون مع فريقه مستمرًا في نشر كلام الهداية في طريقه. كان بارو على ظهر الكلوريند، التي كان مساعد القبطان فيها هو غاريبالدى، يعزو لطقوس الحياة اليومية سمة مقدسة. كما أنه في الليلة التي سبقت الإقلاع، قام بالإشراف على اعتراف ومناولة عامة للمبشرين، أعقبها توزيع للعقود، وكذلك أثناء عبور البحر، كان كل يوم يقوم أمام أتباعه بقراءة القرآن، وفترات من تاريخ المسلمين، وحيا – بصورة احتفالية – قرطاج عندما مروا بكاب بون، واحتفل مع طاقم السفينة في يوم عيد الفصح بتحرر العبيد. كان التأطير قويًّا لدرجة أن الشاب توما أوربان، عندما وصل إلى إسطنبول كان على حافة الهذيان:

" لا أعرف إلا القليل من المشاهد التي صيغت لتوقظ في النفس الإعجاب برؤية إسطنبول التي نلمحها عبر غابة من صواري السفن في الميناء. المآذن الرشيقة والمذهبة لسانت صوفيا تتألق بنيران الشمس، والقباب تتخذ استدارتها بعظمة، ونشعر بالاستماع إلى صخب غامض لمدينة تستيقظ. كانت شواطئ آسيا مغطاة بخضرة غنية. وكانت منازل الترف تبدو كأنها أقيمت على حواف الأشجار. كانت المدينة تمتد طوال مضيق البوسفور وتفتح مسارًا واسعًا مليئًا بالقوارب والسفن. وكانت أفكار العظمة والإمبراطورية والسلطان تسود هذه المدينة الرائعة المقامة في شكل مسرح. جعلني الإيمان أرى الأم ترتفع متألقة من وسط هذه القصور تخيم على سانت صوفيا المسيحية ثم المسلمة، وتدعو الملوك والشعوب للقاء جليل في السعادة".

ما إن وطئ الرفاق الأرض حتى زاروا الأحياء المختلفة التركية والإفرنجية في المدينة. يعرضون فيها زيهم ويغنون ويعظون ويجرون محادثات في المقاهي بمساعدة ترجمان، ويعقدون اجتماعًا بين المقابر... دون أن ينسوا، حسب تعليمات أنفانتان، أن يرفعوا البيريه أمام كل امرأة تمر.

كل شيء يسير على ما يرام حتى إنه بعد مرور أربعة أيام جاء ضابط تركي يرجوهم حضور وصول السلطان إلى مسجد ما سوف يقوم بالصلاة فيه. وفي الساعة المذكورة ، ها هو محمود في موكب هائل، على ظهر حصان رمادي، ولكنه يرتدي "طربوش بسيط" به زر من الحرير. حيّاه السان سيمونيون رافعين أيديهم إلى البيريه (دون أن يخلعوه، لأن الأمر يتعلق برجل، دائماً حسب تعليمات أنفانتان). ألقى السلطان "نظرة جانبية "على الفريق الغريب، ثم مر دون أن يدير رأسه. أُعجب أوروبان بلحيته "ذات لون أسود جميل" وسجل أن "شكله ليس منفرًا ألبتة" (هكذا)[١١].

عند هذه اللحظة اقتربت مغامرة إسطنبول من نهايتها. ففي المساء جاء أحمد باشا، المقرب فيما يقال من السلطان، ليقابل السان سيمونيين في مأواهم المتواضع، وبعد أن جعلهم يتحدثون أعلن لهم بأدب أنه هو أيضًا من "رفاق المرأة" ودعاهم إلى قصره. وبدلاً من الوليمة المأمولة، كان إيقاف مقنّع. فكانوا ينقلونهم من مبنى رسمي إلى مبنى رسمي آخر أثناء ما كان الأميرال روسان **Roussin** سفير فرنسا يتفاوض من أجل خروج كريم لهم. وأخيرًا طردوا على ظهر قارب صغير باتجاه أزمير[١٢].

فيما يبدو، لو صدقنا الأرشيفات الدبلوماسية، أن مذهب الرفاق وأقوالهم وحضورهم نفسه، كان يعد متعارضًا مع القوانين والعادات التركية[١٣].

على الرغم من ذلك فبالنسبة لبارو، الذي يريد أن يحسب رغباته على أنها وقائع، "مساواة المرأة بالرجل قد تم غرسها في الشرق"، وما يهم من الآن فصاعدًا، في نظره، أن النداء "بعد أن استمع إليه الجنس التركي"، "سوف يتردد صداه في آذان الجنس العربي"[١٤].

لهذا السبب، فمن إزمير – حيث تكوّن مركز صغير للدعوة بين الإفرنج، الدبلوماسيين والعسكريين الأوروبيين – انتقل إلى الإسكندرية.

السمة الدون كيشوتية نوعًا ما لمهمة الشرق كانت في آن غير قابلة للتقليد وغير فعالة، ولهذا فقد حاول أنفانتان تناولاً آخر.

ليس لأن الأب نفسه لا ميل لديه مشابهًا ودائمًا في إعطاء الأولوية للمسألة النسائية. فقبل خروجه من السجن بقليل في يوليو ١٨٣٣ ألهمه كسوف للقمر أبياتًا ذات نزعة رمزية، لو كانت أكثر استغلاقًا لاختلطت بقصيدة أطياف **Chimères** لجيرار دو نرفال:

بارو، أعطنى يدك

من فوق البحار

لقد أعلنت عنى لبنات الشرق :

سوف يريننى !

أقسم على ذلك بالهلال

وبقمرهن الفضي

الذي أتى اليوم

يقبل وجه شمسي الذهبية(١٥).

ولكن بحلول شهر أغسطس التالي، أرسلت أبيات احتفالية أخرى لبارو (ذكرناها في بداية الفصل) تشدد على المسألة الصناعية، أى حفر قناة السويس. وقد جاءت مجازات ذات طابع رجولى مفرط لتؤكد على هذا التحول، ويرافق الرسالة نقد مفتوح لنشاط مهمة الشرق. يقول أنفانتان إنه قد "أصيب بالهلع" بسبب "الأشكال المطلقة تقريبًا" التي اكتسى بها البحث عن الأم لدى "بعض الطبائع المجردة". وأمر من ثم بالعودة إلى "الحياة العادية"، وأعلن، نظرًا لأن وصوله قريب، فعلى المهندسين والرسامين في المهمة استكشاف منطقة السويس. أما فيما يخص بارو فقد نُصح بأن يذهب لينتظر الأب ... في بنما !".

هذه المرة، تم تحديد هدف دقيق وعملي، "قطع الصحراء التي تفصل بين البحرين وتكملة الدراسات التي تمت أثناء الحملة على مصر، وبيان أفضل صيغة يتم تبنيها للربط بين السويس والبحر المتوسط، وبواسطة ذلك إيصال الهند بأوروبا، فهذا هو كما يقول فورنل، البرنامج المختصر لحملتنا"(١٧).

بلا شك هنا أيضًا ينطلق الخيال بعيدًا. ولكن فرص النجاح وطرق التنفيذ قد تم تصورها بوضوح رؤية مستقبلية باهرة. يعتمد أنفانتان قبل كل شيء على "قوة التنفيذ" و "إرادة" محمد على. وقد صرح أن ما يجعله مصممًا هو اقتناعه بأن الباشا هو أكبر رجل للعمل في السلطة. وهو نفسه في حالة الفشل سوف يكتفي بأنه "أشار" إلى عمل ذي منفعة عالمية و"أسهم" في تنفيذه إن عاجلاً أو آجلاً – وهذا شيء لا يشك فيه البتة(١٨).

وكلف هنري فورنل باستخراج جوازات السفر وإعداد المشروع، ومن الناحية الفنية عكف هذا المهندس الخبير والمرموق في مكتبة حديقة النباتات على دراسة أعمال علماء حملة بونابرت والملف الذي أعده الأب عن قناة السويس. وقد أخبره الدكتور بايى **Bailly**، صديق قديم لسان سيمون، نقلاً عن مصادر على الأرجح دبلوماسية، عن الأسباب الحقيقية لمعارضة الإنجليز للحفر: كانوا يعتقدون أن محمد علي سوف يجني منها ثروات جديدة وسيستفيد منها في تطوير أسطوله بالبحر الأحمر، والذي عن طريقه، وبتحالف باشوات الموانى الذين يجمعهم معه دين واحد، سوف يصبح قادرًا على الاستيلاء على الطريق إلى الهند بل وعلى تحريض الشعوب المستعمرة على الانتفاض[١٩].

ولقد راهن فورنل، للعثور على معاونين، على "الصلات العديدة" التي تربط السان سيمونيين بشبكة الطلاب القدامى لمدرسة الهندسة العليا. أما فيما يخص التمويل، فإنه يقدر أنه يمكن أن يأتى من إنجلترا وحدها، على شرط أن تفهم مصلحتها الحقيقية (ويسوق فورنل حججًا حول هذه النقطة) أو على الأرجح من "مؤتمر أوروبي، نوع من "الحلف المقدس لقادة أوروبا"[٢٠].

هل هكذا يكتب التاريخ، مقدمًا ؟

رغم ذلك فإن الرحيل إلى مصر في حقيقة الأمر ينتج عن تحليل ضمنى للوضع في الحركة السان سيمونية والمضايقات السياسية التي توجد بعض المؤشرات على وجودها.

كان القمع الحكومي، والفضيحة المقترنة بأطروحاتهم السياسية والأخلاقية يمنعان عن السان سيمونيين أى نجاح في فرنسا في المدى القصير، فصار ترك الوطن يمثل البديل الوحيد للسجن. هذا هو تقدير ميشيل شفالييه الذي حظى بالعفو قبل أنفانتان بقليل ملتزمًا بالذهاب لدراسة إنشاء السكك الحديدية في العالم الجديد. وذهب جوستاف آيشتال، مؤيدًا بشبكة من الصداقات وبالقدرة المالية لعائلته، إلى اليونان حيث أسس "مكتبًا للاقتصاد العام" تحت إدارة الوزير كلوتيس. ولكن أنفانتان، الأكثر راديكالية، جعل من الضرورة نظرية، ورفض التراخي وقدم منفاه على أنه وسيلة لأن يجذب إلى الخارج جزءًا من "الرءوس الأكثر حماسًا والأكثر قلقًا"، والتي نظرًا لأنها لا تجد عملاً مناسبًا لكفاءتها تُختزل إلى الدور السلبي بأن يكونوا "محرضين"[٢١]. هذه الكلمات المكتوبة في خطاب أرسله إلى قريبه الجنرال سان سير نوج **Saint Cyr Nugues**، عضو الجمعية التشريعية، يكتسب صيغة عرض هدنة موجه إلى الحكومة. وعلاوة على ذلك يشير أنفانتان بصورة ملغزة أن قنصل فرنسا في مصر "قد علم ذلك وحبذه. وقد بقي في فرنسا بالقرب من الوزراء رجال ذوو استعدادات طيبة[٢٢]. وطبقًا لفورنل، وافق تيير **Thiers**، وزير التجارة والأشغال العمومية حينذاك على مقابلة فورنل، ولكن جاء الموعد بعد فوات الأوان لمقابلته حيث حدد موعدها في ٢٣ أغسطس.

والواقع أن جوازات سفر أنفانتان وفورنل للإسكندرية قد صدرت بلا صعوبة، في حين أن طلبات سابقة لبعض السان سيمونيين قد قوبلت بالرفض بسبب شغب إسطنبول[٢٤].

وفي أول نوفمبر ١٨٣٣ يوم جمعة في التقويم المسيحي، أو بعبارة أخرى "ميشيل سان سيمون" حسب التقويم السان سيموني "أى العطلة المقدسة عند المحمديين، واليوم ١٨ للقمر جماسي السارسي (قمر النصف الثاني) في عام ١٢٤٩ للهجرة". هكذا يروي أحد رفاق الأب وهو شارل لامبير الرحلة من مارسيليا إلى الإسكندرية.

أقلع هو وفورنل في زي مهندسي المناجم. وقد رحلا في يوم اعتدال الخريف، على ظهر سفينة برنسيبي إريديتاريو **Principe Ereditario** (رمز غير مقصود لأنصار إلغاء توريث الثروة)، شعر المسافران بصدمة قوية. وتم استقبالهما بعد شهر بواسطة السان سيمونيين الموجودين في الإسكندرية وبجمهرة من الحمّارين. والأخبار مطمئنة :

"استقبلنا القنصل الفرنسي جيدًا. وكان الوالي على علم بقدومنا : لم نجد أى عقبة من جانبه، ولكن ينبغي الحصول على مساعدته (...) بعض الأشخاص من البلد استقبلونا بحرارة وأكدوا لنا، ما نعرفه سلفًا، أن الباشا لا يتراجع أمام أى مشروع نافع لمجده ولبلده[٢٥].

***

وقبل أن نغوص مع هؤلاء المهاجرين في مصر، يجدر أن نعود مرة أخيرة للتأمل في أوضاع الرحيل. إن مشروع السان سيمونيين لتحديث الشرق، يعبر عن نفسه في البداية بصورة مفارقة من خلال أشكال عفا عليها الزمان ومن خلال إحياء الحملات الصليبية، وكأن "المسيحية الجديدة" لسان سيمون كانت تبحث عن مشروعية رومانسية في ملحمة سلمية لفرسان العصور الوسطى. وقد أدت الطبيعة الأخلاقية والمناصرة لحقوق المرأة بطريقة حضرية لمهمة الشرق إلى أن يصلوا إلى حدود المسموح واللا مسموح. هذه الحدود كانت تقريبًا هي هي، في نفس الفترة في تركيا في عهد السلطان محمود وفي جنوب فرنسا في عهد ملكية يولية. الدليل على ذلك، الرجم بالحجارة الذي تعرضوا له في البروفانس وطرد السلطة لهم من إسطنبول.

إن فشل محاولة بارو أغلق الباب العالي في وجه السان سيمونيين، ودعاه إلى أن يتجه نحو طريق عملي إن لم يكن براجماتيًا. ومكتسبات حملة بونابرت وأسطورتها التي يعمل أنفانتان على إنعاشها قدمت له، من الجانب الفرنسي، رمزًا أكثر حداثة لتعبئة المناضلين. ومن الجانب المصري، هذه السابقة توفر له مداخل مناسبة "للباشا الصناعي"[٢٦].

بالنظر إلى الحملة السان سيمونية من حيث دوافعها الأولى، نجدها تندرج بما يكفي في مفهوم "المستعمرة"، ولكنه بالمعنى الذي كان لهذه الكلمة في اليونان القديمة، وتنطبق بالتوازي على التجمعات التي أقامها فيما بعد أتباع فورييه في الولايات المتحدة، في جماعة منشقة من المدينة، لتحقق مشروعها الخاص في أرض بعيدة وفي تحالف مع السكان الأصليين بصورة تجعلهم حينما يلتحمون بجذر أجنبي ويعدلّونه سوف يحظون بتقدير المركز الاستعماري. ولكن من نافلة القول أنه في اللحظة التي كان الجيش الفرنسي يستولى فيها على الجزائر، كان على السان سيمونيين أن يبتكروا، نظريًا وعمليًا، شكلاً مختلفاً تمامًا للوجود، يحترم استقلال وخصائص الثقافة المضيفة.

الهوامش

(1) Voir son intervention lors du "Neuvième Enseignement", in *Œuvres de Saint-Simon et Enfantin*, l. XVI, p. 68, et sa lettre à Rességuier du 8 mars 1830 (Archives, vol. II, F.E., Ms. 7 644, f° 167).

(2) Fonds Eichthal de la Bibliothèque de l'Arsenal, Ms. 14 390/4.

(3) *L'Orient et l'Occident,* Texte dans le Globe du 16 janvier 1832, ou dans les différentes éditions des *Prédications.*

(4) Lettres à Enfantin des 12 et 13 avril 1832 et du 14 Juin de la même année, publiées dans les Notices historiques des Œuvres de Saint-Simon et Enfantin, t. VI, pp. 197-204.

(5) Au Pére, Reponse de Barrault, in 1833 ou l'Année de la Mère, Lyon, 1833, n° de février (cote à la Bibliothèque de l'Arsenal : Ms. 7.861/257), pp. 11-12.

(6) Même numéro de 1833 ou l'Année de la Mère. lettre d'Enfantin du 26 janvier, p. 9.

(7) Ibid., Mission d'Orient (8 février 1833), p. 31.

(8) Lettre à Barrault, ibid., p. 9. يلمّح أنفانتان هنا إلى فاطمة بنت الرسول وإلى زوجته مارية القبطية

(9) N° de janvier de 1833..., Fondation de l'association des Compagnons de la Femme, p. 34.

(10) انظر التحليلات والمعلومات عن هذه الفترة في Daniel Armogathe aux Rencontres Méditerranéennes de 1983 mentionnées dans la Bibliographie. أما نحن فنستقي معلوماتنا من volume v des Archives (F. E. , Ms. 7.647) en particulier au rapport g'Hoart daté d'avril 1833 (f° 456 et suiv.).

(11) *Voyage d'Orient,* Ms. inédit d'Urbain, Bibliothèque de l'Arsenal, Fonds Eichthal, Ms. 13 736, premier cahier.

(12) Récits de Cognat (lettre a Enfantin du 9 mai 1833, F.E., Ms. 7708), de Prax (Fonds Eichthal de l'Arsenal, Ms. 14 697) et d'Urbain (même référence que supra).

(١٣) انظر مقتطفات من التقارير مذكورة في d'Allemagne (ouvrage mentionné en Bibliographie, p. 375) ainsi que les lettres du Baron Roussin à Barrault (Fonds Eichthal de l'Arsenal, Ms 14 697/2 à 4). يحذّر سفير فرنسا رئيس الرفاق من "الحساسية" التي أنتجها. ويثنيه عن إقامته في إزمير وألا يعود مطلقًا لإسطنبول. ويلزمه أن يذهب إلى أرض خارج السيادة التركية. وحسبما يذكر السفير نتج عن مفاوضاته مع السلطات التركية أن على السيد بارو "أن يترك الأرض الإسلامية فوراً"، وإلا فإنه يعرض للخطر مواطنيه المقيمين في تركيا بل حتى كل الإفرنج. في الواقع كان السان سيمونيون يتنقلون بحرية بين الجزر، وبارو نفسه عاد إلى إسطنبول في محاولة للدخول إلى روسيا عبر ميناء أوديسا. وإجمالاً، وطبقًا لحساب بارو، تم الإعلان عن الأم في إسطنبول وأزمير والإسكندرية والقاهرة وتينيدوس وميتيلن وفوسي وسيو وتيشمي وردس وكاندي (كريت) وبيروت وصيدا ويافا والقدس، أي في الأعراق الثلاثة الكبار في هذا الجزء من العالم، الأتراك واليونان والعرب، والأعراق المنتشرة بينها، اليهود والأرمن"

Fonds Eichtal de l'Arsenal, Ms 14 697/9, f° 22. .a

(14) Lettre à Enfantin du 16 avril 1833, Archives, vol. V, F.E. Ms. 7 647 (publication partielle dans *Le Livres de Actes*, pp. 17-19).

(15) *Le Père à Barrault en Orient*, in *Livre des Actes*, p. 68.

(16) Lettre du 8 août 1833, F.E., Ms. 7 619, ff. 2-4.

(17) Lettre à A*** datée du 5 septembre 1833, publiée dans le Livre des Actes. p. 83 et suiv.

(18) F. E., Ms. 7 619. f° 7r°.

(19) Lettres de Fournel au Père des 7 et 27 aout 1833 (cette dernière incluant une lettre de Bailly), Archives, vol. V.F.E., Ms. 7.647, ff. 185 v° 187 r°

(20) Lettre à A*** datée du 5 septembre 1833, publiée dans le Livre des Actes, p. 83 et suiv.

(21) Lettre du 25 août 1833, F.E., Ms. 7.673/64.

(22) F.E.. Ms. 7.619, f° 11 r°.

(23) Lettre au rédacteur de la phalange, publiée dans ce journal le 11 septembre 1840.

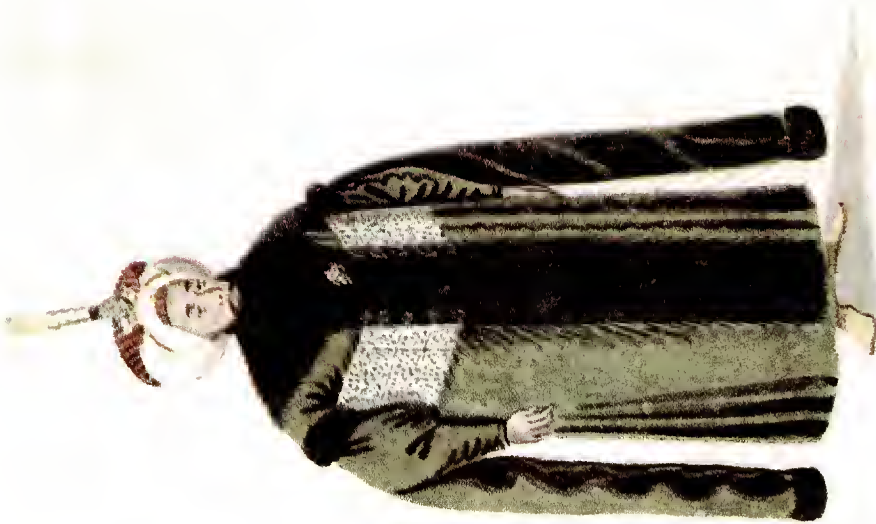
(24) Voir Fonds Eichtal, Ms, 14 697/15 (récit de Maréchal, f° 1et Amour à tous, n° 3, 18 août 1833

"فيما يبدو أن سفير فرنسا في إسطنبول ووزير الخارجية لم يكونا بعيدين عن هذا الرفض، وأن السان سيمونيين لا يمكنهم الحصول على جوزات سفر لبلاد الشام الخاضعة للسيادة التركية، حتى صدور أوامر أخرى"

(25) Lettre adressée à Sophie, sa sœur, et publiée dans *le Livre des Actes*, p. 192 et suiv.

(26) Expression de Michel Chevalier dans le *Système de la Méditerranée*, p. 123.





السلطان محمود في حلة قديمة وحلة حديثة

نقلا عن Costumi orientali، مجموعة بالألوان المائية الأصلية نفذت في إسطنبول، في ١٨٣٦،
collection F. Charles-Roux. Reproduite d'après Gabriel Hanotaux (dir), Histoire de la nation égyptienne, I, VI, "L'Egypte de 1801 à 1882, par F. Charles-Roux, Paris, 1963, planche VI.

السلطان محمود في حلة قديمة وحلة حديثة :

وصل محمود (١٧٨٥-١٨٣٩) إلى السلطنة في ١٨٠٨ في السياق الدموي لانتفاضة الانكشارية. وكان متمسكًا بالإصلاح على منهاج سلفه وابن عمه سليم الثالث، فقد أضعف بالقوة الشريحة المحافظة من الانكشارية، ووجد في البداية محمد علي في جانبه لقمع الطائفة الوهابية في الجزيرة العربية. ويعلق بارو في كتابه عامان من تاريخ الشرق : ١٨٣٩- ١٨٤٠، على هذا الحلف بين الباشا والسلطان الذي تحقق في إعادة غزو مكة:

"وهكذا كان على الأميرين اللذين يهدفان إلى تعديل العقيدة الحقيقية بواسطة إصلاحاتهما أن يمهدا لذلك بنجاحهما ضد الهرطقة. كان الإصلاح العثماني يهدف إلى التقريب بين مسلمي أوروبا ؛ وكانت الهرطقة العربية، بسبب تطهّريتها المتطرفة، قد جعلت الإسلام يتراجع إلى درجة تبجيل التعصب القديم".

ولكن ما هو جدير بالملاحظة أن هذا الحدث نفسه كان، بالنسبة للقائدين اللذين سوف يصيران خصمين بعد ذلك، هو الأصل المشترك للحصول على الشعبية التي كانا يفتقدانها آنذاك[١].

ثم عاود محمد علي مساندته في قمع اليونانيين الذين يناضلون من أجل استقلالهم، وكان على السلطان محمود أن يتحمل وقتئذ استهجان الرأى الليبرالي الأوروبي المؤيد بشدة للمتمردين. وفي هذه الفترة تم اختيار أنفانتان، بواسطة الكثير من زملائه القدامي في مدرسة الهندسة العليا، لكي يصوغ استكتابًا لصالح اليونانيين من أجل مدهم بالأسلحة[٢].

يوجد سبيل إجباري وأكثر إلحاحًا لكل إصلاح في الإمبراطورية العثمانية هو تحديث الجيش الذي شرع فيه محمود والذي تضمن زيًا ينسخ فيه أزياء الأوروبيين العسكرية، والمفترض أنه يمنح الجنود حرية أكبر في الحركة. ولأنه أراد أن يجعل من نفسه قدوة، لم يتردد في ترك العمامة لصالح الطربوش البسيط كما لم يكن يتردد فى ارتداء البنطلون.

هذا التطور في الملبس امتد إلى الموظفين الذين وجب عليهم الخضوع للموضة الأوروبية.

وربما كان بارو يفكر أيضًا في التعديلات في الملبس التي حدثت في فرنسا بسبب الثورة، فكتب بخصوص هذا الموضوع: "أن شعبًا لا يُبعث أبدًا دون أن يخلع ملابسه".

ويشدد المؤلف السان سيموني بصورة أكثر جدية على الالتقاء والتوازي بين الإصلاحات التي يقوم بها السلطان والتي يقوم بها الباشا :

"يشترك محمود مع محمد علي في شرف إدخال الإصلاح في الإسلام، بل إن الباشا سبق السلطان، وبدا أن السيد لم يكن سوى مقلد للتابع (...). فرق نظامية، أسطول، مدارس على النظام الأوروبي،

هذه الإنجازات الأولى للإصلاح الذي غامر به سليم تمت أولاً بواسطة الوالي، الذي لم يكن عليه أن يقدم حسابًا عن أعماله أمام كل الأمة المسلمة، والذي لم تمثل محاولاته فضيحة. وتحلى السلطان بالشجاعة في إهدار صفته الدينية مع التجديد. وقد منح تصديق سلطته على كل ما مارسه محمد علي من قبل بمهارة، وما كان أمرًا عسيرًا رفعه إلى مستوى الحق (...) من الآن فصاعدًا أصبح التعصب الجامد للمسلمين هو الهرطقة، العقيدة الصحيحة هي إضفاء المرونة على نص القانون مع التحولات التي يقتضيها الزمن (...) بكلمة واحدة، كان لدى محمد علي الجرأة على التجديد، وفي أن يجدد دون الإساءة للنبي، أما محمود فقد جعل التجديد يتم بمباركة النبي نفسه"[٣].

(المرأة العملاقة أمام الهرم) و (معبد المرأة)

كانت النبوءات الهاذية لبارو وأصدقائه عن مقدم امرأة – مسيح ترجع في الغالب إلى رؤية أخروية للمرأة التي تسحق الثعبان. ولكنها تمثل أيضًا من جوانب شتى إحياء للاحتفالات والشعائر المنظمة أثناء الثورة الفرنسية. وكان أوجست كونت يتهم "المسيحية الجديدة" بأنها ليست إلا "لاهوت محبة البشر وقد تم تأجيجه"[٤].



امرأة عملاقة أمام الهرم

رسم بالقلم الرصاص، 0, 29 x 0, 21

Album de Machereau, Bibliothèque de l'Arsenal, Ms 13 910, f° 33.



معبد المرأة نفس السمات ونفس موقع الصورة السابقة

هؤلاء النساء المبجلات، معبودات حقيقيات تجمع بين بونيه نساء الثورة ورمح الجماهير الثائرة مع ذكريات من التمثال العملاق لأثينا الذي نحته فيدياس في البانتيون.

ولكن ظهور هرم في خلفية الرسم الأول بيّن أن مثل هذه التمثيلات تدخل في باب الولع بمصر في القرن الثامن عشر والذي انتشر بوجه خاص بفضل المتصوفة والماسونيين الأحرار.

وتقدم لوحات الثورة أكثر من مثال على هذا التجميع الغريب الذي يبلور أكثر من مرة اسم وصورة الإلهة إيزيس. الرسم الثاني لوحة أكثر بلورية بين لوحات كثيرات غيرها، لنفس الفكرة. الطاقات المفتوحة في أسفل التنورة وكذلك تيجان أقواس القباب التي تكوّنها تشير بوضوح إلى أن هذا التمثال هو أيضًا معبد. يحاول ماشرو أن يصور الوصف الشعري للمعبد- المرأة الذي تخيله دوفربيه في قصيدة نثر عنوانها "المدينة الجديدة، أو باريس السان سيمونيين":

"معبدي امرأة، حول جسدها الهائل وحتى حزامها، تصعد في شكل حلزوني، عبر نوافذ الزجاج، قاعات تتتابع كقلائد لفستان حفل راقص (...) الذراع اليمنى لمحبوبة مدينتي متجهة إلى القباب الصناعية، وتستريح يدها على دائرة ذات قمة من الكريستال (...) هذه الدائرة تكون في داخل المعبد موضع مسرحي المقدس الذي تكون ديكوراته بانوراما (...) وضعتُ في اليد اليسرى لزوجة تمثالي العملاق (أي المدينة نفسها، ملاحظة من فيليب رينييه) صولجانًا من اللازورد والفضة، يلمس الأرض، ويتزوج في الهواء مع الأسهم المستقيمة والمذهَّبة للأكاديمية ونطاقها ذي الأعمدة البنفسجية (...) السلالم الجانبية للصناعيين والعلماء تمثل ثنيات حذائها والسلالم الواسعة للكهنة والشعب تصعد عبر ثنيات فستانها ذي الفتحات والإبزيم. قد نقول، نظرًا للمعان الزجاج الذي يحيط كالثعبان بجسدها، والطريق الحلزوني للقاعات التي تشع عند الزخارف الوردية لصدرها، إن جواهر القارات الخمس في ثوبها وصدريتها"(٥).



ألكسندر ماسول

من صورة فوتوغرافية ظهرت في **D'Allemagne, Les saint simoniens**

ألكسندر ماسول

ولد ماسول في ١٨٠٥ ، أصله من جنوب فرنسا، وكان معلمًا رغم دراسته للقانون. وهو واحد من حواريي منلمونتان. بعد أن اختلط بعمال ليون سافر إلى الجزائر في أغسطس ١٨٣٣ مع صديقه روجيه بهدف إقامة مسرح ونشر السان سيمونية بين الشعب العربي. لا يمكن تفسير عودة الرجلين إلى طولون في الشهر التالي إلا بصدمة كبيرة. في نوفمبر ١٨٣٤ أقلع ماسول إلى مصر بصحبة روجيه وسوزان فوالكان. وأثناء صيف ١٨٣٥ اصطحب مع جنيفوا، لامبير في رحلته للاستكشافات المعدنية على شاطئ النيل في صعيد مصر. وقام بعد ذلك بصورة تطوعية بتدريس اللغة الفرنسية وقواعد الحساب في مدرسة المناجم التي كان لامبير مكلفاً بتأسيسها وإدارتها في القاهرة. كما تحمل أيضًا مهام سكرتير لامبير. ولأنه لم يجد وظيفة تليق به غادر إلى فرنسا في مارس ١٨٣٨ وزار في طريقه سوريا وإسطنبول.

في سنوات ١٨٤٠، عاش في لندن وأدار صحيفة الأوبزرفاتور فرانسيه **L'Observateur français** وصار نائب رئيس مجلة أوريان **Revue d'Orient** ورئيس تحرير صحيفة لارفورم **la Réforme** . بعد ثورة فبراير انضم إلى بوردون وكتب في صحيفة لا فوا دو ببل **la Voix du peuple**. وبعد انقلاب ٢ ديسمبر، وضع كل آماله في الماسونية. وصار رئيسًا في محفل "النهضة بواسطة أطفال حيرام" (مع لابربير، ليون حاليفي، ايشتال، دوفرييه و...عائلة روتشيلد)، ثم نائب رئيس مجلس محفل الشرق الكبير، وأطلق في عام ١٨٦٥ مع هنرى بريسون **Herni Breson** وشارل رينوفييه **Charles Renouvier** وفيكتور كونسيدران **Victor Considérant** مجلة للمفكرين الأحرار عنوانها الأخلاق المستقلة **La Morale indépendante** ، لاقت نجاحًا كبيرًا. ثم صار مستشارًا محليًا لباريس عام ١٨٧٢. ومات عام ١٨٧٦(٦).

شاريان وكونيا، من جماعة "رفاق المرأة" :

يشير روجيه إلى أن هذه اللوحة رسمها، كوتل **Coutel** ، سان سيموني من مونبلييه[٧].

يظهر الرفيقان في زي منلمونتان، مع البيريه، ويحمل كونيا علاوة على ذلك العقد. وسلوكه الراعي يعبِّر عن وظيفته كأب لشاربان في ديانة سان سيمون. نلاحظ أن الذراعين والساقين ترسم مثلثات، وهو شكل رمزي للصيغة الثلاثية للسان سيمونية (والماسونية).

شاربان هو تلميذ في مدرسة مستشفى جرينوبل، كان عمره ٢١ سنة عندما سافر إلى الإسكندرية مع آخرين "فنانين" (من مجموعة روجيه) في ٧ أغسطس ١٨٣٣ وقد استقبله ابن عمه واسمه كلير **Cler**.

بعد حل جماعة الرفاق تبع بارو في محاولته أن يذهب إلى روسيا عبر ميناء أوديسا، ثم عاد إلى مصر. وعمل كطبيب وأقام في كاندي (كريت) حتى عام ١٩٣٧ بصحبة كلارا شاربونيل التي أنجب منها طفلاً. وعاد إلى كاندي مرة ثانية عام ١٨٤٠ لكي ينشئ فيها مصنعًا للبنجر. ولكن يبدو أن مشروعاته لم تعرف ازدهارًا لأننا نجده يعمل سكرتيرًا لأنفانتان في أعوام ١٨٥٠. ثم بعد ذلك عمل في الصندوق العام للمساهمين[٨].

كونيا هو أيضًا طبيب، رحل مع بارو في أول رحلات مهمة الشرق، والتقى في أزمير بالشاعر لامارتين الذي جلب له بعض المساعدات ووجه له خطابًا متعاطفًا بعد أن تلقى بعض الكتيبات المذهبية [٩]. وبعد إقامة في الإسكندرية رحل إلى لبنان بصحبة جرانال لتحية الليدي ستانهوب **Stanhope**.



شاربان وكونيا، رفاق المرأة

D'Allemagne, Les Saint Simoniens عن

وبعد عودته إلى مصر ألحقته مصلحة الصحة بموقع القناطر ليعمل طبيبًا. ثم رافق بوصفه جراحًا الحملة على موكا التي قام بها محمد علي لكي يكون سيدًا على ضفتي البحر الأحمر. وقد جاب بهذه الصفة مع أجاريت كوسيدير، الحجاز وحتى مكة. وترك مصر في أكتوبر ١٨٣٦.

في عام ١٨٤٠ أصبح في باريس مساعد مفتش في الموازين والمقاييس[١٠].

مسار سفينة Principe hereditariq مبدأ التوريث (هكذا) التي حملت الأب إلى مصر:

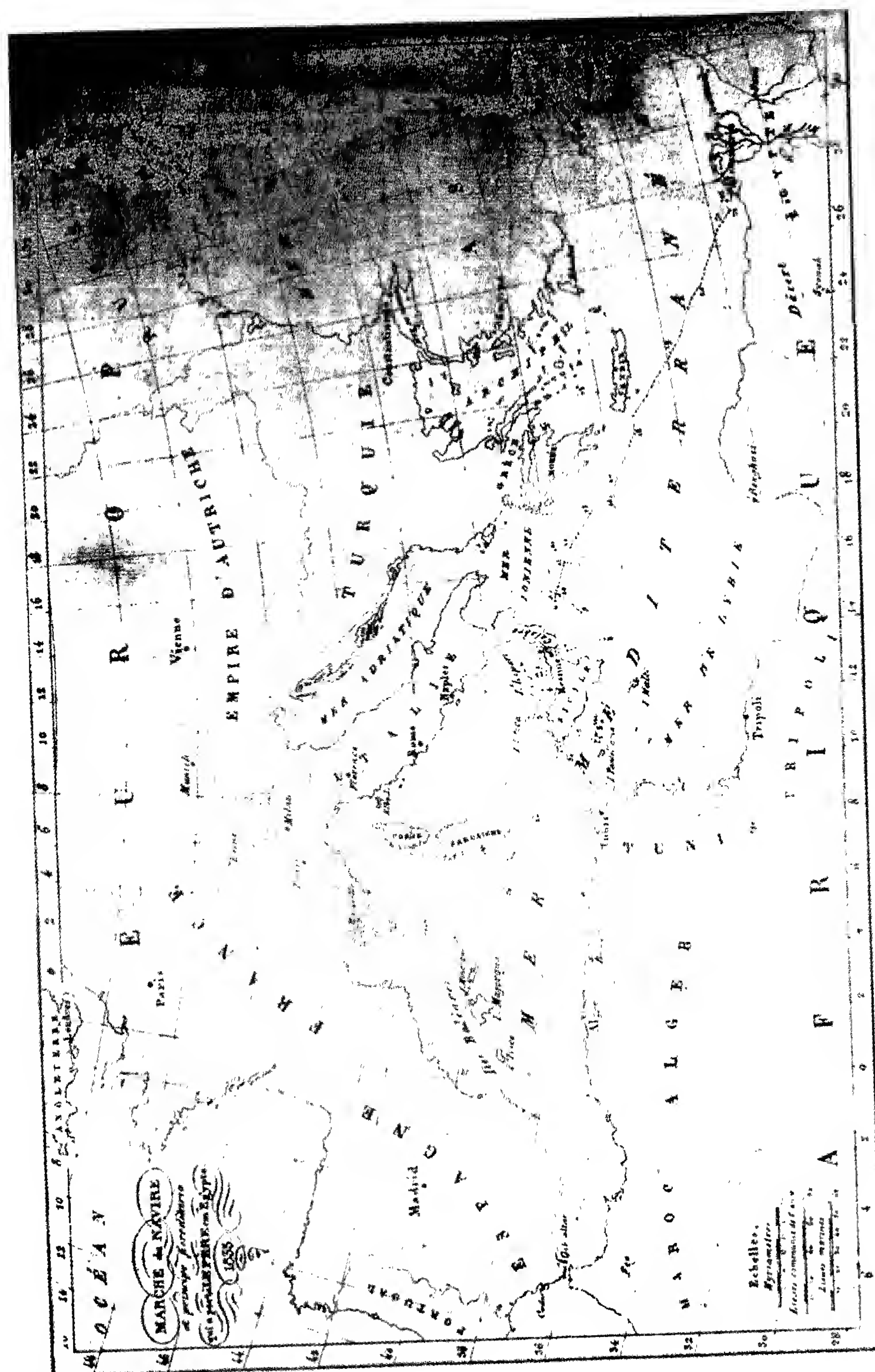
هذه الخريطة توضح خطاب شارل لامبير لأخته صوفي التي ينشرها **Le livre des Actes** ليروي عبور الأب ورفاقه الخمسة. "الخط ذو العلامات المتقطعة هو طريق السفينة. النقط على هذا الخط تحدد موقعنا عند ظهيرة يوم التاريخ المحدد".

وبالعودة إلى الأصل المحفوظ في أرشيف أنفانتان[١١]، نلاحظ أن لامبير وضع "خريطة تستخدم لفهم "**المسار من باريس إلى أورشليم**" للفيكونت شاتوبريان" (طبعة ١٨٢٩بواسطة **A. H. Dufour**). هذا الكتاب كان في حقيبة أنفانتان وكذلك كتاب وصف مصر وقاموس وكتاب في النحو العربي ومصحف.

بعد أن تم التغلب على دوار البحر، كان المسافرون حينما لا يكونون مشغولين بصيد غذائهم، يشغلون وقتهم بالنقاش حول اللاهوت السان سيموني. وتعليقات حول القرآن، وحتى نقاشات حول "صعوبة إعداد وجبة دجاج" و"التعبير الثوري عن مرحلتنا في الطبيخ".

في يوميات السفر حينما يتعرض لامبير للحياة المشتركة على السفينة يشير أيضًا إلى أنه قرأ بنفسه وتصفح كتاب الرحلة في مصر لفولني والتقرير حول قناة البحرين الذي كتبه لوبير ورسالة سافاري حول مصر، وأعمال حول السكك الحديدية، وأعمال هيدروليكية، وهمبولت "(انزلاق (...) رسالة في تسوية الأراضي، بعض فقرات من القرآن أو مبادئ العقيدة الإسلامية، إلخ".

وعند دخول ميناء الإسكندرية كان القبطانان مالكا السفينة الأخوان **Vianello** فيانيلو يلوحان براية السان سيمونية[١٢].



مسار سفينة **Principe hereditarie** مبدأ التوريث (هكذا) التي حملت الأب إلى مصر، ١٨٣٣

***Livre des Actes,* neuvième livraison.**

الهوامش

(1) Op. cit., 1. II. p. 23.

(2) Voir t. 1 *des Notices historiques des Œuvres de Saint-Simon et Enfantin.* p. 80.

(3) Même référence que supra n. 1, pp. 35 et 64-65

(4) Lettres à Eichthal, des 9 décembre 1828 et 11 décembre 1829. *Correspondance générale et confessions,* éd. Carneiro el Arnaud. Paris, Mouton. 1973, t, 1. pp. 205-13.

(5) Ce هذا النص الملحق بـ Livre Nouveau, نشر كاملاً فى عام en 1832 dans Paris ou le Livre des cent-et-un. Il est repris dans les *Notices historiques des Œuvres de Saint-Sinon et d'Enfantin,* I. VIII, pp. 65-93.

(6) Sources : notice "Massol" du Dictionnaire biographique du mouvement ouvrier de J. Maîtron ; *Huitième Enseignement d'Enfantin* ; F.E., Mss, 7.622 ; 7.671/13 ; 7.739/38. 44, 66 ; 7.743/5 ; 7.790/109 ; *Le Monde maçonnique* (année 1864) ; d'A'llemagne, *Prosper Enfantin et les grandes entreprises du XIX siècle,* pp. 205-206.

(7) Lettre à Enfantin, 25 septembre, F.E., Ms. 7.776/66.

(8) Sources : F.E., Mss 7.647, f° 464 r° ; 7.703/30-56 . 7.792/35 ; 7.835/67 , 85138 ; 7.790/108-109 ,7.793/7 ; Fonds Eichthal de l'Arsenal, Ms. 14 697/15.

(9) Publiée dans le Moniteur Universel du 15 août 1833. Originaux conservés in F.E,, Ms. 14 697/6-7.

(10) Sources : *Livre des Actes,* p. 209 ; *Voyage d'Orient,* par Ismayl Urbain, Fonds Eichthal de l'Arsenal, Ms 13 736 ; F.E., Ms. 7.707/58-73 et 75-91, 7.741/2, 7.773/9.

(11) Ms. 7.829/5-6.

(12) Sources : *Livre des Actes,* p. 192 et suiv : F.E., Ms. 7.655/42, et 7.751/10 .

الفصل الثالث

الخطوات الأولى في أرض مصر

"يا من ترون كل شيء على ما يرام، تعالوا إلى الشرق، وما إن تخطوا خطوة على هذه الأرض التي نحن فيها، حتى تبكوا على مصير شعب، تحرقه الشمس، عارٍ، بلا مأوى، يطارده الجوع القاسي، مبعثر كيفما كان على الأرض. انظروا إلى النساء المسكينات، أشباح متنقلة لا يمكنكم أن تروا ملامحهن، استمعوا أحيانًا إلى صرخاتهن. يضربهن ويمزقهن الحبل والعصا، ولا أحد يحميهن من هذه القسوة اليومية".

(كازيمير كايول، *Mission d'Orient* ١٨٣٣)

الصناعة هي التي تنقذ مصر ولكن إذا لم تعتمد الصناعة على الدين، إذا لم تأت لتحقق على الأرض جنة محمد، فلن يكون لها أي قوة. بعبارة أخرى، بجانب المهندس، ينبغي أن يكون هناك إمام، وأن ننطلق من المسجد لنذهب إلى موقع العمل.

(توماس – إسماعيل أوربان *Voyage d'Orient* ١٨٣٥)

لم يستقبل محمد علي قط أنفانتان ولم يره. ورغم ذلك التقى أبو السان سيمونية مع مؤسس مصر الحديثة، ولكن عن بُعد.

هذا العلاقة، في الغياب، لم تمنع أن يجري حوار، ولا أن يتم تعاون بين الحملة الاشتراكية ومصر.

إن غرابة اللقاء ربما كانت من جهة ما أحد شروط إمكانيته. فالسان سيمونيون في سعيهم إلى الاحتفاظ باستقلالهم وتأكيد أنفسهم كمجموعة، وضعوا أنفسهم بمعنى ما وبصورة جماعية خارج مجال المنافسة القومية بين الأوروبيين التي كانت مصر محلاً لها، وفوق مستوى التنافس على الطموحات الفردية لكبار موظفي الباشا، الأتراك في أغلبهم.

ولكن من الواضح أن هذا الوضع الجماعي كان أيضًا مصدرًا لصعوبات ولم يكن بالإمكان الاستمرار فيه طويلاً، ولا الاستغناء في الحياة اليومية عن الصيغة المعتادة لعلاقات الأوروبيين بإدارة الباشا، أي الطريق القنصلي.

مسائل شكلية؟ نحن نعرف أنه في العلاقات بين الشعوب، يعد الشكل واقعًا حاسمًا. اختيار قناطر النيل وتفضيلها على حفر قناة السويس، وافتتاح موقع البناء، كما حدث مع محمد علي نتج في جزء منه عن قوة هذه الأشكال.

***

في أزمير حيث إنها تتبع سيدًا يونانيًا أكثر منه تركيًا، وذات تراث ليبرالي بسبب وضعها في مُلتَقى طرق دولية، أدركت جماعة رفاق المرأة واقع الحال القائم بين الشرق والغرب. فالبنية التي وجدوها في استقبالهم تتكون من دبلوماسيين، وضباط بحرية وإفرنج أي أوروبيين استقروا في الشام.

وهكذا تدخل البارون نرسيا **Nercia** مترجم الملك لكي يهدئ مخاوف الحاكم طاهر بك بخصوص الأمن العام. وهذا الحاكم لم يستدع «الحواريين» إلا لكي يطرح عليهم أسئلة رأوا أنها "خارقة للعادة"، وذلك بلا شك بسبب الصعوبة التي وجدها في فهم مذهبهم. ودعتهم مدام نرسيا إلى سهراتها، حيث التقوا بزوجة القنصل شالاي **Challay** بنت فيرمان ديدو **Firmin Didot**. كما كانوا ضيوفًا على بوسكيه – دوشان **Bousquet-Deschamps**، محرر صحيفة أزمير (تعتبر صحيفة رسمية للإمبراطورية العثمانية موجهة إلى أوروبا)، وقد اشترى منهم بمبلغ ١٢٠ قرشًا مجموعة كاملة من كتاباتهم، وقد التقى لامارتين الذي كان عابرًا للجزيرة بكونيا. واقتنى بعض الكتابات لنفسه وأعقبها بخطاب جميل، ونبه الصحفي إلى افتقار الرفاق للمال، وسحب منه ٢٠ سكان إضافية من أجلهم. أما فيما يخص السفينة البحرية الفرنسية التي يقودها الأميرال هوجون، القابعة في الخليج، فكان بعض ضباطها الذين يعرفون شخصيًا بعض المبشرين يدعونهم إلى الصعود إلى السفن. وهم إن لم يتبنوا جميعا في الحال هذا المذهب، مثل لوسيان دافيزييه **Lucien davésiès** ملازم بالفرقاطة وتلميذ قديم في مدرسة الهندسة العليا، فقد جمعوا تبرعات فيما بينهم وصلت ١٧٠ فرنكًا، والعلاقات التي نُسجت كانت قوية بحيث كانت تتجدد لاحقا عند كل مقابلة عابرة في أحد الموانى. لدرجة أنه قد تكونت شبكة صغيرة من ضباط البحرية السان سيمونيين : فوريشون، وشارل فيران، وإدمون رو، مع دافيزييه هي الأسماء الأكثر ذكرًا.

في مصر نفسها، كان التضامن الفرنسي الصريح فعالاً هو أيضًا.

في الإسكندرية سكن الطبيب أدولف ريجو **Adolf Rigud** في منزل ابن عمه الدكتور جوزيف ريجو حكيمباشي المستشفي المدني الأوروبي. وبانتير من مارسيليا وجد عملاً لدى عرّابه الصراف فونكلير. ولكن التوافقات الإيديولوجية تنسج علاقات أوسع من علاقات القرابة العائلية لأبناء الأقاليم.

فالكابتن كافيجليا، ضابط بحري قديم، وصوفي متحمس، مقيم في البلاد منذ ٨ سنوات قدم العديد من الخدمات الصغيرة. لقد كان متعاطفًا مضمونًا سلفًا، حتى إنه في عام ١٨٣٢ أراد أن يقوم بالسفر إلى باريس سعيًا لرؤية أنفانتان. ويحكي كايول أنه "كان يبذل كل جهده ليقضي على التحفظات ضدنا ويصنع لنا أصدقاء.

وهو الذي حجز مبنى يخص شخصًا اسمه أميون (مدير المسرح الايطالي؟) لعقد أول اجتماع عام. وبعد ذلك استطاع شخص اسمه فيدال أن يحصل لبارو، بالقرب من عمود بومباى، على صالة اجتماعات خاصة بالماسونيين، وانتهى الاجتماع بعشاء مع أعضاء المحفل. كما استفاد الكثيرون من مأدبة ضباط السفن الفرنسية الراسية في الميناء. ومن أجل الذهاب إلى لبنان لتحية الليدي ستانهوب التمس أوربان تبرعات من التجار: بيرو قدم ٢٠٠ قرش، جوتيه ٣٠٠، وباستريه ٥٠٠، وزيزينيا ٤٠٠، والخياط فيليبير الذي دفع تكاليف الإقامة في بيروت. الليدي ستانهون نفسها لم تكتف بأن تضع تحت تصرف المسافرين مترجمًا وتموينًا، وركائب لزيارة سوريا التي فتحها مؤخرًا إبراهيم باشا، وإنما أعطتهم أيضًا ٥٠٠ قرش. كل هبة كانت فرصة للمحادثات المذهبية، وتوزيع الكتيبات وصور "الأب".

ولكن اللقاء الحاسم كان مع سليمان بك، بعبارة أخرى الكولونيل سيف، بحار قديم وجندى قديم لدى نابليون انتقل إلى خدمة محمد على، وحصل على لقب بك لإسهامه في انتصاراته. هذا "الفرنسي الذي تترّك" (كما يقول أوربان) عاد من طرسوس مع الأمير بشير(٥)، الذي جرت مناقشة بينه وبين إبراهيم باشا. ذهب ليزور في بيروت البارون بوالكونت، هذا الدبلوماسي من أتباع بوشيه، الذي كان في مهمة خاصة داخل الإمبراطورية العثمانية والذي أشرنا من قبل إلى حكمه على سياسة محمد علي.

وعندما علم كونيا بحضوره أودع لديه خطابًا بواسطة القنصل جوريل. وفي ٢٨ يوليه ١٨٣٣ قابله البك طويلاً وبحرارة وبرفقته أوربان، بل وجعله يدخن من غليونه وأعطاهم ٩٠٠ قرش ودعاهم للسكنى عنده في القاهرة[١].

هذا اللقاء، كما سترى، هو نقطة الانطلاق لدخول الكثير من السان سيمونيين إلى الوظائف العامة المصرية.

دون هذه البيئة المستقبِلة، ربما لم تكن هناك هجرة سان سيمونية.

***

الخطوات الأولى في مصر تبدو كأنها مشهد مسرحي.

جاب رجال كايول، وهو تاجر من مرسيليا متوسط الأهمية، الإسكندرية في زى مشابه في تكوين لزى فريق بارو، وإن اختلفت الألوان: جاكتة سوداء، وإيشارب ومعطف أبيض، وصديرى قرمزي مع شرائط سوداء على الأكمام في شكل غطاء واقٍ لراحة اليد، وقفازات بيضاء وبنطلون أحمر زاهٍ ممسك نوعًا ما وبيريه أحمر[٢]. والجمهور المحب للاستطلاع والمستعجل، لا يبدى شيئًا:

"بعض الأوربيين ينطقون باسم سان سيمون، يعلمونه للعرب والأتراك المحيطين بهم، وعلينا أن نعرّفهم بنا بصورة أفضل بالإقامة بينهم مدة معينة"[٣].

لحسن الحظ كان الباشا موجودًا في قصره السكندري على شاطئ البحر، وكانت الموسيقى في القصر تعزف نشيد المارسيلييز. وطلب كايول اللقاء به مرتين في ٢ و ٣ مايو. في المرة الأولى كان محمد علي نائمًا والمرة الثانية كان ترجمانا الوالي فيما يبدو، غائبين. ولكن في ٤ مايو لمحه السان سيمونيون على صهوة جواده في الترسانة وحيوه، وهي تحية ردها الوالي بتفضل كبير. منذ هذه اللحظة، قدر كايول أن الجليد قد ذاب واعتقد أنه من المستحسن الانتظار وعقد بعض الاجتماعات لكي يعاود المحاولة. في ١١ مايو قام بالفعل بعمل جلسة في صالة مليئة حوالي ساعة ونصف أمام جمهور "مكون من عدة قناصل ونواب قناصل والمبعوث النمساوي الكولونيل ومساعده، وكثير من كبار موظفي محمد علي". أعلن عن قدوم الأم ودعا إلى السلام، والتشارك الدولي، والمساواة بين الرجال والنساء، والتنظيم السلمي للعمال. بعد ذلك بستة أيام ، كان جرمان وبانتييه في الصحراء عند السراديب، وكان الباشا يشاهد مناورة مدفعية، ولوحظ أنه رد على تحتيهما "بتفضل"، وحدق فيهما بعض الوقت، فيهما فقط.

وصول بارو في نهاية الشهر والاجتماعات العامة التي ينظمها (٢٥ مايو و٦ يونيه) لم تفد بشيء سوى في تصحيح انطباعين سلبيين نتجا عن كايول: نزعة جمهورية شخصية متشددة، ونزوع غير حذر إلى التماس مساعدات بسداد ديونه. هذا الاستنكار كان وراء عودة كايول إلى فرنسا وعودة أتباعه بعده بقليل.

ولكن الكرم في تحية الباشا لا يمكن أن يخفي هشاشة الموقف. فقد سجل كايول منذ بداية شهر يونيه أن "يد إسطنبول التي تابعت الأب بارو في أزمير طالت مصر؛ لأنه قد تم، بعد مرور عدة أيام، الحظر علينا أن ننزل إلى البر، علاوة على ما وصل إلينا من ضجيج عن بعض المكائد التى تهدف إلى جعلنا نرحل من الإسكندرية"[٤].

الواقع أن السمة الإيديولوجية المحضة للحضور السان سيموني لم يكن باستطاعتها أن تستمر. وقد قدم تدخل أنفانتان معطيات جديدة : السويس تحل محل الأم، فبعد الثرثرة الكثيرة عن الشرق، اتجه السان سيمونيون أخيرًا إلى مهمة تغييره بواسطة الممارسة الصناعية.

وكان إجراء بحث ميداني وحملة توعية هو أول التجليات حتى قبل وصول الأب.

وكان أوجست كولان المحامي من مارسيليا وفريدريك آلريك النحات من ستراسبورج مكلفين بالتعرف على قناة السويس: فقدما عنها معلومات ورسومًا عن شكل الساحل، وطبيعة الأرض، وقناة سيزوستريس القديمة، إلخ[٥].

في أثناء هذا الوقت، اتصل كونيا وأوروبان المقيمان في القاهرة عند سليمان بك بأدهم بك. وتعبر كتابة اسم هذا الموظف الكبير لدى الباشا عن الصعوبة التي كان الغربيون في القرن التاسع عشر يجدونها عند كتابة الأسماء التي يسمعونها :

Hattein, Hatim, Hattin, Attin, Adhem, Adham, Etem, Ethem…

قدم أوروبان هذا التركي على أنه لواء مدفعية درس في مدرسة المدفعية بإسطنبول، ومدير الترسانة ومصنع الأسلحة بالقاهرة. وكان آلريك يعتقد أنه كبير لواءات الهندسة. ولكن يتفق الاثنان على جودة لغته الفرنسية ومعارفه في الرياضيات. ويذكر النحات أنه كانت له أفكار متقدمة جدًا حول الشراكة بين الشعوب، والرخاء بواسطة الصناعة، ووباء الحرب... إلخ. الترجمة الإيديولوجية لأقوال أدهم بك ربما كانت مبالغًا فيها بعض الشيء إلا أنها تحدد على الأقل أرضًا للتلاقي. والدليل أنه سوف يتم قريبًا عقد صلة مع التلاميذ القدامى للمدرسة المصرية في باريس، تلاميذ رفاعة الطهطاوي :

"رياضيون آخرون، قضوا عدة سنوات في فرنسا، وزير العدل (مختار بك) وإخوته، تعاطفوا معنا، وكانوا يستمعون إلينا باهتمام. لقد كنا مندهشين حين وجدنا أتراكًا ذوي مناصب عليا يستقبلوننا بكل اللياقة الفرنسية الراقية، ويتحدثون الفرنسية بطلاقة، واقتضوا منا أن نذهب لرؤيتهم مرارًا، وعبروا عن رغبتهم في التعرف على المهندسين الذين سيأتون مع الأب.."[٧].

كل هذه الأطراف علمت بقرب قدوم أنفانتان وبمشروعه حتى إنه قد خلق، فيما يبدو مناخ انتظار.

رواية ما حدث في الثلاثة أشهر التي تلت وصول الأب وأتباعه تبرز بعض مفاتيح دخول السان سيمونيين في دولة محمد علي.

في ٢٥ أكتوبر في اليوم التالي لوصول أنفانتان إلى الإسكندرية، بقي أنفانتان على ظهر السفينة. وكذلك ذهب بعد ذلك لاستكشاف إقليم السويس أثناء المناقشات مع الباشا حتى لا تشكل شخصيته عقبة[٨].

فورنل هو الذي نزل إلى الأرض، للقيام بالسفارة إذا جاز القول. وأكد له فردينان ديليسبس، نائب القنصل، وجود وظيفة خالية بعد وفاة مهندس إنجليزي. ولكنه جعله يصبر مبينًا له، حسب ما قال القنصل نفسه، أن محمد علي لا يستطيع استقباله في الإسكندرية، وينبغي الانتظار للحصول على مقابلة في القاهرة، لحل المسائل المتعلقة به. وسيريزى، الذي التقى به بعد ذلك والذي يعد بالنسبة للبحرية المصرية مثل سليمان – سيف للمشاة، أبلغه بتجربته الملتبسة.

"الباشا لا يخشى من شيء قدر الأوروبيين، ولا يريد أن يستخدم كموظفين سوى أهل البلد، من جانب آخر، يجمع هؤلاء بين الادعاء والجهل لدرجة أنه لا سبيل لعمل شيء معهم. المتعة الكبرى التي يستطيع المسيو دو سيريزى (هكذا) أن يقدمها للباشا هى أن يعلن له أن هذا الأوروبي أو ذاك الذي أحضره من أوروبا يريد أن يعود إلى وطنه قبل انتهاء عقده. الباشا لا يجعل أحدًا يطلب الإذن مرتين، إلخ، إلخ"[٩].

ليس مدهشًا في مثل هذه الظروف أن فورنل الذي تم تقديمه في نوفمبر إلى بوغوص بك الأرمني[١٠]، وزير الشئون الخارجية، لا يقابل الباشا إلا في يناير في العام التالي[١١].

كما أن راعيه القنصل العام ميمو أبلغه بطريقة دبلوماسية، لتفادى أي فضيحة، أقوالاً نُسبت إلى الباشا حول "عدم لياقة أن يُقدِّم له سان سيمونيين في زيهم". اللقاء الأول كان يوم ١٣ الساعة ٩ مساء في حضور ميمو وحده. وكان الموضوع عن "السكك الحديدية، ومناجم سوريا وأمور أخرى عديدة"[١٢]. "ولا كلمة واحدة عن السان سيمونية ولا حتى بطريقة غير مباشرة". ولكن الغريب أن فورنل في تقريره إلى أنفانتان لا يشير إلى نقاش حول مسألة القناة، وكأن الباشا قد قطع الطريق معبرًا منذ البداية عن اختياره للسكك الحديدية، وكأن فورنل نفسه قد دفن هذا الموضوع في الحال. إن قراءة يوميات المهندس التي يلخص فيها كل المحادثة في سطور قليلة، تؤكد فرضية صمته عن هذا الموضوع :

"قال لنا الباشا إنه مصمم أن ينشئ السكة الحديد من السويس إلى القاهرة، ليمدها بعد ذلك إلى الإسكندرية، وإنه قد كتب إلى إنجلترا يطلب إرسال مهندس. وطلب مني إن كان بالإمكان أن نبنى له بسرعة نموذجًا صغيرًا يعطيه فكرة دقيقة عن السكة الحديد، ووعدته بإعداد ذلك بعد غد"[١٣].

هذا كل شيء. لم يتحدث الباشا عن السان سيمونية ولم يتطرق فورنل إلى مشروع أنفانتان! وتقرير ميمو إلى وزيره يتخطى هو أيضًا موضوع القناة. وبدون أدنى اعتراض أمسك فورنل بما أعتقد أنه القصبة الممدودة، وبمساعدة ألريك نفذ سريعًا نموذجًا بالجبس والخشب. في يوم ١٥ في المساء قاده إلى القصر أدهم بك هذه المرة. وبنى تحت أعين محمد علي نماذج لقضبان مصغرة، وسيّر عليها عربة قطار صغيرة. بعد ذلك، وبعد تلقي الشكر من سموه، طلب تولي مسئولية إنشاء السكة الحديد الحقيقية، ولكن تم اصطحابه إلى الخارج: فالوعد قد أعطى إلى الإنجليز. مع عزاء: "قال لى إنه مستعد أن يرسلني إلى سوريا"[١٤].

ورغم كل ذلك لم يفقد فورنل الأمل، فصاغ بعد يومين مذكرة ترجمها أدهم بك إلى التركية وأعطاها ميمو للباشا في يوم ٢٤. ومن خلالها نعلم أن الباشا يميل بالفعل إلى مشروعين كبيرين مختلفين تمامًا، وهما اتصال السويس بالقاهرة بالسكة الحديد، والسد على النيل لري أكبر مساحة من الأرض". وهنأ فورنل الباشا على أنه شعر "بالصلة الوثيقة الموجودة بين إقامة السكك الحديدية والتنقيب عن الفحم الحجري، ليس فقط على ضفاف البحر الأحمر ولكن أيضًا في نقاط مختلفة في أملاكه الجديدة." ولكن بوصفه خبيرًا في التعدين وأيضًا كدبلوماسي مبتدئ، فهو ينصح بطلب القضبان من إنجلترا. ثم أعد ورقة بالتكلفة المبدئية والجدول الزمني للعمل. ويشرح لنا أنه نظرًا لأن التضاريس مسطحة، وأنه في مصر لا خوف من القضايا اللانهائية التي يقيمها ملاك الأراضي، فإنه قد تعهد بأنه سوف ينهي الإنشاء خلال عام بالضبط[١٥].

إجمالاً، كانت المنافسة الفرنسية – الإنجليزية التي وجد السان سيمونيون أنفسهم فيها رغمًا عنهم، أعطت للباشا إمكانيات للاختيار كافية لأن يحفظ بها استقلاله من خلال استخدام كل قوة في تحييد الأخرى: مهندس إنجليزي أم مهندس فرنسي للمناجم في سوريا، مشروع فرنسي أم مشروع إنجليزي لسكك حديد القاهرة – السويس، مشروع إنجليزي أم مشروع فرنسي للسد على النيل...

لأن السد، بصرف النظر عن جدواه في رفع قيمة البلاد، هو أيضًا خاضع من المنبع، إن جاز القول، لسلطة القرارات السيادية: كان على لينان دي بلفون، ضابط قديم بالبحرية الفرنسية وأصبح كبير مهندسي الصعيد، أن يدافع عن تصوراته حول الموضوع ضد تصورات والز **walles** وحقيقيان **Hékékyan** (أرمني درس في إنجلترا).

وتمكننا يوميات فورنل من متابعة تطور المناقشات حتى اتخاذ القرار في يوم ٢٥، وفي حضور أدهم بك وزيزنيا، وهو تاجر سلاح يوناني. قدم الإنجليز لمحمد علي مشروعهم، الذي صممه المهندس جالوواى **Galloway**. وفي اليوم التالي في منزل سليمان بك يبلغ أدهم بك فورنل بما دار ويضيف أن جالوواى قد تلقى أمرًا بدراسة خط السكة الحديدية من السويس. وحسب نصائح ميمو وزيزنيا وضع فورنل آماله في مناجم سوريا واستعجل القنصل في انتزاع تعيينه. وفي يومي ٢٨ و ٢٩ وبدعوة من الباشا، شارك هو ولامبير، رغم ذلك، في أول جلستين للمجلس الأعلى لمشروع السد. في أول فبراير، كتب كل منهما رأيه حول الموضوع، في اتجاه محبذ لخطة لينان. وفي ٣ فبراير أخيرًا ذهب لينان إلى المجلس. وقرأ التقريرين اللذين كتبهما السان سيمونيان. وبعد المداولة أبلغه رئيس المجلس محمود أفندي أنه مكلف ببناء السد(١٦).

وهكذا تم الاحتفاظ بوعي بالتوازن بين الأمتين الأوروبيتين الكبيرتين: فللإنجليز طريق السكك الحديدية إلى الهند، وللفرنسيين المشاركة في مشروع هيدروليكي كبير.

مع ذلك يجدر بنا أن نتكبد عملية فحص النتائج المترتبة مباشرة على القرار وعلى بنود العقد غير المكتوب الذي تم بين السان سيمونيين ودولة محمد على؛ لأنه فيما وراء الصراع السائد بين فرنسا وإنجلترا، توجد صراعات أخرى أكثرة أهمية ربما من منظور تكوين مصر الحديثة.

إن القرار المبدئي الصادر في ٣ فبراير يحدد بالفعل بداية كفاح مشترك بين لينان والسان سيمونيين لكي يحصل على تطبيقه الإداري. يتعلق الأمر بالنسبة للينان بأن يتم الاعتراف بمسئوليته عبر ترقيته في هيراركية الدولة التى تسمح له بسلطة كافية على معاونيه الأتراك، وبالنسبة لحلفائه أن يحصلوا على وضع رسمي دون أن يتخلوا عن استقلالهم. هذه النقطة الأخيرة تم حلها بطريقة ترضي أنفانتان، بصورة جعلته يرسل دوجيه إلى فرنسا ليجلب باسمه مهندسين وعمالا مع ضمان أنهم سوف يبقون تحت إمرته وسوف يحصلون على أجر.

والملخص الذي أعطاه لدوجيه للاتفاق الذي تم يسمى وسطاء التفاوض ويبين حرص الباشا مهما كان قليلاً على السان سيمونيين:

"قال السيد بوغوص بالنص لأدهم بك إنه يبدو أن الأنسب أن يمنحنا رواتب، لكي يبقي على حريتنا ويكفل استقلالنا، ولن نكتب عقدًا، كما يحدث مع الأوروبيين الآخرين. واعترض أدهم بك، أنه بناء على ندائي، قد يأتي من فرنسا حوالى مائة من المهندسين المتطوعين، فقال السيد بوغوص إنه سوف يفعل نفس الشيء معهم. كما تطرقا إلى موضوع الزي، قال السيد بوغوص بأنه حتى لو تلقوا رواتب فهو لا يرى لماذا يُطلب منا التخلي عن زينا؟ وأن الباشا يترك لنا كل الحرية في هذا الصدد".

تم التوقيع على الاتفاقية النهائية والكاملة بشكل رسمي بواسطة الباشا في ٥ مايو. وتنص، حسب لامبير، على أن "راتب لينان يرتفع من ٤ أكياس إلى ١٠، وأن الباشا يسمح له بأن يحمل وسام كبير مهندسي مصر". ولنفقات السان سيمونيين بوصفهم مهندسين متطوعين - وهي ترجمة حرة للكلمة التركية مسافر أى (مدعو) - يحصل لينان على ثلاثة أكياس إضافية في الشهر[١٨].

ربما لا حاجة بنا إلى أن نشدد على أن محمد علي يقدم دليلاً على تسامح كبير، ولكنه أيضًا يراعي أمواله. من جهة أخرى فورنل، لأنه لا يريد إطلاقًا أن يضحي بقيمته التجارية بوصفه مهندسًا في فرنسا، رفض في وقت مبكر الانخراط في بناء السد، مقررًا أنه ليس قادرًا على أن يقدم مثل هذا الإنكار للذات إلا من أجل المشروع الأكبر، المشروع الأوروبي الذي أعلن عنه بصخب كبير" أي بعبارة أخرى حفر قناة السويس[١٩].

وميمو الذي حصل له على وظيفة مهندس في سوريا، بين له أن الراتب سيكون ١٢٠٠٠ فرنك (أى ٨ أكياس) في حين أن فورنل كان يطلب، بناء على بعض حالات من مواطنيه ذوى المناصب العالية في مصر، أن يحصل كحد أدني على ٢٤٠٠٠ فرنك[٢٠]. من السهل إذن أن نفهم لماذا لم تحقق مهمة الجلب التي كُلف بها دوجيه نتائج مهمة. كان يلزم لخريجي الهندسة العليا تفانٍ نضالي استثنائي أو عطش للمجد لا يهدأ، لكي يترك وطنه في شروط لا تقدم امتيازات كبيرة، وفي مناخ يشاع عنه أنه خطير.

الكلمة البائسة، وإن كانت ليست غير دقيقة، لفورنل حينما وسم القناة بأنها "مشروع أوروبي" تجذب الانتباه إلى استنكاف السان سيمونيين في البدء عن التكيف مع وجهة نظر مصالح مصر. إن مفهومه البالغ الفرنسية عن الكونية لا يتكيف بسهولة مع الأخذ في الاعتبارات المهام الطارئة الخاصة بالتطور المصري. وهكذا فإن أنفانتان، حينما شرح إلى سليمان بك، لماذا قبل الاهتمام بالسد، كان ينقد في نفس الوقت ما بدا له أنه قصر نظر لدى محمد علي :

"لا أرى في السد، رغم أهميته، العمل الصناعي الذي سوف يكون له التأثير المشابه لتأثير معارك الإسكندر الكبرى، أو قيصر أو نابليون : ورغم أن هذا، سوف يحدث يومًا لبعض هذه المعارك المجيدة التي يخوضها الإنسان ضد الطبيعة (...) السد، خطوة أولي، خطوة كبيرة، لكنها ليست حتى الآن على الطريق الكبير للمجد الصناعي، إن لها سمة مفرطة في الأنانية، وطنية أكثر من اللازم، وما كان لنابليون أن يحقق أي انتصار في أوروبا، إذا كانت الشعوب الأوروبية اعتقدت أن نجاحاته لا تهم سوى فرنسا وحدها. (...)"

هل مُقدّر لمحمد علي أن يُنشئ في العالم هذا المجد الكبير للمعارك ضد الطبيعة ؟ لا أعلم بل ولا أعتقد، ولكن ما هو بالنسبة لي أمر يقيني، هو أنه يمهد لمقدمها بصورة أكبر من أي ملك آخر، ولأنه كان لدى هذا الاعتقاد في فرنسا جئت إلى مصر، وبقيت فيها في هذه اللحظة متطوعًا في الجيش الكبير الممهد للمجد السلمي[٢١].

من جانب آخر، كان محمد على، ومجلسه وأدهم بك نفسه الذي أشار أنفانتان إلى أنه أحرز أمام الباشا النصر المزدوج ليوم ٥ مايو"(٢٢) يعتريهم القلق من خطر أن يروا السان سيمونيين يلعبون دور حصان طروادة للغرب داخل الدولة المصرية التي في طور التكوين. يشهد على ذلك إفشاء للسر قاله أدهم بك ونقله شارل لامبير إلى أنفانتان في خطاب في ٢٥ أكتوبر ١٨٣٤، يشير لامبير إلى أن البك اعترف بأنه قد تلقى توبيخًا لأنه حابى أصدقاءه الفرنسيين، وأنه ما زال تركيًا في جوهره:

"عبّر الباشا ومجلسه بصورة شبه علنية عن ميلهم إلى إبعاد أوروبا عن البلد، فمنذ خمسة عشر يومًا، أعلن الباشا أمام كل الديوان، وبنبرة غير راضية: بالرغم من ذلك نحن ندين لأدهم بك بوجود لينان والأوروبيين الآخرين في السد، بدون ذلك، فإن العرب هم الذين يحوزون الشرف. قال أدهم بك بحماس نعم، نعم، يظل الباشا دائمًا تركيًا"(٢٣).

***

تأنيب الضمير المازوكي لأدهم بك والندم العابر لمحمد علي أمام السمة الأوروبية التي اتخذها مشروعه للسد على النيل يبدوان وكأنهما تعبير ذاتي عن تناقض، بين مستوى التطور الذي وصلت إليه البلد في التحكم في جغرافية المياه بها مع المناهج التجريبية التركية من جانب، وبين ضرورة اللجوء وبشكل مؤقت، من أجل الوصول إلى مرحلة أرقى، إلى التكنولوجيا الأجنبية. الأسلوب التطوعي الذي نجح في حفر ترعة المحمودية مع بعض العيوب في التصميم التى لم يتوان لينانَ عن التصريح بها، لا يمكن تطبيقه على عملية يقف أمامها علم أفضل علماء الهيدروليكا في ذلك الوقت عاجزًا إلى حد ما. ولسبب بديهي: لا حاجة للتذكير بأنه لا يوجد أي نهر أوروبي بمثل أبعاد النيل وخصائصه.

على الرغم من أن السان سيمونيين من جانبهم، يبدو أنهم لم يقدّروا بشكل كافٍ عدم توافق تكوينهم كمهندسين فرنسيين مع الشروط الخاصة لمصر، فقد دخلوا في منطق الحاجات الملحة للبلد متخلين مؤقتًا عن القناة بين البحرين. إن صليبيي المسيحية الجديدة يتحركون كأنهم متعاونون من نوع جديد. ولأنه لا مصلحة لهم سوى مجد مذهبهم، فقد قبلوا بافتتاح الصعوبات في أول مشروع كبير وحقيقي في مصر الحديثة، رغم ذلك، فإن الخليط من الكبرياء التركي والوعي القومي العربي الوليد الذي يميل إلى رفضهم يبين الطريق الذي ما زال عليهم أن يقطعوه لاكتساب ثقة مضيفيهم وإقناعهم بأهمية أن يتبنوا مشروعاتهم دون أن يغيروا ثقافتهم.

الهوامش

(١) لتجميع هذه الوقائع والتحقق مما لم ينشر فيها، ضاهينا معلومات متفرقة تم تجميعها من مصادر عدة هي :
Voyage d'Orient d'Urbain (Fonds Eichthal de l'Arsenal, Ms. 13.736), *Mission d'Orient* de Cayol ,l5--,-Ms'7.647), récit de Cognat (Fonds Eichthal de l'Arsenal,, Ms. 14.697),- état civil du Consulat d'Alexandrie (Ministère des Affaires Etrangères

(2) Lettre de Cayol à Petit et Rochelle, avril 1833, F.E., Ms- 7.647, f° 46 v0.

(3) *Mission d'Orient* de Cayol, ibid., f° 80 r°.

(4) Ibid., ft. 80, 86, 11-12. Mêmes textes dans le même fonds sous la cote Ms. 7.624/33-36. Pour les correctifs apportés par Barrault, voir *Voyage d'Orient* d'Urbain (Fonds Eichthal de ['Arsenal, Ms. 13.736, p. 19) et lettre de Barrault à Enfantin du 31 mai 1833 (F.E., Ms. 7.647, f° 131 v°).

(5) Voir *Livre des Actes,* p. 204.

(٦) الكتابة الأكثر شيوعًا للاسم هي."Hattein". Nous retenons pour ومن جانبنا نلتزم بالكتابة التى كان يستخدمها أدهم بك نفسه في مراسلاته الفرنسية.

(7) Ibid.. p. 205.

(8) Voir lettre de Duguet aux "capitaines" [Hoart et Bruneau], 9 mai 1834, F.E., Ms. 7.718/44.

(9) Lettre de Fournel à Enfantin, 25 octobre 1833, F.E., Ms. 7.614 f° 6 r°.

a. لم تكن مصر حينئذٍ إلا ولاية تابعة للدولة العثمانية، ولم تكن فرنسا ممثلة فيها إلا على المستوى القنصلي

(10) Lettre de Fournel à Enfantin, F.E., Ms. 7.619, f° 18.

(11) علاوة على صعوبة البدايات كان فورنل ينتظر زوجته سيسيل. Voir même référence que supra note 8.

(12) Lettre de Fournel à Enfantin, F.E., Ms 7.619, f° 54 r°.

(13) Op. cit.. F-E., Ms- 7.828/11, f° lv°.

(14) Même référence qu'en n. 12, f°. 54 v°.

(15) Annexe au Journal de Fournel, F.E., Ms "7.828/11, f° 3.

الاستراتيجية الشخصية لفورنل والموجهة لمعادن سوريا والسكك الحديدية يمكن تفسيرها بتخصصه (مهندس مناجم، متردد في الخوض في الهيدروليكا) وبوضعه العائلي (سيسيل تستعجل عودته والتهدئة من النضال)، وبنصيحة ميمو (فالقنصل يقيس كما يبدو تأثيره بعدد وجودة من ينجح في تعيينهم). حاول فورنل بعد ذلك أن يدعم أطروحة الجهود المستميتة لصالح القناة.

La Phalange dans le numéro du 11 septembre 1840, انظر رسالته لمحرر جريدة
les Œuvres de Saint-Simon et d'Enfantin, t. IX, pp. 197-98). والهامش الذى كتبه
(Charlety. d'Allemagne, etc.)

وغيرهم من مؤرخي السان سيمونية انساقوا وأثروا على غيرهم من العقول التي تتساءل بخصوص حجج الرفض المزعوم من قبل محمد علي في هذه الفترة، فيما يبدو أن فورنل أراد أن يخفي فشله وينضم لصفوف المدافعين عن القناة.

(16) Op. cit n. 13, f° 2 v°. نفس المرجع السالف الذكر

(17) Lettre & Petit et à Duguet, F.E., Ms. 7.618. f° 36 v°.

(18) Lettre à Duguet et à Petit, 11 mai 1834, F.E.. Ms. 7.618, f° 41 r°.

(19) Lettre à Enfantin du 29 mars 1834. F.E., Ms 7.619, f° 64 r°.

(20) Lettre du 25 mai 1834, Archives des Affaires Etrangères, Correspondance politique des consuls, Egypte, vol. 4, p. 131.

(21) Lettre du 17 mai 1834, FE. Ms. 7.618, f° 42 r° et v°.

(22) n. 18, f° 41 r°. نفس المرجع السالف الذكر.

(23) Lambert A Enfantin, 25 décembre 1834, F.E., Ms- 7.739/28.

فيما يبدو أنه كان هناك مشروع منافس للسد لدى "المهندسين العرب"، ولكن في حدود علمنا لا يوجد أي مؤرخ أشار إلى ذلك. أنفانتان يشير إليه تلميحًا حينما يصرح أن عيبه أنه كان منخفضًا جدًا بالنسبة لمجرى النيل.

(lettre à Duguet et à Petit, F.E., Ms. 7.619, f0 68 r°).

محمد على

Méhémet-Ali و Mohammeol-Aly

هاتان الصورتان للحاكم نفسه، تقدمانه تحت اسميه المختلفين ويرتدي حلتين مختلفتين ترمزان لفترتين مختلفتين، تشيران إلى صورة مزدوجة، تقليدية وحديثة، تركية ومصرية، أراد الوالي أن يعطيها لنفسه، في مظهره الأول، يضع العمامة وكتابة الاسم نقلاً عن التركية **Méhémet-Ali**، النسخة الثانية تعينه على العكس في الشكل العربي لهويته وتقدمه في الحلة التي أقرها لنفسه، وصُنعت في مصر بمنتجات مصرية - وهي بدلة النظام الجديد التي أعلنت في ١٨١٥.

ويرى كلوت بك أن الملبس الجديد هو تأليف حذر من بدلة قديمة، من بدلة ألبانية ومقدونية ومن البدلة الإفرنجية، وحسب رأيه هذا الحل يأخذ في الحسبان درس الخبرة التعيسة لفرض الموضة الأوروبية من قبل السلطان على رعاياه. ويعلق الطبيب: "الاختلاف في الأزياء ولا سيما حينما تكون، كما هو الحال بالنسبة للمسلمين، رمزًا لتقاليد دينية قومية، ينشئ بين الشعوب حواجز لا يمكن اجتيازها ويستحسن تقويضها". لا عزاء للفنانين الذين تحسروا بلا شك على ما كان من مظاهر العظمة والشاعرية، في العمامة والأثواب الفضفاضة والأحزمة الثرية![١].

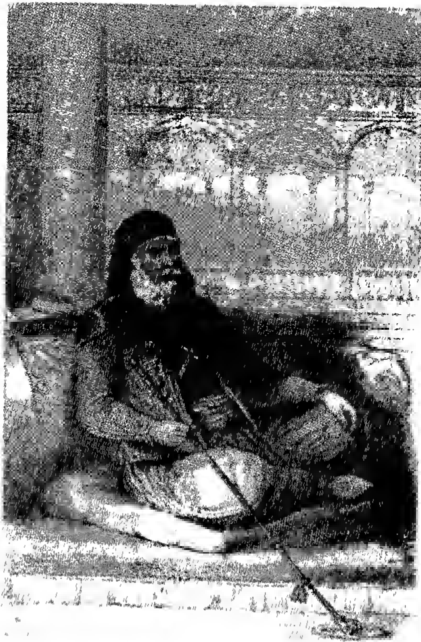
وعلى عكس الأساطير التي روجها محمد علي عن نفسه، ولد في قوله (في مقدونيا في الجزء الغربي من روميلي السابقة). لم يولد في عام ١٧٦٩ مثل نابليون وويلنجتون، ولكن الاحتمال الأكبر أنه ولد بعد ذلك بأشهر عام ١٧٧٠، كما أنه لم يعرف اليتم مبكرًا. أبوه وجده وأبو جده كانوا عسكريين من رتب متوسطة. بدأ تعلم تجارة التبغ احتذاء بأبيه، وتعلم الحرب بواسطة خبرة القتال ضد القراصنة في بحر إيجة، وأُرسل إلى مصر لمقاتلة حملة بونابرت. وكان قائدًا للكتيبة الألبانية، كان له من الحصافة أن أبقى نفسه دائمًا في المرتبة الثانية تاركًا المماليك والولاة الذين أرسلهم ضده الباب العالي يستنفدون أنفسهم بالتبادل في نزاعات معاركهم.



Méhémet-Ali

رسم بالعمامة لجاكوب يزين كتاب لمحة عامة عن مصر لكلوت بك

(Paris, 1840) 0.21 × 0.13



Mohammad Aly Pacha

رسم لفنان مجهول يزين المجلد الخاص بمصر الحديثة فى مجموعة

L'Univers (Paris, 1848), par MM. P. (Prisse) et H. (Hamont)

وقد حصل على ثمار صبره في يونيه ١٨٠٥ بعد أن طرد من القاهرة المماليك والوالي المكروه خورشيد باشا بمساعدة الألبان وعلماء الدين. وصدر حينئذٍ فرمان ينصبه واليًا على مصر.

وبمساندة قنصل فرنسا دروفيتي استطاع أن يرد في ١٨٠٧ غزوة عسكرية إنجليزية لصالح المماليك، ويسحق قوة هؤلاء المماليك في أول مارس ١٨١١ بعد أن قضى عليهم جميعًا أثناء حفل دعاهم إليه. هذه المجزرة الشهيرة التي صورتها لوحة للفنان هوراس فيرنيه **Horace Vernet**، وضعت بصورة جذرية نهاية للاضطرابات التي كانت تعكر صفو البلاد. ولقد أعلى محمد علي من قيمة مصر عندما مد سيادته على شبه الجزيرة العربية والشام على حساب الباب العالي، إلى درجة أن دخول مصر تضاعفت منذ عام ١٨١٦.

ومع أن كلوت بك، وهو بوق الدعاية الرسمي له في فرنسا، يعترف بأن محمد علي غالبًا ما ضحى "بمشاعره الإنسانية" من أجل طموحه في البقاء على السلطة، وإن كان يقدر أنه ما إن "تستقر سلطته بصلابة، فإن فكر هذا الرجل العبقري يتجه بالتأكيد إلى تخفيض الضرائب وتحسين ظروف الفلاح"(٢). ولكن، إذا كان مؤلفو كتاب مصر الحديثة **l'Egypte moderne** يعترفون هم أيضًا أن بطل كلوت بك، "رجل عظيم"، نشط وشجاع وماكر ومحب للاستطلاع ومتسامح مع الأجانب بل حتى "محب للأجانب" ، فإنهم يحرصون على الإشارة إلى أن الفلاحين كانوا يطلقون عليه ظالم باشا، ويقدمون كشف حساب أسود لفترة حكمه.

"لقد خلق محاربين انتصروا على الوهابيين والعثمانيين وأعد بحارة وبنائين وعمالاً، وأقام ترسانات ومصانع ومدارس، ولكن هل الفلاح اليوم أكثر نظافة، أفضل تغذية، أحسن أخلاقًا، وأكثر تعليمًا؟ لا شيء تم احترامه: إرث المماليك والمساجد والأوقاف والملكيات الخاصة اغتصبها جميعًا بلا تمييز. ولأنه السيد المطلق على وادي النيل الخصيب فقد عدل الزراعة، وأدار الملاحة بهدف وحيد هو تنمية موارده الخاصة. وأضاف إلى حيازة الأراضي احتكار الصناعة والتجارة، وأصبح هو المالك الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد، ولم يخرج من هذه السلطة سوى مجد شخصي ولم يستق منها أي إجراءات كبرى وفعالة ضد بؤس شعبه وجهله(٣).

ألم يكن نابليون، الذي كان يحلو لمحمد علي أن يقارن نفسه به، يُسمى بـــ "الغول" ؟



هنري فورنل

لوحة Cals نقلاً عن Decaisne,

0, 28 X 0, 18 Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal.

هنري فورنل

ماري، جيروم، هنري فورنل (١٨٧٦-١٧٩٩)، في الصورة هنا بزي منلمونتان، خريج دفعة ١٨١٧ من مدرسة الهندسة العليا.

هذا الرسم بالقلم الرصاص كان يستخدم كواجهة لملف المناقشات عن قضية الجنح الخاصة بالسان سيمونيين في ١٥ أكتوبر ٨٣٢ (٤). وتوجد نسخة من هذه الصورة في شكل لوحة زيتية منسوبة إلى ليون كونييه **Léon Cogniet** (٥).

ويلاحظ شارل لامبير أن فورنل كان هو الوحيد بيننا نحن (السان سيمونيين في مصر) الذي سبق له ممارسة واسعة في الحياة كمهندس (٦). وبناء عليه، فبعد دراساته في المدرسة التطبيقية (المناجم) أدار لمدة ٤ أعوام مصنع بروسفال (في أعالي نهر المارن) ثم مسابك كروزو، وكان مجمعًا صناعيًّا من أهم المجمعات في ذلك الوقت.

واعتنق السان سيمونية منذ ١٨٢٨، واستقال من إدارة المسابك في ٢٥ فبراير ١٨٣١ لكي يضع ثروته وكفاءاته تحت تصرف رؤساء المذهب. وكان عضوًا في الكوليج وهو أعلى سلطة في الكنيسة السان سيمونية، وعبر فيه عن عدم موافقته على المذهب الأخلاقي لأنفانتان ولكنه قَبِل التكليف بأن يكون أمين الصندوق وشارك في خلوة منلمونتان . وأثناء حبس أنفانتان في سانت بيلاجي، تكفل بكل المهام من أجل خدمته.

وزوجته سيسيل لاريو Cécile Larrieu، بنت مستشار للبلاط الملكي في باريس وإحدى قيادات النساء السان سيمونيات. مؤسسة Livres des Actes وهي نشرة دورية تتضمن "أعمال" حواريي المسيحية الجديدة، وقد تركت الإشراف على هذه النشرة لمارى تالون Marie Talon في أكتوبر ١٨٣٣ وانفصلت بصعوبة عن ابنتها الصغيرة لتلحق بزوجها في مصر. وغادرت في نهاية الشهر بصحبة كلوريند روجيه، بعد عقد اجتماع عام في طولون وأدهشت المستمعين لتفانيها في خدمة "قضية النساء والشعب".

وعند عودة الزوجين إلى فرنسا في مايو ١٨٣٤، تحرر فورنل من وصاية أنفانتان من خلال قطيعة علنية. ولكن الرجلين التقيا مرة ثانية في ١٨٤٥ في مشروع لاستغلال مناجم الحديد في بريفاس بإقليم الأرديش بفرنسا.

وسيكون فورنل عضوًا في المجلس الذي شكله أنفانتان من أجل تنفيذ وصيته. وكان فورنل كبير مهندسي المناجم في الجزائر، وعين مفتشًا عامًّا على المناجم في ١٨٥٩، كما ألف أيضًا كتابين عن الجزائر: الثروة المعدنية في الجزائر Richesse minérale de l'Algérie (١٨٥٠)، والبربر، دراسة في غزو إفريقيا بواسطة العرب Les Berbers, étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes (١٨٧٥)[٧].



شارل دوجيه، بورتريه بالقلم الرصاص بتاريخ ٢٢ فبراير ١٨٣٤
0, 20 X 0, 27 Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal.

شارل دوجيه

ولد في ٢٩ إبريل ١٧٩٩، زميل مدرسة للامبير في الشمال، ومحامٍ وسان سيموني منذ ١٨٢٩.

كان مبشرًا في بلجيكا وشارك في خلوة منلمونتان ، مظهرًا تفانيًا مطلقًا من أجل أنفانتان. ولهذا كلفه الأب بترتيب قدومه إلى الإسكندرية. وبعد اعتزال فورنل رجع إلى فرنسا لكي يقلل من الآثار الضارة الناجمة عن هذا الخبر ويجلب مهندسين وعمالاً لبناء قناطر النيل.

بعد عودته من إقامته في مصر، عمل دوجيه موظفًا في وزارة الأشغال العمومية، وكان في عهد الإمبراطورية الثانية مديرًا في فوزيل بإقليم آندر لأراضٍ تخص جماعة، نصف سان سيمونية ونصف زمرية **phalanstérienne** تمولها مدام بتي **Petit** (أم أليكسيس بتي، من أكبر ممولات الحركة السان سيمونية) [٨].



الجنرال سليمان (هكذا) رسم بورتريه يزين كتاب – Aimé Vingtrinier , Suliman-pacha – colonel sève généralissime des armées égyptiennes (Paris, 1886), 0,15 x 0,12

سليمان باشا :

سليمان باشا يرتدي زي النظام، ويحمل على الجهة الشمال علامة رتبته المصرية كجنرال لفريق (مير ميران) وعلى اليمين وسام الشرف الذي كان من أهم الحائزين عليه.

ولد عام ١٧٨٨، ابنًا لـــ "قصاص ملايات". وكان اسمه وهو في البحرية جوزيف سيف ولكنه غيره إلى انتلم سيف في ١٨٠٧ لكي يفلت من عواقب فعل فيه خروج عن الانضباط. وبهويته المزيفة وبحماية الكونت دو سيجور الذي أنقذ سيف حياته، انخرط في سلاح الفروسية، وشارك في حملات إيطاليا وروسيا. وكان معتدًّا بشخصيته لا يقبل التبعية، ولم يحصل على المكافآت التي تليق بشجاعته وجروحه. وتم تسريحه

عام ١٨١٤ بعد هزيمة نابليون وكان وقتها مجرد ملازم في سلاح الفرسان. وكان ضالعًا في مؤامرة لإنقاذ المارشال ني Ney بعد المائة يوم، ولقي حظًا سيئًا في تجارته في خيول الجر.

فسافر إلى إيطاليا ليهرب من دائنيه، ومن هناك غادر إلى مصر مع خطاب توصية من الكونت دو سيجور.

ولقد تبنى سيف لنفسه لقب "كولونيل" وانخرط مهندسًا في خدمة محمد علي. وأُرسل إلى الصعيد، كذلك سيكون حال لامبير في المهمة المستحيلة وهي البحث عن مناجم للفحم. ولكنه في الواقع عاد إلى الباشا ببترول جبل الزيت الذي قدمه للباشا بوصفه مصدرًا كبيرًا للإنارة. ولأن الاختبار كان مرضيًا فقد كلفه الباشا بتعليم الضباط المماليك على الطريقة الأوروبية، في القاهرة أولاً ثم في أسوان، حتى يقطع الطريق على التذمر الذي حدث بسبب هذا الإصلاح. وتوجد حكاية في هذا الصدد تمثل جزءًا من أسطورة "الكولونيل". في يوم ما كان يشرف على تمرين معين، فسمع صوت رصاصة يرن في أذنيه، وفي تحدٍّ لمحاولة الاغتيال، أعاد بدء التمرين واضعًا نفسه في مواجهة بنادقهم، وهذا التحدى الجريء جعله يحظي بتقدير ضباطه المماليك.

منذ ١٨٢٢ إلى ١٨٢٤ تم تكوين ست كتائب نظامية في أسوان، بالتعاون مع ضباط آخرين تم استدعاؤهم من فرنسا أثناء ذلك (الجنرال بوييه Boyer، والكولونيل جودان Godin) كانت الفرق مكونة أولاً من زنوج كردفان وسنار، صاروا عبيدًا بواسطة إسماعيل باشا. بعد ذلك لم يتحمل هؤلاء الجنود المناخ، فاضطر محمد علي إلى التجديد الأساسي، انقلاب حقيقي (كلوت بك) (٩)، فوضع محلهم فلاحين تم تجنيدهم بالقوة.

وحينما وصل سيف إلى رئاسة إحدى هذه الفرق بوصفه كولونيل (أميرالاي) اعتنق الإسلام وشارك في قمع تمرد شعبي في الصعيد متأثر بالوهابية، ثم بأوامر من إبراهيم باشا شارك في الحرب ضد اليونان وفي فتح الشام (١٨٣١ – ١٨٣٣). أثناء هذه العملية أبرز سليمان قدرات تكتيكية رفعته بسرعة إلى لقب باشا وجنرال. ويعزو إليه كاتب سيرته إيمي فانترينييه Aimé Vingtrinier فضل المناورات المنتصرة في معركة نصيبين (٢٤ يونيه ١٨٣٩) حيث سحق الجيش المصري الأتراك.

ولكن الكاتب نفسه، المنشغل تمامًا بالمهنة العسكرية لبطله، أهمل تمامًا عمله الإداري، ويجهل علاقاته في هذا المجال بمتعاونين فرنسيين آخرين ولا سيما السان سيمونيين. مات سليمان باشا في القاهرة عام ١٨٦٠ وترك في مصر نسلاً متصلاً بالعائلة المالكة التي أسسها محمد علي.

إبراهيم باشا :

الابن البكر لمحمد على، ولد عام ١٧٨٩، ووصل إلى القاهرة عام ١٨٠٥، وعلى عكس أبيه الذي يتمسك بالحكم المس[illegible] عن التفوق التركي، كان إبراهيم يؤكد أنه مصري وتعلم العربية وتكلمها.

وكان منادياً صلبًا لتمصير الجيش وأوربته، فالتغييران يسيران مقترنين – ولقد قدم تأييده العلني والشخصي لسليمان باشا في تدريب المشاة. وبعد حرب المورة أعطى أوامره بتشكيل سلاح فرسان نظامي. وكان إنشاء مدرسة الجيزة تلبية لهذا الغرض.



إبراهيم باشا، القائد الأعلى للجيش المصري، ١٨٤٠،
لوحة لبلاتل Pattel 0,30 x 0, 40
Bibliothèque de l'Arsenal, Estampes 1175 f° 38

وكان إبراهيم باشا قائدًا نشيطًا قريبًا من جنوده وقادرًا على جذب رجاله إلى القتال من خلال تقديم القدوة. لم يتلقَّ إعدادًا خاصًّا ولكنه كان يحيط نفسه بضباط أكفاء كمستشارين، وظهر كرجل تكتيك بارع.

ولذا تم تكليفه بقيادة قمع الوهابيين، ثم بعد ذلك اليونانيين وفتح الشام. وقد مهر بتوقيعه أغلب الانتصارات الكبرى على العثمانيين.

ووجد نفسه مرتين في موقف لغزو تركيا والحصول بقوة السلاح على الاعتراف بمصر وبفتوحاتها كملكيات مستقله وقابلة للتوريث لمحمد علي. ولكن بعد انتصار قونية (٢٠ ديسمبر ١٨٣٢) فإن إنجلترا وفرنسا، لتجنب خضوع السلطان لحليفه الروسي، أجبرتا الوالي على الاكتفاء بتخصيص سيادة لا تقبل التغيير له على مصر، وفلسطين والشام (معاهدة قونية). وبنفس الطريقة بعد انتصار نصيبين، اتفقت القوى الأوروبية، باستثناء فرنسا المعزولة دبلوماسيًّا، على إجبار جيش إبراهيم على الجلاء من كل الأراضي المفتوحة تقريبًا.

وبصعوبة شديدة تمكنت الوساطة الفرنسية من تجنب تدخل عسكري إنجليزي. وقد تُجووزت الأزمة الدولية في نوفمبر ١٨٤٠ بالاعتراف بحق الباشا في الحكم الوراثي على مصر (وأُرفق بها السودان فقط). وانهار الحلم بإمبراطورية عربية، مع تعويض بتقدم حاسم باتجاه الاستقلال.

كان إبراهيم باشا ذا شخصية عنيفة وملمح قاسٍ، ويشاع عنه عدم احترام لحياة البشر، وأثبت كفاءات إدارية كبرى في إدارة ملكياته الواسعة ولا سيما في الشام. وخبرته في السلطة بالمشاركة الوثيقة مع أبيه وارتباطه الحميم بمصر جعلا موضعًا للأمل بأن يستكمل العمل الذي بدأ منذ ١٨٠٥. ولكن ضعف صحته بسبب مرض السل جعله يشرع في رحلة إلى أوروبا في عامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ وقد أراد الاستفادة منها في الاستعلام تفصيلاً عن المؤسسات الأوروبية وأحدث التجديدات الصناعية.

وعند عودته، ولأن محمد علي قد غرق في الشيخوخة، تولى إبراهيم السلطة وحصل على موافقة إسطنبول. وأطلق حينذاك أكثر من مشروع للإصلاح ولا سيما في التعليم العام مع لامبير.

ولكن وفاته في ٩ نوفمبر ١٨٤٨ والتي أعقبتها وفاة محمد علي في ٢ أغسطس ١٨٤٩ تركت الحكم لعباس باشا، وكان بطل المعارضين لسياسة الأب والابن.

الهوامش

(1) Aperçu..., t. I, pp. 295 - 97.

(٢) مادة عن محمد على فى .la Biographie Universelle de Michaud

(3) *Op. cit.*, pp. 30-31.

(٤) نصوص منشورة تحت عنوان .Procès

(5) Reproduit in Charléty, *Histoire du saint-simonisme*, éd. Paris, Hartmann, 1931, hors pagination (vers p. 372).

(6) Lettre du 25 juillet 1834, F.E. Ms. 7.739/71.

(7) Sources : *Larousse du XIX° siécle*, article "Fournel", *Procès*, F.E., Ms. 7.631/37 et 7.678/26 ; *Livre des Actes*. p. 119.

(8) Sources : Procès, pp. 44 et 301 ; F.E., Ms. 7670/89 ; Fonds A. Petit. (Bibl. de l'Arsenal), Ms. 15031/420 أوراق دوجيه Duguet محفوظة في à la Bibliothèque Municipal d'Avignon.

(9) note 2. نفس المرجع السالف الذكر

الفصل الرابع

الأهداف الكبرى لنشاط
السان سيمونيين في مصر
من عام ١٨٣٤ إلى عام ١٨٣٧

"هذا البلد لا يزال بكرًا، يجب أن نبدأ فيه كل شيء من جديد، بحيث نساعد على إحيائه بشكل سريع. ستقشعر أبدانكم، بلا شك، عند رؤية تخلف هذا الشعب وبؤسه وفساده، لكن في الوقت نفسه ستطمئن قلوبكم، عند إدراك أنه لم تعد هناك، فيما يبدو، سوى خطوة واحدة لتحسين الأخلاق والفكر والحالة المادية لهذا الشعب الجميل المفعم بالحيوية. قائده قوي، يتطلع إلى المجد، وهناك حقل غني أبوابه مفتوحة على مصراعيها أمامه، وساعداه تمتلكان القوة الكافية لحصاد محصوله. ليس هناك سوى مشروع قناة السويس، سيذهل العالم ويستحوذ على إعجابه. فهذا البلد متعطش لجميع أنواع الأنشطة ويستحق كل الإخلاص والتعاون".

(رسالة سان سيمونية مجهولة بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٨٣٣ ضمن " Liure des Actes")

عندما قام محمد علي بتكليف باشمهندس الوجه القبلي، لينان دي بلفون بتنفيذ مشروعه الطموح بإنشاء قناطر على النيل، كان هذا إيذانًا بانطلاق أكبر تحدٍّ تميز به حكم هذا الوالي في المجال السلمي. ففضلاً على صعوبة إقامة هذا المشروع، غير المسبوق، من الناحية التقنية، حتى في أوروبا، غامر محمد علي باللجوء إلى الأجانب الأكفاء بالطبع، لكن الذين طردتهم بلادهم بسبب الجرأة الفاضحة لأفكارهم عن المستقبل .

ولكي نستطيع الحكم على هذه التجربة الفريدة، يتعين علينا عدم التوقف فقط عند النتائج، أو على الأقل النتائج المباشرة والفورية؛ لأن مشروع إنشاء قناطر على الدلتا، كما نعرف، لم يتمه المهندسون الأوائل الذين قاموا بتصميمه.

بيد أنه إذا كان الأمر يتطلب عناء التوقف عند هذا المشروع الذي لم يكتمل في عام ١٨٣٤-١٨٣٧، فهذا ليس لأنه لم ينجز فيه تجميع مواد البناء فحسب، بل لأنه تميز بطريقة وأسلوب جديد في التصميم الهندسي والتنفيذ كان من شأنه، طبقًا لفكر مبتكريه، أن يؤسس قاعدة اجتماعية للعمل الصناعي في مصر.

ومن ناحية أخرى، استند السان سيمونيون على المسئوليات التي كلفوا بها في هذا المشروع العملاق، ليقدموا، في الوقت نفسه، معونتهم في تأسيس نظام للتعليم العام مستوحى من النموذج الفرنسي.

* * *

يعزو كلوت بك في كتابه "لمحة عامة عن مصر "Aperçu général sur L ´Egypte إلى نابليون فضل فكرة "إنشاء سدود على فرعي دمياط ورشيد عند بطن البقرة، بواسطة هذه السدود سيسمح لكل مياه النيل بالسريان شرقا وغربا، فتضاعف مياه الفيضان، ويفترض كلوت بك أن المهندسين الفرنسيين، الذين كانوا في خدمة محمد علي آنذاك قد أطلعوه على الأمر"[١]. لكن دون إنكار لهذا الرأي، فإن لينان دي بلفون قد أشار إلى أن محمد علي كان في مخيلته فقط إنشاء «سد كبير» بهدف «نقل المياه إلى فرع دمياط»[٢].

وسواء كان هذا الرأي أو ذاك هو الصحيح، فقد كانت السياسة الهيدروليكية للوالى والموجودة من قبل والتى ترمي، إلى تحويل جزء من مياه النيل إلى فرع دمياط بسبب ضعف حصته من المياه أكثر قابلية للتنفيذ. وقد كان هدف هذا المشروع هو من جانب توفير حصة أكبر من مياه الري لشرق الدلتا ووسطها اللذين يعتمدان على فرع دمياط في الري، ومن جانب آخر هو جعل فرع دمياط صالحًا للملاحة طوال العام.

وقد كان مقررًا شق ثلاثة رياحات كبرى؛ للاستفادة بشكل أمثل من هذا المشروع، وكان أكثر هذه الرياحات الثلاثة أهمية هو الرياح فى الوسط الذي يغذي جميع الترع القديمة المتفرعة من النيل مباشرة. أما الرياحان الآخران، فقد كان مقررًا شقهما، الأول على الجانب الغربي من فرع دمياط، والثاني على الجانب الشرقي لفرع رشيد[٣].

وفيما وراء الإنجاز التقنى، فإن ما كان يسترعي مباشرة اهتمام السان سيمونيين هو المشكلة الاجتماعية.

فقد كان الباشا لا يرى أي غضاضة في أن يجمع قسرًا، كل عام حوالي ٢٥ ألف نفر للقيام بأعمال الحفر، إلا أن تجربة حفر ترعة المحمودية المريرة والشهيرة كانت حاضرة دائمًا في الأذهان، لأنه في أثنائها لقي ما بين ١٥ إلى ٢٠ ألف عامل مصرعهم من بين إجمالي عمال المشروع، وهو ٣٠ ألف عامل طبقًا لما ورد إلى سمع أنفانتان؛ أو أكثر من ٢٠ ألفًا من إجمالي ٢٠٠ ألف طبقًا للتقديرات التي نقلتها سوزان فوالكان[٤]. إن التضارب في أعداد القتلى فضلاً عن الأعداد الهائلة التي لا حصر لها، لمن تم تسخيرهم بلا رحمة في هذا المشروع، والمذابح الناتجة عن الأعمال القسرية الخاصة بأعمال الحفر، تخطت، في الواقع، حدود الذهن الغربى فى هذا المضمار.

وقد بدأ بروسبير أنفانتان بمحاولة إقناع مراسليه في فرنسا بأن وعد محمد علي باشا بجمع أربعين ألف عامل لهذا المشروع ليس ضربًا من الخيال. ثم أكد على وجه الخصوص، أن الشعار السان سيمونى وهو "التحسين البدنى والأخلاقى والعقلى للطبقة الأكثر فقرًا وكثافة " سيبدأ تنفيذه في مصر:

"بفضل الحماس الإنساني، بل أستطيع أن أقول الديني، الذي يحمله أدهم بك لهذه المسألة، آمل أن يتم اتخاذ تدابير أفضل مما هو معتاد فيما يتعلق بصحة العمال. فعلى غير العادة، تقرر إنشاء أكواخ لمبيت العمال وإعطاؤهم حُصرًا. كما أننا ندعم وسندعم دائمًا، هو ونحن التغذية الجيدة للعمال، ونحن قادرون على القيام بهذه المهمة. كما سيتم تكليف أربعة أو خمسة أطباء لمرافقة العمال، الأمر الذي لم يتحقق حتى الآن"(٥).

كما يروي لينان دي بلفون أنه نظرًا لكونه مدير موقع العمل، فقد حرص بنفسه، من أجل إطعام أول فوج من الفلاحين وضعوا تحت تصرفه وهو ١٢٠٠ فلاح، على مصادرة بعض السفن المحملة بالقمح وإنشاء ثكنات بالطوب النيء، وإقامة مشفى ووحدة خدمات طبية(٦).

ولكن يجدر إضفاء النسبية على هذا الشعور بالرضا عن النفس، من قبل البك دائما في مذكراته التي يستشهد بها كثيرًا المؤرخون، والتي كتبت بأسلوب حروب الغال لقيصر باستخدام ضمير الغائب، من أجل تحقيق أكبر قدر من المجد لصاحبها.

ويساعد أرشيف مكتبة الأرسنال في فرنسا على إدراك الحقيقة عن قرب، وعلى إعادة تشكيل قاعدة هذا التوحد الحميم(٧) بين السان سيمونيين ولينان دي بلفون، أي أيدلوجيتهم المشتركة.

في مذكرة مطولة كتبها أنفانتان للمجلس في شهر أغسطس من عام ١٨٣٤م، نلاحظ أنه لم يلجأ، في عرض حجته، لإثارة الشفقة. فهو يفضل التفكير من منطلق الفاعلية ولأنه، باعتباره رجل اقتصاد، يعلم جيدًا أن هذه اللغة هي الأقرب للتصديق. بيد أنه فى ثنايا حيادية أقواله، نقرأ نقدًا لاذعًا لأسلوب العمل التقليدي الذي كان سائدًا في مصر، والذى كان فى منزلة وسطى بين العبودية والإقطاع على الطريقة الأوروبية.

يبدأ أنفانتان مذكرته بتقرير واقع دون تجميل قائلاً: "الاثنا عشر ألفًا الأوائل من الأنفار الذين تم طلبهم لبدء أعمال وضع أساسات القنطرتين، وصلوا تباعًا على مدار شهرين". وكان أكثرهم من "المسنين والأطفال". ولكي يتم نقل تراب الحفر، لم يكن لديهم سوى القفف. وإذا كانوا قد حصلوا، فيما بعد، على عدد قليل من العربات النقالة، إلا أنهم لم يكونوا معتادين على استخدامها، بل لم يمنحوا الوقت للتأقلم عليها، فقد كان يتم إحلالهم بغيرهم كل شهر. وفضلاً عن ذلك، نظرًا لنقص الخبز ونقص الحمرة اللازمة لإقامة الأفران ونقص أخشاب التدفئة، تضاعف عدد الفارين من المشروع (حوالي ٤ آلاف من القنطرة الشرقية)، وكانت تنشب في كثير من الأحيان معارك حقيقية بين العمال الفارين وحراسهم.

ويلاحظ أنفانتان أن تقدم أعمال الإنشاء سيتطلب المزيد من "العمال المدربين"، أي عمالاً منظمين ومدربين على استخدام الجرافات والرافعات والحفارات وآلات التفريغ ... إلخ.

وقد قام أنفانتان بعرض مجموعة من التدابير على المجلس، التي رأى أنها قد تحقق النتائج الأساسية التالية:

"**أولاً**: تجنب لجوء عدد كبير من السكان، في المستقبل، من أجل الهرب من التجنيد، إلى إحداث عاهة بأجسادهم، **ثانيًا**: إنشاء ديوان، في مصر، يتكون من عمال مهرة لديهم القدرة على تقديم خدمات كبيرة بأقل تكلفة على الدولة وبأقل إرهاق للأقاليم مقارنة بما تتطلبه الأشغال العمومية اليوم، **ثالثًا**: التصدي لاتجاه العمال للفرار من المشروع بمعاملتهم بطريقة أفضل، ومراقبتهم بشكل أيسر وتنظيمهم باتباع أسلوب أكثر حزمًا".

وفيما يلي ملخص الخطة المقترحة:

الإجراء الأول، كما يعرضه الأب أنفانتان، يتطلب في المستقبل عدم تجنيد الرجال ممن هم فوق ٤٠ عامًا ولا الأطفال ممن هم دون العاشرة، والاكتفاء بمن قاموا طوعًا بتشويه أجسادهم، بحيث لا يظهر أن التشويه بعد ذلك كضمان لعدم إلحاقهم بالجهادية. وهكذا فالمجموعات التي تم تجنيدها ويبلغ عددها ١٨ ألف رجل سيتم تقسيمها إلى ١٨ كتيبة (صنف)، ثم إلى عشر سرايا (طائفة) تنقسم بدورها إلى خمس فصائل (سوقة)، وكل كتيبة سيتبعها سرية من البنائين ونحاتي الحجارة، وسرية من النجارين والحدادين والبرادين وثلاث سرايا من الأطفال وخمس سرايا من الردامين.

وبما أن جميع هذه الهيئات ستكون تابعة "للهندسة المدنية" فى مصر، فسيقوم مهندسون من مختلف الدرجات بقيادة هذه الكتائب والسرايا. فبداخل كل كتيبة سوف يتم تعيين ستة معلمين من العمال المهرة فى مختلف التخصصات، "سواء من أهل البلد أو من الأوروبيين، وأيضًا ضابط أو ضباط صف متقاعدين أو تم إحالتهم للتقاعد بسبب عجز خفيف، لكنهم قادرون، لخبرتهم، على تعليم "الانضباط والنظام". سيتم صرف مكافأة تميز وراتب شهري مقداره ٢٥ قرشًا للمعلمين، كما سيتم صرف "حصص" مماثلة لحصص الفرق للعمال العاديين بالإضافة لغطاء وحقيبة، مثلهم مثل باقي الفرق. وسيحصل الجميع على "زي موحد" مكون من "جلباب من الصوف وحزام من الجلد وسروال وطاقية من الصوف".

ولإثبات واقعية هذه المقترحات، يستشهد الأب أنفانتان، بنموذج سرايا العمال الموجودة فى كل الجيوش الأوروبية، وكذلك سرية العمال التي شكلها سريزي في الإسكندرية لتركيب الجرافات واستخدامها. ويبين بعد ذلك، أن تكلفة هذه اليد العاملة المؤهلة سوف تنخفض مستقبلاً باستخدامها لاحقًا في صيانة شبكة الري

وتوسيعها، وبهذه الطريقة ستصبح، في نهاية الأمر، دون شك، أقل تكلفة من تناوب ١٨ ألف رجل يعمل منهم ستة آلاف فقط في الموقع، بينما يغادر ستة آلاف إلى ديارهم، ليقابلهم في مفترق الطريق ستة آلاف آخرون.

إلا أن الأب أنفانتان كانت له أهداف أبعد بكثير من تكوين "جيش صناعي" في مصر، فهو يرى أن عمال مشروع القناطر سيمكنهم استقدام زوجاتهم وأولادهم، الذين سيكونون بدورهم قادرين على تقديم بعض الخدمات "مقابل أجر يتناسب مع العمل". وبهذا الشكل سيبدأ إقامة "المدينة التي يجب أن تكون في موقع القناطر"، وبهذه الطريقة، لن يكون هناك سبب لفرار العمال من المشروع، سيصبح قهرهم غير مُجْدٍ. وفي مجمل الأمر، سيحدث توفير في عدد العمال والوقت والنفقات: كما لن يلجأ الرجال إلى بتر أصابعهم، وسيحصل المزارعون على الراحة الكافية، وستنفذ الأشغال كما ينبغي أن تكون(٨).

ودون شك، هناك جوانب مفزعة لهذه الخطة، بما تشير إليه من مظاهر الاستغلال الوحشي والواقعي للفلاحين، أكثر من اعترافها بوجوده بهدف تغييره أو إلغائه عمليًا. كم من الخطط الاشتراكية "لتنظيم العمل" في فرنسا في سنوات ١٨٤٠ كانت تتبنى أيضًا النمط العسكري باعتباره حلاً مؤقتًا من أجل تحسين أوضاع العمال، ونعرف أنه في الوقت الذي كان السان سيمونيون يفكرون في ذلك في مصر، كان الأطفال دون العاشرة، في أوروبا، لا يزالون يعملون في الحقول والمصانع. ومن جهة أخرى فإن القسوة في استخدام الحجة التي تبرز استحالة تمكن العمال من الهرب سواء من التجنيد العسكري أو الصناعي، تبدو حيلة بلاغة موجهة لمداهنة الاهتمامات الحربية للحكام، بهدف استقطاب رجال في عنفوان الشباب بدلاً من المسنين البؤساء.

وعلى الرغم من براجماتية هذه الرؤية لساحة العمل، فإنها لا تستطيع أن تخفي هويتها السان سيمونية. والدليل على ذلك إقرار المجلس لها على الفور. فالجميع، طبقًا لما ذكره لامبير بمن فيهم أدهم بك، قد فسروها بأنها في المقام الأول، سلاح لينان، لكي يتم ترقيته لرتبة جنرال؛ أما أدهم بك الذي شعر قليلاً بالغبن وهو يرى هذا المشروع وقد تضخم يضيع من بين أصابعه، لم يجد، على غير عادته، سوى" كلمة واحدة طيبة" يقولها للامبير وهي أن "الفكرة في مضمونها جيدة، وهي فكرة سان سيمونية، ولذلك فهي واضحة بالنسبة إليه"(٩).

****

ولكن، في تلك الفترة، كان يوسف بك حقيقيان (ذو النفوذ)، قد أدرك أيضًا ضرورة وجود "ديوان نظامي"، ولا سيما" كيفية ربط تنظيم العمل الصناعي، في مشروع القناطر، بالعلم التطبيقي للمدرسة التي تم

إنشاؤها في هذا المكان"[٤٠]. فقد كان هذا المشروع يطمح في أن يخدم إنشاء القناطر في تعليم مهندسين مصريين، وبهذا الشكل سيسهم في تقليص تبعية مصر التكنولوجية.

ويبدو أن المقترح الملموس قد جاء من جانب أنفانتان، والدليل على ذلك رسالة لامبير إليه بتاريخ ٢ يونيو عام ١٨٣٤، التي يخبره فيها بأن الجنرال [سليمان أو سيف] سيدعم بقوة **مشروعكم** بإنشاء المدرسة، (التشديد من عندنا) وبأن أدهم بك يرغب، تجنبًا لأى تورط، في عدم ذكر اسمه في هذا المشروع[٤١]. وقد كان المقصود هنا هو الاستفادة من مجيء ٦٠ شابًا مصريًا للتدريب عن طريق الملاحظة والممارسة، في تكوين نواة لإنشاء مدرسة "للمهندسين". لامبير الذي أراد فى البداية أن يظهر مجرد "متطوع"، كان قد رفض أن يكون ناظرًا لهذه المدرسة الخاصة بالهندسة المدنية[٤٢]، فأسندت النظارة اسميًا إلى لينان. بيد أن أنفانتان كان هو من يرسم الخطط[٤٣] وكان لامبير هو من صاغ لائحة المدرسة[٤٤]. وفي الخامس عشر من أغسطس عام ١٨٣٤، وضع كل من محمود بك (ناظر القناطر) وأدهم بك ومختار بك (رئيس أركان الجيش ورئيس اللجنة التأسيسية للقناطر)، وسليمان – سيف الذي كان قد رقي حديثا لرتبة باشا، حجر الأساس لمدرسة المهندسخانة بمنطقة كفر منصور.

وقد كان لتأسيس مدرسة المهندسخانة، في الواقع، غرض أكبر وهو إنشاء مجموعة مدارس عليا مدنية وعسكرية مصرية. يقول أنفانتان في رسالة له بتاريخ ٥ إبريل ١٨٣٤ إن محمد علي قد أسند لسليمان مهمة التفتيش على جميع المدارس العسكرية، والأخير " ينوي العمل على تكوين لجنة للتعليم العام، التي ستشكل من رجال من أعضاء المجلس مستنيرين وفى نفس الوقت لهم ميل إلى فرنسا مثل: أدهم بك. وكياني بك ومختار بك وأرتين أفندي والجنرال سيجيرا Séguéra وآخرين". ويوضح أنفانتان أن صاحب الاسم الأخير هو الوحيد الذي لم يحدث اختياره بسبب حبه للفرنسيين[٤٥]. وهناك تقرير بخصوص هذا الموضوع كتبه أنفانتان بناء علي طلب من سليمان لتقديمه لمحمد علي، يسوق فيه الحجج التي تدعم إنشاء مجلس للتعليم العالى ولجنة استشارية للعلوم والفنون. والأطروحة الرئيسية فى هذا التقرير هى ضرورة "دفع العملية التعليمية بخطوات حازمة وموحدة" وذلك "بالتنسيق بين البرامج والتعيينات". فقد لاحظ أنفانتان "أن المدارس الحالية قد تم تأسيسها حسب الظروف، وعليه فقد كان على كل مدرسة على حدة، أن تصل بتلاميذها إلى مستوى مناسب من المعارف العامة، قبل تقديم إعداد خاص لهم. الخلاصة، كما يقول أنفانتان، أن "هذه المدارس تجمع بين كونها مدارس إعدادية ومتخصصة". ويستطرد أنفانتان قائلاً: "قد يكون الأمر أكثر عقلانية وأكثر ترشيدًا للنفقات من الناحية الاقتصادية إذا انطلقنا من إحصاء «حاجات البلاد»، حتى نتمكن من تحديد عدد العاملين عمومًا وطبقًا لكل تخصص بحيث يمكن تجميع الإمكانات المادية والبشرية وتحديد وظيفة كل مؤسسة بشكل أفضل".

وينهي أنفانتان تقريره بضرورة تجميع الشئون المدرسية داخل مكتب واحد، فى وزارة الجهادية (التابعة لها)، وضرورة تعيين مستشارين للتفكير في توجيهها في إطار إنشاء "معهد مصرى" جديد للمعارف العامة، يكونون هم نواته[٦٦].

بيد أن هذه الأفكار لم تؤتِ ثمارها إلا بعد مضي عامين[٦٧]، لكن كانت قرارات محمد علي، فيما عدا إنشاء معهد مصر، متطابقة في جميع نقاطها مع تقرير أنفانتان ومشروع جماعة محبي فرنسا. وليسمح لنا بنشر التاريخ والوصف والتعليق الذى قدمه برونو فى رسالة إلى أوليفييه بتاريخ ٢٣ مارس ١٨٣٦، من قناطر النيل:

"عندما قدم الباشا إلى القاهرة في شهر ديسمبر الماضي، كان يرغب في معرفة معلومات عن حالة المدارس، فأمر بتشكيل مجلس يتكون من جميع مديري المدارس يرأسه مختار بك. ونظرًا لرفض الجنرال سيجويرا الانضمام لهذا المجلس، فقد تم قبول استقالته. وكنت في القاهرة إبان انعقاد جلسات هذا المجلس، فتم استدعائي لتقديم معلومات عن مدرسة المدفعية بفرنسا، ومن ثم كلفت بتقديم مقترح بلائحة لنظام مدرسة للمدفعية بطرة.

وقد تم إقرار المقترح. وفي أثناء ذلك، مرض لامبير، وكان التفكير في أنه يمكنني أن أحل محله باعتباري تلميذًا قديمًا بمدرسة الهندسة العليا ودعاني مختار بك لحضور جميع جلسات المجلس. ولم تكن مهمتي، آنذاك، سوى كوني مصدرًا للمعلومات، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان يؤخذ بصوتي في جميع المداولات، التي يتم فيها التصويت.

وها هي الخطة التنظيمية التي اقترحت وتم قبولها:

يتم إنشاء مدارس ابتدائية وإعدادية ومدرسة للمترجمين أو للألسن ومدرسة المهندسخانة تهدف لتخريج مهندسين يعملون في الخدمات العامة (كبارٍ وجسور، ومناجم، وهندسة عسكرية، ومدفعية، وبحرية ... إلخ) وكذلك مدرسة للمشاة ومدرسة للفرسان. وعندما يتم إعداد التلاميذ في مدرسة المهندسخانة، سيكون بعد ذلك لكل جهاز من أجهزة الخدمات العامة مدرسة خاصة به، يتم اختيار عناصرها من مدرسة الألسن والمدارس الإعدادية (توجد واحدة في القاهرة وأخرى بالإسكندرية)، التي يتم تغذيتها بتلاميذ من المدارس الابتدائية الموزعة في جميع أقاليم مصر بما يتناسب مع عدد السكان، وتختار المهندسخانة تلاميذها في البداية، ثم تتبعها مدرسة المشاة والفرسان.

وعندما يتم إعداد اللوائح والبرامج التعليمية لكل مدرسة، يوجه الاهتمام إلى إكساب روح لهذه الهيئة العظيمة، فتم إنشاء مجلس دائم للتعليم العام يتكون من ثلاثة أعضاء هم أرتين أفندي وستيفان أفندي ولوبرت ويرأسه مختار بك. كما أن هناك مجلسًا مساعدًا يتكون من ستة أعضاء ويجتمع أول كل شهر لدراسة كل المسائل التي بحاجة لحلول، بهدف إعطاء توجيهات جيدة لسير الدراسة والتأكد بواسطة التفتيشات المستمرة فى المدارس من النتائج المحققة .... إلخ.

لن أحدثك عن البرنامج الخاص بكل مدرسة، فهذا شرحه يطول، لكن قد يمكنك أن تتخيله بسهولة، ولكني أرى فقط أنه يغلب عليه الطابع الأوروبي، وفي الوقت الحالي، يجب أن يتم اختصاره إلى معدلات أقل بكثير. وكما ترى، يا صديقى، الفكرة في حد ذاتها طيبة ويسهل ملاحظة أن العقول الأوروبية التي تشكلت في مدارس أوروبا، قد مرت من هنا. لكنني أسألك، أين هي المعدات التي ستحرك عجلة هذا المشروع؟ إنني لا أخشى أن أؤكد لك أنه لا توجد حتى عُشر العناصر اللازمة له (٠٠٠) فماذا سيتبقى من كل ذلك؟ برنامج، مثله مثل القناطر وأشياء أخرى كثيرة في هذا البلد. إن أوان التنفيذ لم يحن بعد، ومن الواضح أن الأتراك لن يكونوا قادة الحركة، التي بدأت تترسخ في مصر لإخراجها من حالة الانحطاط التي هي عليها الآن، ولفتح مسار المستقبل الباهر الذى ينتظرها أمامها"[١٨].

****

ولطبيعة العلاقات بين الوالي وأوروبا التي كانت تتسم دائمًا بالتناقض، فقد تزامن تقدم مشروع إنشاء ديوان التعليم العام، كما يشير برونو، مع توقف العمل في موقع إنشاء القناطر.

وعلى الرغم من ذلك، فقد استمر لينان والسان سيمونيون في العمل بانتظام[١٩]. فقبل إتمام إعداد الخطط النهائية، بدأ تكوين الكتائب والسرايا، وكذلك مساكن الإيواء والورش، كما تم شراء حيوانات الجر والطنابير. ولم يجد أنفانتان، أمام فشله في جلب مهندسين رؤساء عمال من فرنسا، سوى دعوة كل من هوارت وبرونو للانضمام إليه، ويعترف لينان أنه بفضلهما، تم تقديم مجموعة متكاملة من الخطط والحسابات والمقايسات إلى محمد على في يوليو عام ١٨٣٥.

بيد أن محمد علي لم يكن في مقدوره قط تصور طول مدة عمل المشروع وتعقيداته الفنية، ونظرًا لأنه اعتاد على قياس صعوبة أى مشروع بعدد الفلاحين المطلوب استدعاؤهم، لا يستطيع أن يفهم، على سبيل المثال، أهمية جودة أخشاب الإنشاءات، فقد أمر فجأة بإرسال لينان بحثا عن هذه الأخشاب بنفسه في الشام. وفي موقف آخر، أمر بتسليمه مئات من الجرافات الضخمة التي لم يكن بحاجة إليها، ثم قام بسحبها عندما استطاع إيجاد وسيلة لاستخدامها، كما أنه أرسله ليختار أحد أهرامات الجيزة لهدمه من أجل توفير الحجارة اللازمة لمشروع القناطر[٢٠]. وتبين السخرية اللاذعة التي يعرض بها لينان ورحالة آخرون هذه الطرائف، المشاكل التي يعانيها العديد من المتعاونين في التأقلم مع طريقة العمل المتبعة في مصر من أجل تحقيق أفضل النتائج. ومن اللافت للنظر، أكثر من ذلك، أن بعض السان سيمونيين قد لاحظوا من خلال مرآة الاختلاف بين الثقافات أن من يتعاونون معهم من المصريين يمتلكون مميزات خاصة من الناحية التقنية. ويرى أنفانتان، على وجه الخصوص، أنه إذا استطعنا الجمع بين النظام الإداري الأوروبي، وقد تحرر جزئيًا

من التعقيدات الورقية، وبين السمات التي يمتلكها العرب من المثابرة والقدرة على العمل الدؤوب وسرعة التنفيذ، لتكوِّن لدينا نمط حقيقي للعمل الصناعي.

بل إنه ذهب إلى أبعد من فكرة هذا التهجين التكنولوجي، فهو يزعم أنه بالنظر إلى " ما نجرؤ على فعله وننفذه بالفعل هنا دون الاستعانة بالعلم، وبالنظر إلى ما يشكل المهندس توجد خامة هندسية كثيرة لدى العرب الجهلاء أكثر من العلماء الفرنسيين": وكذلك فكما أن نابليون يمتلك العبقرية الحربية والاستراتيجية، فإن العرب يمتلكون، كما يوضح، في هذا المجال "العين العسكرية الثاقبة"[٢١].

بيد أنه في عام ١٨٣٥، ضرب وباء الطاعون صفوف العمال والسان سيمونيين، بالطبع. إلا أن تشتيت العمال الذي كان أحد التدابير الوقائية لحصار المرض وموت هوارت بالطاعون فرار أنفانتان إلى صعيد مصر هربًا من الوباء ثم مغادرته البلاد في عام ١٨٣٦، لم تكفِ لتفسير ترك موقع العمل في نهاية عام ١٨٣٧. فلم يكن كل ذلك سوى مبرر لتوقف العمل في عام ١٨٣٦ فقط، لكن في نهاية هذا العام، تلقى لامبير من مختار بك تكليفاً بمهمة رفع المقايسات والقيام بالحسابات اللازمة؛ لإنشاء خط سكة حديد بناء على رغبة محمد علي باشا لنقل الحجارة من محاجر طرة إلى القناطر.

وتم عرض مسار الخط على الباشا للموافقة عليه في ١٤ ديسمبر، وتكليف كل من برونو ومصطفى بك للعمل معًا من أجل إنشاء الخط[٢٢]. وفي يناير عام ١٨٣٧، أعاد لامبير النظر في الحسابات التي أعدها هوارت بناء على طلب لينان وقام بإصلاح الخطأ، الذي أشار إليه هوارت قبل وفاته وهو عدم حسبان النتائج الخاصة باتساع النيل بسبب إنشاء القناطر[٢٣] .

وفي الثالث عشر من فبراير عام ١٨٣٧، أقرت لجنة يرأسها مختار بك، وتضم كلاً من (أدهم بك وحقيقيان ومظهر ومصطفى بك وبرونو والكولونيل شوتز Shutz ولينان وجابودان لامبير ككاتب للتقرير). وقد أقرت هذه اللجنة خطط لينان النهائية ومنحوه "عقد الثقة". وفي ٧ مارس، أمر إبراهيم باشا، بعد عقد اجتماع في قصره، بتدشين العمل فورًا في أعمال البناء والاستعانة بالجيش[٢٤]. فقد كان كل شيء إذن يبدو على ما يرام، حتى في اختيار عدم اللجوء إلى السخرة. إلا أنه بعد مرور شهرين، "انهار كل هذا النشاط في مشروع القناطر".

ويرجع هذا التحول المفاجئ إلى أسباب كثيرة معقدة:

أولاً: النقص الشديد في العمال والأموال بسبب الحروب وانتشار الطاعون، دفع الباشا إلى اتخاذ تدابير تقشفية قاسية. ففي سبتمبر ١٨٣٥، توقف فيما يبدو صرف الرواتب وجميع تحويلات الأموال[٢٥]. وفي مايو

١٨٣٧، ظلت رواتب الموظفين، أو على الأقل الأجانب، معلقة لمدة ١١ شهرًا، كان محظورًا عليهم حتى تقسيط رواتبهم[٢٦]. ولإجراء مزيد من التقشف في الميزانية، من أجل إعادة التنظيم الإداري، تم تعيين مختار بك ناظرًا للجهادية الذي اتخذ قرارًا عشية توليه مهام منصبه، وبعد الاجتماع بفاران Varin ولامبير، بإنشاء مدرسة للمحاسبة تكون تحت مسئولية ستيفان أفندي. وقد اقترح باخوس بك Bakhos "رئيس الأقباط"، بهذا الشأن، إلحاق ٢٠٠ تلميذ من طائفته في هذه المدرسة[٢٧].

إلا أن الغضب على أدهم بك وعزله، في عام ١٨٣٥، عن إدارة مصانعه، والتحقيق فى حساباته خلال العشر سنوات الأخيرة، كان بالطبع يرجع لأسباب أخرى غير هذه "الحمى التقشفية"[٢٨]. ويبدو أن ذلك كان له علاقة واضحة بالانتقادات الحادة التي وجهها له محمد علي باشا لدوره في إقحام السان سيمونيين بمشروع القناطر[٢٩].

وقد كان الارتباط وثيقًا بين الأزمة المالية والغضب على الموالين للأجانب والأجانب على حد سواء ولاسيما السان سيمونيين، إلى الحد الذي أدى إلى إلغاء مجلس القلعة، في تلك الفترة، الإعانة التي كانت مخصصة لأنفانتان وتبلغ ٧٥٠ قرشًا، باعتباره متطوعًا نظرًا، وهو سبب حقيقي، لتركه موقع العمل وهروبه إلى صعيد مصر[٣٠] فرارًا من الطاعون. وهذا التصرف الذي وصف بأنه "إهانة كبرى" في حق الباشا، وهو كذلك في حقيقة الأمر، كانت نتيجته النهاية الرسمية لعهد "التطوع"؛ أي الوجود الجماعي المعترف به للأجانب من أمثال السان سيمونيين. بيد أن سليمان باشا الذى "تعتبره الحكومة رئيسًا للأجانب"، قد تعرض هو نفسه لهجوم حاد. فقد كان إرساله في مهمة إلى سوريا واستبدال كيانى بك به، في التفتيش على المدارس، فى أثناء غيابه، يعد دليلاً قويًا على زوال حظوته بصفة مؤقتة[٣١].

فقد كثرت الانتقادات الموجهة للسان سيمونيين ولحاميهم، وكان بعضها له ما يبرره، والبعض الآخر كان نتيجة لوشايات أو بسبب الغيرة والحقد. فقد تعرض سليمان باشا للوشاية به بسبب صداقته الواضحة والثابتة لأنفانتان وكذلك لدعمه مساعدته لكل القادمين من الخارج، الذين يحملون توصية من الأب، وأيضًا لعلاقته الحميمة والمكشوفة والتي تتعدى الصداقة، بكلوريند روجيه مؤسسة حركة " نساء الأم" [٣٢].

وعلى جانب آخر، وصل إلى أسماع محمد علي باشا أنباء عن أن هؤلاء المسافرين الأجانب يدَّعون بأنهم "محركو جميع الأعمال في مصر"، وبأن الصحف في أوروبا تبرز دورهم على حساب دوره[٣٣]. وما زاد الطين بلة، أن الاتهامات القديمة التي أطلقها المحافظون الفرنسيون قد تخطت حاجز البحر الأبيض المتوسط وأعادت، في مصر، نفس الاتهام المزدوج بالممارسات غير الأخلاقية والاحتيال الذى أدى، في النهاية، إلى حل الحركة السان سيمونية في عام ١٨٣٢.

وتروي سوزان فوالكان Suzanne Voilquin، التي ظلت متحفظة في "مذكراتها" عن الحديث عن حبها للامبير دولونج Delung، تفاصيل سريان الوشاية الرئيسية. فقد بدأ كل شيء بسبب وجود مارشال Maréchal ولامي Lamy وبرنار Bernard وسوزان نفسها في منزل دوساب الدكتور Dussap هذا الطبيب العجوز، الذي لم يتوانَ عن فعل كل ما بوسعه ليصاب بمرض الطاعون بعد قيامه بدفن زوجته وابنته ضحيتي المرض اللعين. فلقد أسرع أحد الأطباء الفرنسيين ويدعى بوابيه Boyer، وكان يطمع في الاستيلاء على زبائن دوساب، انطلاقًا من شائعات بوقوع سرقات وأثناء وجود سوزان وزملائها في منزل الطبيب العجوز يشهدن لحظات احتضاره، ووشى بهن لدى قنصل فرنسا في القاهرة تيبل. إلا أنه سرعان ما انكشف الأمر، لكن تبقى دائمًا الكلمات الجارحة والشعور بالاستياء المرتبط بمثل هذه الظروف[٣٤].

إن مثل هذه المآسي تصف ملامح المناخ السائد في تلك الحقبة أكثر مما تفسره.

أما السبب الرئيسي وراء هذه الأحداث فكان أبعد من ذلك. فبناءً على نصيحة من مهندس بولندي يدعي يوسف أغا، أصدر محمد علي باشا مرسومًا بتاريخ ١١ ربيع الآخر عام ١٢٥٤هـ الموافق ٤ يوليو ١٨٣٨م، ينص على طلب إعادة دراسة الجدوى الخاصة بإنشاء القناطر. وكما لو أن هذا التشكيك فى المشروع غير كافٍ، فقد قام المعنيون بالأمر بالإجابة المسبقة بعدم جدوى المشروع، مدعين بأن شق ترع جديدة يكفي للغاية. وطلب لينان الذي كان في ذلك الوقت مسئولاً عن إدارة الأشغال العامة، تشكيل لجنة وتمت الموافقة على طلبه. وغرضه من هذه اللجنة كان موافاته بتقرير يؤيد إقامة المشروع نظرًا لارتباطه بمستقبله المهني.

وهذه اللجنة كانت تضم، طبقًا لقائمة الموقعين، بعدد متقارب من الشرقيين (عرب وأتراك وأرمن) والأوروبيين (إنجليز وفرنسيين) وهم: شارل لامبير (الذي أصبح باشمهندسًا للمناجم) ولوبرت (سكرتير الوزارة) وستيفان رسم Stephan Resm (رئيس المعدات) وتيبوديه Thibaudier (مهندس حربي) وبيومي (مهندس عربي تخرج في مدرسة الهندسة العليا بفرنسا)، ومصطفى بهجت (مهندس عربي تخرج في مدرسة الهندسة العليا بفرنسا) وبرونو (يوزباشي بسلاح المدفعية تخرج في مدرسة الهندسة العليا بفرنسا) ويوسف حقيقيان (مهندس درس بإنجلترا) وإبرينج Epering (مهندس إنجليزي) وسليم بك (ضابط أركان حرب تعلم في فرنسا ويشغل وظيفة رئيس المستخدمين بالوزارة) وأحمد بك (ضابط أركان حرب تعلم في فرنسا ورئيس المستخدمين بديوان الجهادية) ومختار بك (ناظرًا ورئيسًا) [٣٥].

وقد خلص تقرير اللجنة الذي كتبه لامبير بناء على مناقشات ودراسات قام بها لينان، إلى أهمية إقامة القناطر دون إبداء أية تحفظات.

فقد رأت اللجنة أن الترع الصيفية (التي يتم شقها عند أدنى مستوى للنهر لري الزراعة الصيفية) لا تكفي ولا سيما بالنسبة لمحافظتي المنوفية والقليوبية، وأن شق ترع جديدة لن يؤدي إلى تحسن في كمية مياه الري نظرا لأن الترع لا يمكنها الحصول على المياه إلا عند مستواها في النيل.

ولهذا السبب، فقد أيدت اللجنة إقامة نظام آخر للري يتيح رفع المياه حتى عند مستوى مخرج الترع وهو مشروع إنشاء القناطر، وطبقًا لحسابات لينان، يكفي ثلاثة أعوام لتغطية تكاليف المشروع الذي يبلغ (حوالي ١٥٥,١٦٣,٢٨٠ قرشًا) نتيجة لزيادة المكاسب الزراعية، التي ستتحقق من استصلاح حوالي ١,٥٠٠,٠٠٠ فدان من الأراضي الزراعية. هذا في حالة خضوع إجمالي هذه الأراضي لنظام الاحتكار (كان يتم شراء الإنتاج بالكامل وتتولى الحكومة بيعه لصالحها). وقد قام لينان بحساب قيمة الأرباح المتوقعة من المشروع بحوالي ٢١٧,٥٠٠,٠٠٠ قرش وذلك بعد حسابه ثمن بيع المحاصيل الزراعية وما تدره الضرائب (التي تعادل في المتوسط ٤٥ قرشًا للفدان)، لكن كان اهتمام الباشا منصبًا بشكل كبير على العديد من المميزات، التي لن نستطيع إلا حصر مختصر لها:

- توفير صيانة الترع التى ستصبح بلا جدوى نتيجة لزيادة الفيضان.
- الاستغناء عن عدد كبير من السواقي وآلات رفع المياه، ومن ثم تحرير الحيوانات والأنفار المستخدمين لتسيير هذه الآلات والاستفادة منهم في أعمال أخرى.
- خلق قوة محركة جديدة بواسطة اندفاع المياه من شلالات القناطر.
- تأسيس مصانع جديدة تدار بفضل الطاقة الجديدة المتولدة من المشروع.
- إمداد ترعة المحمودية بكميات إضافية من المياه.
- حصول القاهرة على كميات من المياه الجارية تعادل ما تحصل عليه في أثناء الفيضان، دون الحاجة لتوسع أكثر للترع الحالية.
- تخفيف عبء العمل في الأراضي المزروعة سابقًا بنظام الري، التي أصبحت يمكن ريها بالفيضان.

ولا يوجد، بين جميع هذه الاعتبارات التقنية والاقتصادية، عدا التفضيل الواضح لنظام الاحتكار، سوى لمحة بسيطة من الفكر السان سيموني الخالص. لكن بعيدًا عن الاعتبارات الحسابية، فإن مشروع إنشاء القناطر يعكس، بالنسبة لفكر كاتب التقرير ومعظم أعضاء اللجنة، قلقًا إنسانيًا وهو "أن تحسين أحوال الفلاحين المصريين محسوب ضمن الأرباح مثله مثل زيادة حصيلة خزينة الدولة".

وقد رد محمد علي باشا على ناظر الديوان الذي قدم له تقرير اللجنة، بطريقة رسمية حادة، فيما يبدو، قائلاً: "إن اللجنة على حق تمامًا، وأن ما جاء بالتقرير كان واضحًا ومعروضًا بطريقة سليمة، لكنه لم يعد يرغب في إنشاء القناطر"(٣٦).

****

أيا ترى كان هذا تأثير دسائس غرماء لينان؟ أم أنه نزوة من جانب حاكم مطلق؟ أم أن الرجل العجوز قد فرغ صبره وخشي أن يموت قبل أن يرى ثمار إنجازاته؟(٣٧).

لقد كانت الافتراضات التي ساقها لينان لتوضيح الموقف غير كافية. وكان عزل الباشمهندس قبل مغادرة الباشا بقليل، متوجهًا لولاية سنار، في منتصف شهر أكتوبر عام ١٨٣٨، له أبعاد تتجاوز الغضب عليه شخصيًّا. فقد كان التعليل الفوري لهذا العزل، هو تصميم "واقعي لكنه مخيف" قدمه له لينان لإلغاء شلالات النيل (فقط لا غير)(٣٨)، والحقيقة أن قرار العزل لا يمكن أن يكون منفصلاً عن الإحباط الفظيع الذي شعر به محمد علي باشا، قبل هذا التاريخ بثلاثة أشهر، بسبب الرفض الواضح من جانب فرنسا لدعم طلبه في الاستقلال. وقد كان هذا، على الأقل، تفسيرًا لضغوط الوساطة الفردية التي مارسها قنصل فرنسا في مصر على محمد علي للحصول على موافقته بعودة لينان إلى منصبه. (٣٩)

فكل شيء كان مرجعه، في النهاية، هذه القضية الجوهرية: استقلال مصر. ففي عام ١٨٣٧، عندما طلب بعض شباب ديوان الجهادية منحة لإتمام دراستهم في فرنسا، اصطدموا برفض قاطع "لقد أتيت بفرنسا هنا، فليستفيدوا منها".

ولامبير حينما يذكر هذا الرد من الباشا ويربطه بالخط السياسي، الذى عرضه مختار بك يومًا على لينان وحقيقيان، اللذين كانا يدفعانه لمراجعة مواقفه :

"يجب أن تحقق مصر الاكتفاء الذاتي، أو على الأقل يجب أن تبدو كذلك، فإذا طلب الوالي موظفين من فرنسا، ماذا سيعتقد الناس؟ أما إذا جاءوا أنفسهم ولم يتم استجلابهم، فسيتم تعيينهم"(٤٠).

هذا ما يوضح الترحيب بقدوم السان سيمونيين. إلا أن هناك أقوالاً أخرى، دوَّنها لامبير، تدل على وجود توتر واضح بين البلدين. والدليل على ذلك، أنه في ديسمبر التالي، لم يحاول محمد علي، الذي كان على يقين أنه سيستطيع مع شعبه أن يفعل كل شيء، إخفاء اقتناعه بأن "زمن الأجانب قد ولى" و"أن وصايتهم على مصر لم تعد لازمة". "وبرغم مرونته في كل شيء"، كما يعلق لامبير، "لكنه يعود دائمًا إلى النقطة نفسها: اعتراف أوروبا والباب العالي باستقلاله"(٤١).

ولكن، في مسار معاكس، خلص أنفانتان الذي أصابه الإحباط من سياسة محمد علي الداخلية، إلى فكرة نابليونية تمامًا وهي أن مصر لن تستطيع الحصول على الحرية "إلا بالطرد الكامل للعنصر التركي". وعندما ناقش آراءه المستقبلية الجديدة مع صديقه آرليس دوفور، الذي نقلها بدوره إلى الحكام الفرنسيين، كان في مخيلته إمكانية وضع مصر تحت الوصاية الأوروبية المؤقتة "بعد نزهة عسكرية" بهدف القضاء على الهمينة التركية.

"الاحتلال يجب أن يكون أنجلو ساكسونيًا للأسباب التالية:

١- لتجنب أي محاولة لتنظيم استعماري بالأسلوب القديم.

٢- لكي تكون المنافسة بين إنجلترا وفرنسا لصالح البلاد.

٣- لأن الإنجليز على الرغم من أن ميلهم إلى المصالح التجارية، أكثر منا بكثير، ولديهم إدارة صناعية، فإنهم أقل من الفرنسيين بكثير فى تجاوبهم مع الطبيعة العربية.

إن جيش الاحتلال سيكون إذن، وقبل كل شيء، وسيلة شرطية تضمن للمواطنين وللمستعمرين الأجانب الحرية والنظام تترك لأهل البلاد العدالة المدنية والإدارة التجارية. فهذا البلد، ولمدة سنوات عديدة، ليس بحاجة سوى لهذا النوع من الحكومات حتى يزدهر: ففي الوقت الحالي لا يمكن تصور إنشاء مؤسسات عامة بطريقة حكيمة، يجب أولاً أن يعم السلام وتكثر الأعمال ويزيد تدفق الأجانب، وعندما يزداد السكان، سيحاول البلد أن يستعيد وضعه الطبيعي الذي طالما سلبته حكومات الأتراك"[١٢].

لقد كان أنفانتان يظن أنه، بواسطة فكرته الوهمية بإقامة نوع من التحالف بين فرنسا وإنجلترا، سيتمكن من الاقتراب من حل عالمي لمشكلة تحقيق النمو المستقل لمصر. إلا أن منطقه كان للأسف يفسر، في أفضل الأحوال، بأنه تبرير مسبق لنوع جديد من السيطرة التي تتناقض مع الأفكار المثالية للسان سيمونيين. ولهذا السبب، فقد انطلق المناضلون المصممون على البقاء في مصر إلى فرضية جديدة : الرهان على انصهار الشعب المصري واستنارة العناصر التركية الأكثر استنارة، والأكثر ارتباطًا بالبلاد باعتبارها أمة واحدة.

****

الهوامش

(١) انظر الهامش الأخير بالفصل السابق.

فيما يتعلق بالاستشهاد الخاص بنابليون، مرجع كلوت بك كان: "des notes rapidement écrites" دون أي تحديد.

(2) "*Mémoires sur les principaux travaux d'utilité publique exécutés en Egypte depuis la plus haute antiquité jusqu'à nos jours, Paris,* 1872-1873, p.431.

(3) Lettre d'Enfantin à Duguet, 5 avril 1834, F.E., °Ms7.618,f°35v .

(4) Lettre à Hoart et à Bruneau, mars 1834, F.E., Ms7.669/26 ; *Souvenirs d'une fille du peuple…*, p.256.

يذكر كلوت بك، من جانبه،أن العدد كان ٣١٣,٠٠٠ عاملاً، ولكنه يمتنع عن ذكر الخسائر.

(*Aperçu général sur l'Egypte,* t. II, p.470).

(5) F.E., MO3,F°36r°.

(6) *Mémoire…*, p. 437.

(7) Lettre à Marie Talon, 13 août 1834, F.E.,Ms.7.741/13.

(8) F.E.,Ms.7.827/57.

في الرسالة السابق ذكرها، يرجع لامبير الفضل للبنان دي بلفون في مصطلح التنظيم. فمن المؤكد أن هذا التنظيم يفترض معرفة تامة بالرتب العسكرية والمدنية وكذلك معرفة جيدة للغة العربية التي لم يكن السان سيمونيون يتقنونها. ولكن فيما يتعلق بمصدر هذه الفكرة، نعترف بأن مفهوم "جيش العمال السلمي" كان أول من أطلقه هو ميشيل شوفالييه Michel Chevalier في كتابه "نظام دول البحر الأبيض المتوسط" الذي ذكر فيه جميع التفاصيل حتى الزي الخاص النظامي : الحزام المصنوع من الجلد الذي يرتديه السان سيمونيون. ونقتبس من هذه الرسالة هذا التشبيه "الجيش الصناعي". جميع الاستشهادات الأخرى من ملحوظات أنفانتان الذي يتحدث فيها، بحذر شديد عن تكوين "نقابات عمالية".

(9) Lettre à Enfantin du 8 août 1834, F.E.,Ms.7.739/14.

(10) Ibid.

(11) F.E.,Ms.7.739/6 .

(12) Lettre à Hoart et à Bruneau, F.E.,Ms.7.669/26.

(13) F.E.,Ms.7.776L123.

(14) F.E.,Ms.7.742L54. مخطوط لانحة الأرشيف. يتوقع لامبير أن يكون عدد التلاميذ ١٢٠ تلميذاً.

(15) Lettre d'Enfantin à Duguet, F.E.,Ms.7.618,F°35V°.

(16) F.E.,Ms.7.827L36.

(١٧) يرجع يعقوب أرتين باشا تاريخ إنشاء ديوان المعارف العامة إلى عام ١٨٣٦ ويذكر أعضاءه وهم: ناظر الديوان (مختار بك)، كلوت بك، كياني، أرتين، ستيفان، حقيقيان، فارين، رفعت، بيومي، لامبير، هامونت، دوزول (سكرتير)،

L'Instruction Publique en Egypte, Paris, 1890, p. 76.

(18) F.E.,Ms.7.700/01.

الأسماء المكتوبة بين الأقواس المعقوفة، تم ذكرها فيما بعد في الرسالة. أما عن مدرسة المترجمين، فالمقصود بها المدرسة التي يديرها رفاعة الطهطاوي. ففي ديسمبر ١٨٣٧، أشار برونو إلى اجتماع الأشغال العامة برئاسة لينان دي بلفون في ديوان المعارف العامة (17 décembre 1837, F.E.,Ms.7.739L61)، وقد ذكر لينان هذه المعلومة نفسها في (مذكراته ص٣٩). وعلى الرغم من تعين مختار بك ناظراً للجهادية في شهــر يناير من عــام ١٨٣٧، إلا إنه ظل مسيــطراً عل هذا القطاع. (F.E.,Ms.7.739/55).

(١٩) مع حذف ثلاثة أشهر بدءاً من ١٣ أكتوبر عام ١٨٣٤، وذلك انتظاراً وصول مهندس الري برونل Brunel للاستفادة من خبرته الكبيرة. ولكنه مع الأسف لم يصل. كان ذلك مؤشراً على صعوبة العملية من الناحية التقنية مما جعل الخبراء يترددون في المشاركة في تنفيذه. F.E.,Ms.7.739/26.

(20) *Mémoire*..., pp.440-442 et pp. 420-424.

اعترض مينو Minaut بحدة على فكرة هدم أحد الأهرامات للاستعانة بالحجارة، وقد حاول البعض إلصاق تهمه هذه الفكرة للسان سيمونيين. ويثبت خطاب أرسله أنفانتان، أنه لا علاقة لهم بهذه الفكرة على الإطلاق، ولكنه ذكر أنه نفسه لم يصعق من هذه الفكرة، ولكن على العكس، فهو يرى فيها رمزا ودليلاً على التقدم والحداثة F.E.,Ms.7.827/17,F°6

(21) F.E.,Ms.7.618,F°36R°

(22) Lettre de Lambert du 25 janvier 1837, F.E.,Ms.7.839/55

قضبان الخط الحديدي تم شراءها من إنجلترا وتم تركيبها في المكان المحدد، ولكن تم تفريغها من الشحن الكهربائي بطريقة جعلتها تلتوي وأصبحت غير صالحة للاستخدام إذا تم تجميعها من جديد Linant, Mémoire...pp.478-79 .

(23) F.E.,Ms.7.739/55

(٢٤) لامبير لديه معلومات حديثة عن كيفية استخدام الجيش في الأشغال العامة: فقد ذكر أن هناك فيلقين قد أضيرا في شق ترعه شربين (Letrre du 27 mars 1837, F.E.,Ms.7.739/56). وفي رسالة أخرى بتاريخ ٢ مايو عام ١٨٣٧، أشار أن هناك ثلاثة فيالق قد استخدموا في شق ترعة (F.E., Ms. 7.739/57)

(25) Lettre de Lambert du 11 septembre 1835, F.E.,Ms.7.739/41.

(26) Lettre de Lambert du 2 mai 1837, F.E.,Ms.7.739/57.

(27) ibid.

(28) Lettre d'Enfantin du 25 décembre 1835, F.E.,Ms.7.827/17,F°2.

(29) انظر الفصل السابق

(30) F.E.,Ms.7.739/43

هذا الراتب يعادل راتب أونباشي طبقاً لما أشار إليه كلوت بك عن الرتب ورواتب العسكريين في جيش محمد علي (أنظر كتاب لمحه عامة عن مصر الجزء الثاني ص٢٢٥). كان شرط إعادة صرف الراتب هو عودة أنفانتان إلى موقع العمل وقيامة بعمل فعلي (F.E.,Ms.7.739/44). لقد كان هذا الإجراء صحيحاً من الناحية الإدارية ولكنه كان ينكر على الأب أنفانتان مركزه الفريد.

(٣١) المرجع نفسه.

(٣٢)أنظر الفصل السابق.

(33) F.E.,Ms.7.739/42.

(34) *Voir Souvenirs d'une fille du peuple, ou la saint-simonienne en Egypte,* édition originale, p. 336 et suiv.

(35) Voir Mémoire..., p.445 et suivantes ».

لا يوجد معلومات مؤكدة عن هوية بعض أعضاء اللجنة. فقد أشار لينان إلى أن عددهم بلغ ١٦ عضواً ولكنه لم يكتب سوى أسماء ثلاثة عشر فقط. ومن ناحية أخرى، يؤكد مخطوط تقرير لامبير التاريخ نفسه لاجتماع اللجنة وهو ١٩ ربيع الأخر عام ١٢٥٤هـ، إلا أن قائمة الأسماء بها العديد من الاختلافات مثل: ستيفان أفندي بدلاً من ستيفان رسم، وبيرنج بدلاً من أبيرنج، وميرش Mersh (غير موجود بقائمة لينان) وعبد الوهاب (غير موجود كذلك في قائمة لينان) أما باقي الأعضاء فأسماءهم متطابقة. جان فرنسوا تيبوديه، وهو ضابط مدفعية ومساعد لأدهم بك، كان صديق قديم للامبير في المهندسخانة (دفعة ١٨٣٥)، ولكنه تجاهله نظراً لارتباطه بالسان سيمونيين

(Lettre de Lambert du 2 mai 1837, F.E.,Ms.7.739/57) .

أما ستيفان بك، فقد كان صديق دراسة قديم لأرتين بك في فرنسا، وكان مترجماً وعضواً بمجلس المعارف العامة وديوان المظالم، قبل أن يخلف أرتين بك في العلاقات الخارجية حتى عام ١٨٥٠. وتوفى في فرنسا في ١٣ مايو عام ١٨٦٠، في مدينة أوتي Auteuil.

(F.E.,Ms.7.739/82 و F.E.,Ms.7.740/58 و F.E.,Ms.7.743/7)

(36) *Mémoire...*, pp. 445-455.

(37) ibid..., p. 455.

(38) Lettre de Lambert du 21 octobre 1838, F.E.,Ms.7.739/69.

(39) Lettre de Lambert du 30 juillet 1939, F.E.,Ms.7.740/23.

(40) Lettre du 2 mai 1837, F.E.,Ms.7.749/57.

(41) Lettre du 17 decembre 1837, F.E.,Ms.7.739/61.

في ٢١ مارس من عام ١٨٣٨، ذكر الاعتراف نفسه قائلاً: "تظهر بصفه دائمة وراسخة الفكرة القديمة بأن مصر يمكنها تحقيق الاكتفاء الذاتي من الموظفين".(F.E.,Ms.7.739/66).

(42) Lettre du 13 janvier 1836, F.E.,Ms.7.827/17F°3 (publié dans la Correspondance inédite d'Enfantin, in Œuvres de Saint-Simon et d'Enfantin, t. XXX, p. 175 et suiv.)



صورة لأنفانتان زعيم السان سيمونيين

طباعة لومرسييه Lemercier بناء على لوحة بتوقيع جريفيدون H. Grevedon بتاريخ ١٨٣٢.

O. 3O X O. 37 .Fonds Enfantin, Bibliothèque de l Arsenal

المقارنة بين الصورة الأولى والثانية لأنفانتان تبرز مدى التحول، الذي أجراه على شخصيته سواء من الناحية الشكلية أو النفسية، ليكون جديرًا بلقب "الأب أنفانتان" أو كما كان يدعوه العرب آنذاك "سيدي أبو الدنيا الفرنساوى"[1]. ويتوافق نشر صور أنفانتان مع تنظيم عبادة حقيقية للشخصية قبل الأوان.

وفي واقع الأمر، فإن الصورة الثانية هي صورة تركيبية منتحلة بعض الشيء، استخدم فيها المصور الرسم التخطيطي لوجه أنفانتان الذي قام به كونييه **Cogniet** في حي منلمونتان **Ménilmotant**، أحد أحياء باريس، وركب عليه ملابس تركية.

استطاع بارتملى بروسبير أنفانتان (١٧٩٦-١٨٦٤) ابن أحد المصرفيين المفلسين إتمام دراسته بفضل منحة دراسية ساعده في الحصول عليها قرابته من الجنرال "بون" **Bon** (أميرلاي إحدى الفرق العسكرية)، ومعاونه نوج **Nugnes**، اللذين قتلا إبان الحملة الفرنسية على مصر. ثم التحق بمدرسة الهندسة العليا دفعة ١٨١٣، لكن نظرًا لارتفاع تكاليف الدراسة، اضطر لترك مدرسة الهندسة. أراد الالتحاق بالجيش العسكري الملكي[2]، لكن سمعة والده السيئة حالت دون تحقيق رغبته. فانخرط مع أقاربه في تجارة النبيذ وسافر لدراسة السوق الخارجية، وفي روسيا شارك أحد المصرفيين في التجارة، والتقى، في مدينة سان بترسبرج، بجماعة صغيرة من المهندسين (لامي **Lamé** وبازين **Bazaine** وكلابيرون Clapeyron)، الذين كانوا يعملون في خدمة (قيصر روسيا) لتنفيذ عدة مشروعات فنية. واستطاع، مع هؤلاء المهندسين الذين يعملون في أغلب كبرى الشركات الصناعية السان سيمونية، أن يتعلم العلوم الحديثة ولا سيما الاقتصاد السياسي.

وعند عودته في عام ١٨٢٣ إلى فرنسا، قام أولاند رودريج أستاذه القديم في الرياضيات، وآخر أتباع سان سيمون بعد أوجستان تييري وأوجست كونت، بتقديمه لسان سيمون مؤلف كتاب "المسيحية الجديدة". وبعد وفاة سان سيمون في عام ١٨٢٥، قام أولاند رودريج وأنفانتان، بعد انضمامهما لبعض الليبراليين من أمثال (أدولف بلانكي) أو الثوار الجمهوريين القدماء مثل (بازار وبوشيه)، بتأسيس مجلة أطلقوا عليها اسم "المنتج" **Le Producteur**، والتي كانت نواة للحركة السان سيمونية. ونظرًا لانخراطه في حركة المقاومة والمعارضة ضد حكم أسرة البوربون والتي نتجت عنها ثورة يوليو ١٨٣٠ فأطاحت بحكمهم، تحولت أفكار سان سيمون الاشتراكية، بفضل أتباعه، إلى عقيدة بهرت فرنسا الفتاة لحداثتها وتماسك أفكارها وآفاقها، التي تهدف لتحقيق التنمية الاقتصادية واقتسام ثمار العمل.

وعلى عكس بازار الذي كون معه، في البداية، قيادة مشتركة للحركة السان سيمونية، فقد عمل أنفانتان على التأكيد على أفكاره السلمية والإصلاحية والمناصرة للمرأة، إلى درجة الانشقاق عن الجمهوريين في نوفمبر عام ١٨٣١.



الأب أنفانتان زعيم السان سيمونيين.

رسم تخطيطي لكونييه Cogniet

وقد دفع أنصاره إلى الدخول في مغامرة طائفية، أسهمت في فقدان حظوة الحركة السان سيمونية، كما عملت على اتساع شهرتها. إلا أن اتخاذ بعض الإجراءات القمعية ضد حركته (مثل حظر الاجتماعات ورفع قضايا ضده واتهامه بأعمال منافية للأخلاق ومحاولة قلب النظام الاجتماعي) أدت إلى منع ممارسته لأنشطته النضالية في باريس. ومنذ ذلك الحين، لم يجد أتباع السان سيمونية مخرجًا سوى الانتشار في الضواحي وخارج فرنسا.

وفي الواقع، تعد حملة أنفانتان على مصر التي كانت بغرض تنفيذ مشروع قناة السويس، عودة "للنزعة الصناعية الأصيلة في مذهبهم".

ونتيجة لتجربته في "الشرق"، تم تعيين أنفانتان، في عام ١٨٣٩، عضوا في اللجنة العلمية للجزائر والتي تكونت على غرار اللجنة العلمية، التي أتى بها نابليون في حملته على مصر. وكان أنفانتان ينادي، سواء في تقاريره أو في جريدة "الجزائر"، التي أسسها في عام (١٨٤٥-١٨٤٦) لدعم أفكاره، إلى نشر نوع جديد من الاستعمار يخلو من العنف العسكري أو سيطرة ثقافية على الشعوب.

وعندما عاد إلى فرنسا عام ١٨٤١، وجد الأب صعوبة في رفع الحظر الملتصق باسمه. وفي عام ١٨٤٥، وبفضل مساعدة أرليس دوفور، تولى مسئولية توحيد العديد من شركات التنفيذ الإنشائية المهتمة بإنشاء خط سكة حديد يصل بين باريس وليون.

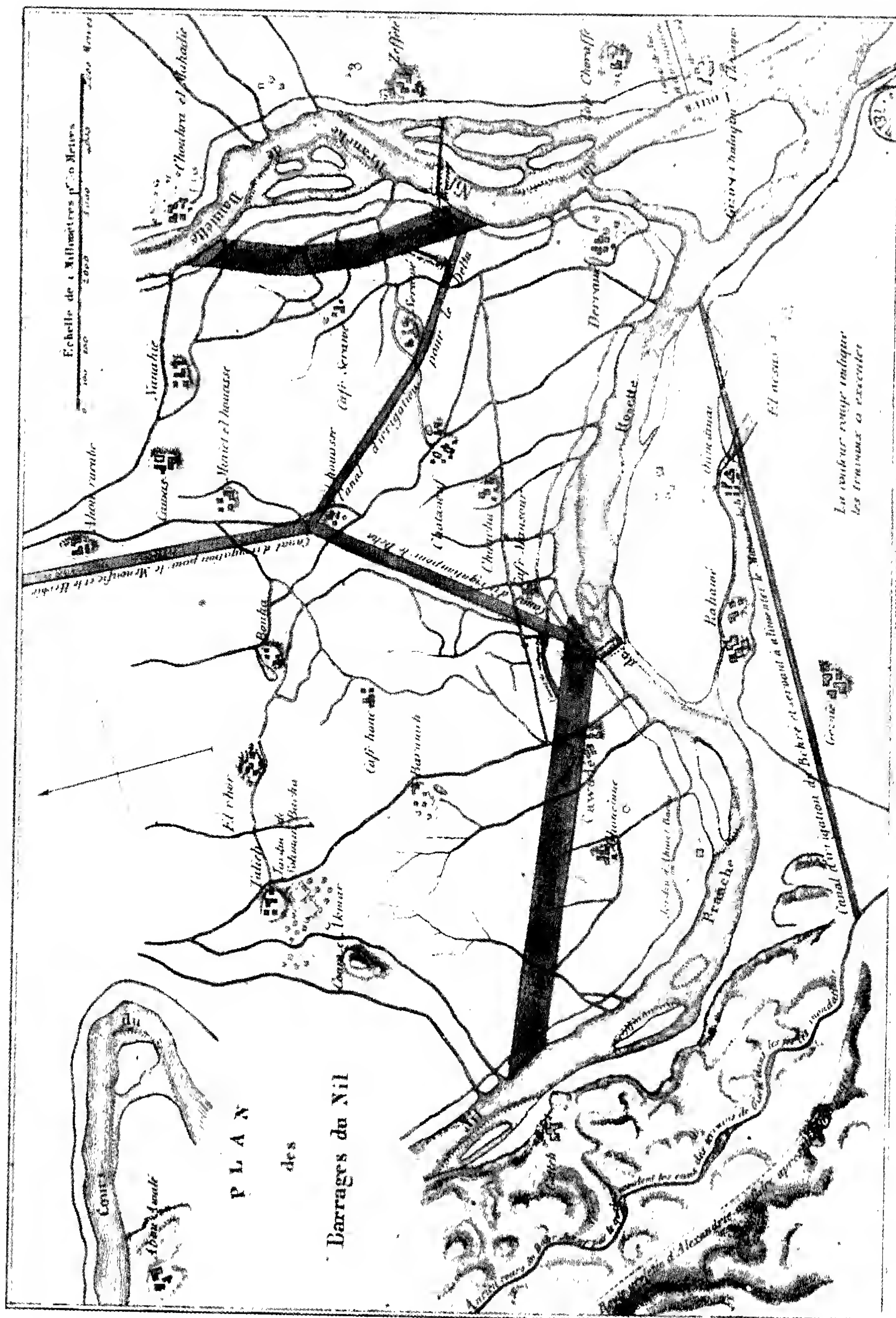
وقد كان ذلك منطلقًا لتوليه مناصب إدارية كبرى، توجت بتأسيس الشركة العامة للمياه في فرنسا عام ١٨٥٣، وتأسيس شركة السكك الحديدية باريس – ليون – مارسيليا.

وقد كانت آخر مشروعات أنفانتان، محاولته، في عام ١٨٦٠، إقامة مؤسسة "للائتمان الفكري" على غرار مؤسسة الإخوة بيرير للائتمان العقاري[٣].

الرسم التصميمي لقناطر النيل

كان لينان يهدف في البداية، إلى إنشاء القناطر على أرض يابسة، على فرشة خرسانية يتم تحويل مجري النيل إليها بعد ذلك.

"يتكون المشروع، كما يقول كلوت بك، من قنطرتين مزودتين ببوابات وعيون. وهناك عدد اثنين هاويس لصب فائض المياه في المجرى القديم، بالإضافة إلى ترعتين للملاحة وثلاث ترع كبرى تتفرع فيما وراء القناطر لتغذية الدلتا وهي الرياحات الثلاثة: أحدها لري أراضي الدلتا، والثاني لمحافظة البحيرة، والثالث لمحافظة الشرقية. كان من المقرر أن يتكون سد قنطرة فرع رشيد من ٢٤ قوسًا بعرض عشرة أمتار، إلى جانب قوس في الوسط عرضه ٣٤ مترًا، تظل دائمًا مفتوحة للسماح بتدفق المياه (٠٠). أما قناة الملاحة فسيكون عرضها ١٦ مترًا للسماح للسفن بعبور النهر في الفرع الصناعي مع تجنب العبور عن طريق القوس الكبير للقنطرة، نظرًا لخطورة وصعوبة المرور به بسبب قوة التيارات المائية الجارفة (٠٠). أما فرع دمياط فسيتم عليه إقامة سد قنطرة مكون من ١٦ قوسًا عرضها ١٠ أمتار إلى جانب قوس في وسط الجسر يظل أيضا مفتوحًا بصفة دائمة لتدفق المياه (٠٠٠). وفي وقت ارتفاع الفيضان، تظل القناطر مفتوحة فيما عدا الأهوسة التي تقوم بإغلاق قنوات الري، أما في وقت انخفاض الفيضان، فيجب أن تظل فتحات سدود القناطر والمصارف مغلقة، باستثناء القوسين الكبيرين وأهوسة قنوات الري".



Aperçu Général sur l'Egypte, T.II p. 480 - 481 خريطة تصميم قناطر النيل كما وردت في كتاب

وعندما أمر محمد علي بالبدء في تنفيذ المشروع وكلف به المهندس "موجل Mougel" سلمه لينان المشروع بأكمله بجميع الرسومات والمعلومات دون أدنى تعديل. إلا أن موجل اختار موقعا آخر للتنفيذ وحلولاً تقنية أخرى.

لينان دي بلفون

ولد لينان دي بلفون (١٧٩٩-١٨٨٣) في مدينة لوريان Lorient، وحسب تكوينه المهني كان يعمل ضابطًا بحريًّا. لكن نظرًا لشغفه بالجغرافيا، فقد صاحب "الكونت دي فوربن Le comte de Forbin" عام ١٨١٧ في رحلته الاستكشافية إلى الشرق واستقر في مصر، حيث قام بالعديد من الاستكشافات في الصعيد والنوبة. وعندما دخل في خدمة محمد علي في ١٣ مايو عام ١٨٣١، عينه مهندسًا للري في الصعيد حيث اكتسب خبرة كبيرة من إشرافه على إقامة بعض المشروعات أو إصلاح وصيانة البعض الآخر.

وقد كان هذا التراكم من المعارف التطبيقية هو رأسماله الذي جعل وجوده لا غنى عنه في جميع المشروعات الإنشائية، حتى أصبح الرجل الأول وكبير مهندسي الري في عهد محمد علي، إلى أن أصبح بمقدور المصريين الذين أرسلهم الباشا لتلقي العلم في فرنسا مثل مظهر وبهجت أن يخلفوه لإدارة دفة المشروعات.

بيد أن نقص إعداده العلمي والتكنولوجي، جعل المهندسين الذين تخرجوا في المدارس العليا يتفوقون عليه في بعض الأحيان. وقد ظهر ذلك في موقفين مع المهندس موجل Mougel: الموقف الأول عند عودة الأعمال لموقع إنشاء القناطر، والثاني عندما بدأ أعمال حفر قناة السويس.

لقد تبني لينان، دون أن يكون رسميًّا من أنصار السان سيمونيين، العناصر الأساسية لوجهة نظرهم الاشتراكية؛ وذلك نظرًا لاتصاله بلامبير وأصدقائه. وقد كان هذا سببًا في اتخاذه موقفًا ملتبسًا من "السخرة" التي طالما استنكرتها أوروبا حتى قام إسماعيل باشا بإلغائها رسميًّا. فبدلاً من المطالبة بفرض مزيد من الضرائب بدلاً عن السخرة، فقد نادي باستمرار هذا النمط من العمل مع تنظيمه طبقًا لمبادئ الاقتسام العادل لثمار العمل. فهو يرى، في الواقع، "أنه يجب معاملة الفلاح على أنه مشارك في العمل العام وهو استغلال المزرعة الكبرى (أي مصر)، ولهذا يجب تقسيم الإنتاج بين كل فرد طبقًا لعمله، باعتبار أن كل فرد مكلف بالمشاركة في الإنتاج".

وقد حدد لينان لنفسه وضعًا واضحًا داخل جماعة لامبير. فعندما حامت حوله شبهة الانفصال عن الجماعة لطموحات شخصية، صرح للامبير بأنه ليس سان سيمونيًّا بمعنى أنه "لا يتمهن هذا المذهب" و"لم

يفكر قط بصورة جدية في كيفية القيام بذلك"، لكنه أضاف: "إنكم تعلمون بالطبع أكثر مني، بما في داخلي من الأفكار السان سيمونية"(٤).

الأب أنفانتان ومعه [أدهم بك أو سليمان بك] ونفس الشخص وحده :

نرى على الصورة الأولى تعريفًا بالقلم الرصاص كتبه مجهول للشخصيتين على أنهما أنفانتان ولامبير. ولكن إذا كنا نتعرف بسهولة على أنفانتان في يسار الصورة، إلا أن الرجل البدين الذي يرتدي الطربوش، ويحمل رتبة كبيرة، لا يمكن أن يكون لامبير الذي عرفناه في عام ١٨٣٠. قد يكون أدهم بك الذي يطلق عليه السان سيمونيون، إعجابا به "الجنرال البدين". وقد يكون أيضًا سليمان - سيف، الذي كان في ذلك الوقت، عندما عرفه السان سيمونيون، لا يزال يحمل رتبة بك، لكنه كان على وشك الحصول علي رتبة باشا.

فالنجمتان والهلال هى شارة الجنرال (أو أميرلاي) وهي لا تمنح حاملها سوى رتبة البكوية. بيد أننا نلحظ على الحزام، شارة سلاح المدفعية وهي (المدفعان المتقاطعان)، وكان هذا سلاح أدهم بك، أما سليمان بك فقد كان يتبع سلاح المشاة(٥).

وعلى كل حال، فالرجل الذي يظهر في الصورة كان مرتديا الزي النظامي، وكان يدخن غليونه ويظهر حاملاً صفات العِلْم وهي: أوراق عليها أشكال هندسية، وريشة وفرجار وتظهر بعض الكتب المتناثرة أمامه على الأريكة.

وتوجد نسخة أخرى من هذه الصورة نشرت فى كتاب D'Allemagne تنسب هذه لماشرو لكن لا يظهر بها الغليون، ولا هذه النافذة المفتوحة على النخيل ولا منارة المسجد، لكن فقط بعض الأوراق الهندسية الإضافية المتناثرة.



صورة للقس أنفانتان وبجانبه شخصية أخرى في أغلب الظن لأدهم بك أو سليمان بك
الرسم في الغالب لماشرو Machereau.

0, 13×0, 20. Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal



صورة لشخصية مجهولة. رسم بالرصاص لمجهول، أغلب الظن لماشرو **Machereau**.

0, 30×0, 21. Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal

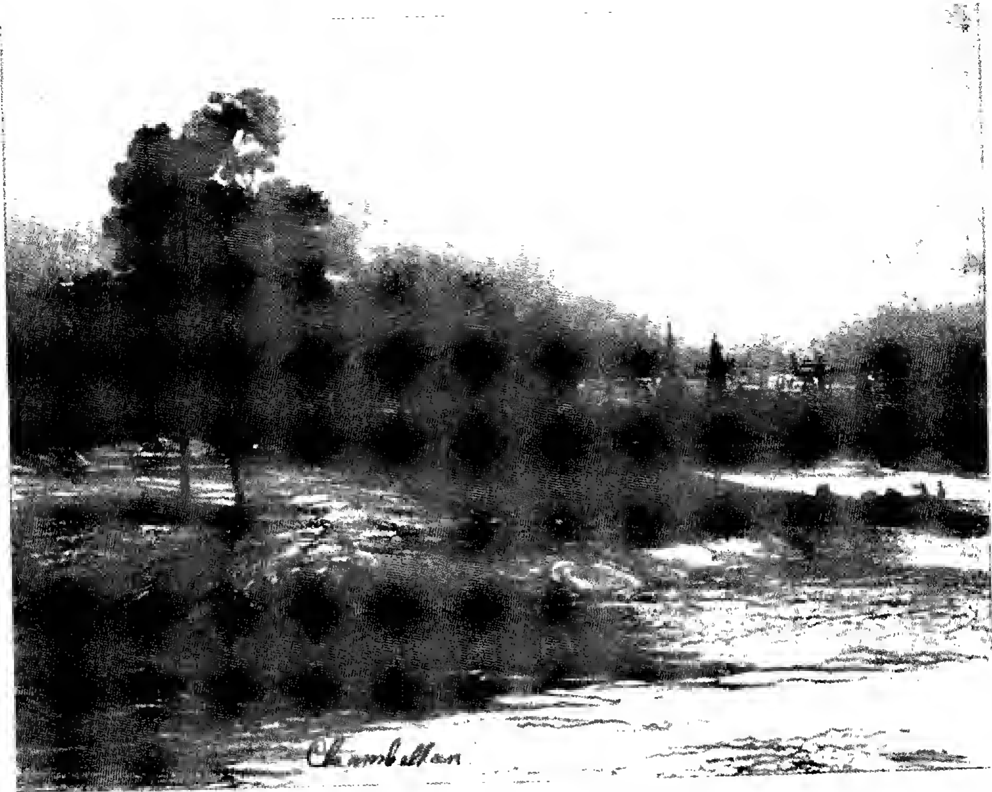
صورة مدينة سان سيمون الجديدة

عندما دعى أنفانتان هوارت وبرونو للحاق به من أجل إنشاء قناطر النيل، تخيل وقتها أن موقع العمل والأنشطة، التي سترتبط بتنفيذ المشروع الجديد، سيكون من شأنه مولد مدينة جديدة.

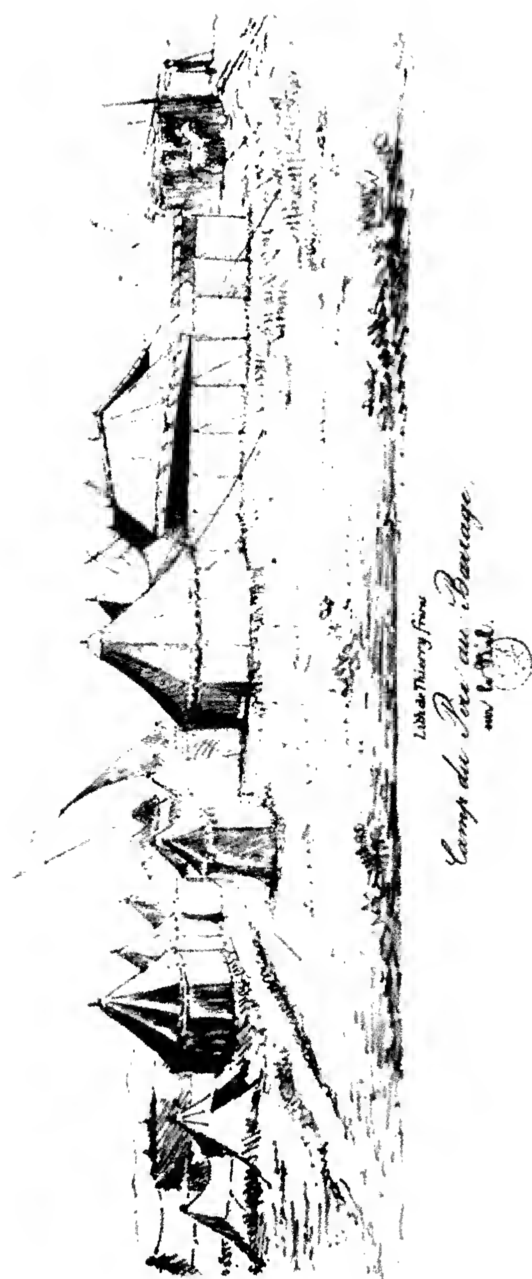
فقد أرسل أنفانتان صورة لموقع القناطر وصفه لزملائه بإعجاب قائلاً:

"ها هو الموقع، وها هي ورشتي المعمارية، هنا سنتعلم من ذكرياتنا في الغرب ومن الذوق العربي ومن أفكارنا وأحلامنا للمستقبل، هنا ستتشكل هيئتنا الجديدة، وستعلو أمام تلك الأهرامات العريقة، تمامًا مثل أفكارنا التي ارتفعت عاليًا بفضل الصحافة و"الكتاب الجديد" فوق باريس منارة العلم"[٦].

وإلى جانب قياسه لمستويات النيل وتصميمه لرسومات "مدرسة الهندسة المدنية"، لم ينسَ أنفانتان قصيدة دوفيربيه، كما صورها ماشرو (انظر الفصل الثاني، صورة معبد المرأة) فالأشكال الغريبة، نصف الغربية ونصف الشرقية، التي رسمها شامبلان **Chambellan** في هذه الصورة تشهد بانتشار هذه اليوتوبيا وتعمل على التحام نهر السين بنهر النيل.



مدينة سان سيمون الجديدة. رسم "Chambellan" وردت في "Le charivari" الجزء الثاني رقم١٩٠، ٨ يونيو ١٨٣٣



معسكر الأب أنفانتان في موقع القناطر على النيل. [رسمها لينان]

0, 20×0, 26. Fonds Enfantin, Biblithèque de l'Arsenal

صورة معسكر الأب أنفانتان في موقع القناطر

توجد أكثر من نسخة، جميعها تتشابه مع هذا الرسم. واحدة باسم "معسكر قناطر النيل" وموقعة باسم لينان ١٨٣٦[٧]. فلينان دي بلفون هو إذن الذي لبى الطلب الذي وجهه أنفانتان لماشرو برسم بعض المناظر للموقع، حتى يتم طبع نسخ منها وتوزيعها. وعندما اقترح أنفانتان هذه المبادرة، وصفها بأنها "وسيلة جيدة جدا للترويج بدون كلام للقناطر وهو أمر طيب"[٨]. وقد كان الغرض من هذا الرسم حث فرنسا على إرسال متطوعين أكثر إلى مصر. فرسم لينان لا يبين سوى مكان إقامة الأب وهو الخيمة المستديرة، التي بالمقدمة والتي يبلغ قطرها ١٥ قدما. ولا يظهر بالصورة للأسف أي عمال في الموقع.

وفي الخامس عشر من أغسطس عام ١٨٣٤، يوم ميلاد نابليون بونابارت، استقبل أنفانتان في هذا المعسكر سليمان باشا وأدهم بك ومختار بك ومحمود بك، وحقيقيان والطبيب الأرمني ديبادجي **Debadji** ومصطفي أفندي وأحمد البارودي ورشوان أفندي (مهندسون يعملون بالمشروع). أما المدعوون الفرنسيون، فهم: بارو وبوفور **Beaufort** (ضابط فرنسي مجند) وبران **Brun** سكرتير سليمان باشا وكونيا ولامبير ولينان وأوليفيه وبراكس، وعلى طاولة الشرف كان يجلس فرديناند دي ليسيبس. وقد شرب المدعوون نخب هذه المناسبة أفخر أنواع الخمور الفرنسية: ١٦ زجاجة شامبانيا و١٥ زجاجة نبيذ بورجوني وعشر زجاجات نبيذ بروفانس، بخلاف أنواع النبيذ الأخرى العادية. وقد نظم أنفانتان، بهذه المناسبة، بيتًا من الشعر الرومانسي ذى الاثني عشر مقطعًا يلخص فيه حلبة السكر، فيقول:

"شرب واحد فقط حتى الثمالة والباقون ثقلت بطونهم من كثرة الخمر"، وتم ذبح شاة بهذه المناسبة، ثم قام محمود بك وأدهم بك ومختار بك وسليمان باشا، لوضع حجر الأساس لمدرسة الهندسة المدنية بحفر الحروف الأولى من اسم نابليون ومحمد علي، ومحمود بك وإبراهيم باشا على حجر الأساس[٩].

هوارت

ولد بيير دينيس هوارت في باريس عام ١٧٩٥، وتخرج في مدرسة الهندسة العليا عام ١٨١٢، وكان زميلاً لأنفانتان وبرونو في الدراسة. التحق بالجيش حتى وصل لرتبة نقيب بسلاح المدفعية. عين مشرفًا على الكنيسة السان سيمونية بمدينة تولوز، قبل أن يستقيل من الجيش في يونيو عام ١٨٣٠ للعمل في نشر إيمانه السان سيموني في أنحاء فرنسا.



هوارت تصوير بتوقيع كاسيان
0, 36 × 0, 27
Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal

وعندما سجن أنفانتان، تولى هوارت وبرونو قيادة المناضلين السان سيمونيين في بعض المواقع الصناعية بمنطقة ليون، ليشاركوا العمال الكادحين أوضاعهم، وتم إطلاق لقب "كابتن" على هوارت وبرونو نظرا لرتبتهما القديمة بالجيش وثبات روح الانضباط لديهما، لذا كانا الأقدر على تولي مهمة تعليم "جيش العمال السلمي" على ضفاف النيل.

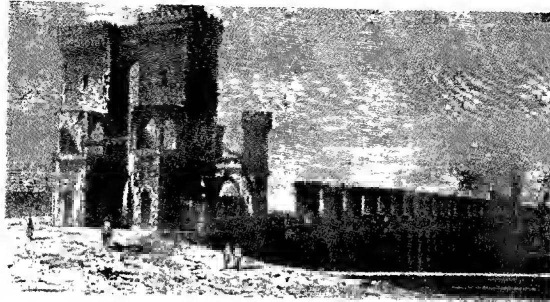
ويظهر هوارت، في الصورة، بزي مدينة منلمونتان وكتب اسمه على الزي بطريقة خاطئة **Hoard** بدلاً من **Hoart** (١٠)

قناطر موجل بك

في عام ١٨٤٢، عندما اطمأن محمد علي على توريث حكمه لابنه إبراهيم باشا، وعندما توفرت لديه موارد كبيرة نتيجة لتوقف الحروب وعودة السلام، عاودته فكرة إنشاء قناطر على النيل.

لكنه عهد بمسئولية الإنشاء، هذه المرة، للمهندس الفرنسى موجل الذي ثبتت جدارته في إعداد حوض جاف لترميم وإصلاح السفن بالإسكندرية.

وفي عام ١٨٤٣، سلم لينان جميع تصميمات المشروع الأول لموجل. وأجريت تعديلات كثيرة في الدراسة والتصميمات، التي كانت ترسل لمجلس الطرق والكباري بفرنسا، حيث كان بولان تالابو يدعم المشروع(١١). وفي عام ١٨٤٧، وضع محمد علي حجر أساس القناطر بحضور قناصل الدول ومجلس إدارته العليا ومن بينهم لامبير.



قناطر موجل بك، وردت فى جورج إيبرس بعنوان "*L'Egypte*"
ترجمة سبيرو، باريس 1880، الجزء الثاني، ص 17

وقد اختار موجل، لإقامة المشروع، موقعًا أعلى من الموقع الأول الذي اختاره لينان، عند مستوى جزيرة شلقان. وقد لاحظ لينان أن موجل يبنى القناطر في مجرى النهر وليس على أرض يابسة كما كان مقررًا. وقد استحضر الآلات والعمال المهرة والمهندسين من أوروبا. ونظرًا لصب الخرسانة أكثر من مرة، فإن فتحات السدود كانت تغلق بصعوبة. وفي إبريل عام ١٨٥٣، نُحِّيَ موجل عن إدارة المشروع الذي لم يكن قد انتهى من إتمامه وكُلِّف مظهر بك بالإشراف عليه(١٢). فإلى جانب

وظيفة القناطر في تنظيم مياه النهر للملاحة وتدفق المياه اللازمة للري والزراعة. فإنها كانت تستخدم كمعبر وكحصن لحماية شمال القاهرة.

وقد كلف لينان بالإشراف على شق الترع المتفرعة من القناطر. وقد أشار القنصل بارو **Barrot** أن لينان كان دائم الانشغال بتوفير إعانة مادية للعمال ولا سيما الغذاء الكافي، وتنظيم عمليات "إسعاف" لتجنب تجدد المآسي التي دفع ثمنها الفلاحون في أثناء شق ترعة المحمودية[٢٣].

****

الهوامش

(1) Voir les lettres arabes et ottomanes conservées en F.E., MS 7.626.

(٢) كان الجيش الخاص بالبلاط الملكي ينفق على بعض الطلاب.

(3) 3 F.E., MS 7.655/42 ; d'Allemagne (voir Bibliographie) ; J.-P. Alem, Enfantin, le prophète aux sept visages, Paris, Pauvert, 1964.

(4) 4 « Mémoire sur les principaux travaux d'utilité publique exécutés en Egypte depuis la plus haute antiquité jusqu'à nos jours, pp. 40-45 ; F.E., MS 7.671/200 ; Archives des Affaires Étrangères, Correspondance commerciale des consuls, Alexandrie, vol. 28, p.326 et suiv.

(٥) قام الرسام الألماني G. Alleaum d'Allemagne برسم هذه الصورة وقد عرف هذه الشخصية بأنها لمحمود باشا دون دليل أو أسباب معروفة.

(6) Lettre du 18 novembre 1833, F.E., MS 7.669/26.

(٧) تم التأكد من التوقيع بناء على رسالة بعثها أنفانتان يصرح فيها بأنه سيطلب من لينان دي بلفون بعمل رسم تخطيطي لخيمته. F.E., MS 7.667/123

(8) Lettre à Lambert du 27 juillet 1834, F.E., MS 7.670/241.

(9) F.E., MS 7.676L127 (récit d'Enfantin).

(10) Procès ; F.E., MS 7.733/2 et suiv.

(11) F.E., MS 7.740/43 à 69.

(12) Mémoire… de Linant, p. 458 et suiv., et p. 464.

(13) Archives des affaires étrangères, Egypte (1847-1848), t. XIX, ff. 26-27.

الفصل الخامس

اندماج السان سيمونيين ونشاطهم في المجتمع المصري

"الهدف القومي من تأسيس مدارس في مصر، مع إدراج ما يتناسب مع هذا البلد من حضارة أوروبية، هو دفع السكان إلى المشاركة في الأشغال العمومية المهمة مثل الترع والكباري والمناجم، وأن نضع بين أيديهم المقاليد العامة للعلم والصناعة".

(تقرير شارل لامبير إلى والي مصر عن مدرسة المهندسخانة ببولاق عام ١٢٦٢هـ).

إن اتساع آفاق العمل العام الجماعي التي فتح محمد علي أبوابها على مصراعيها أمام جماعة السان سيمونيين، والحضور الطاغي للأب أنفانتان، يخفيان أحيانا الأعمال والمسارات الفردية والعلاقات الشخصية والواقع اليومي المعيش والفريد للتبادل الثقافي.

وحتى ندرك هذا المستوى من واقع وجود السان سيمونيين في مصر، يتعين في البداية، أن نقوم بتجميع المعلومات الصغيرة المتعددة التي صاحبت وجودهم والتي لن يكون لها مدلول واضح إلا عندما ندرسها كوحدة متكاملة. ولهذا السبب أراد السان سيمونيون أن يبدأ التكيف مع المجتمع المصري بشكل واضح في اختيار الملابس وتعلم اللغة العربية والسلوك الديني.

فإخلاصهم في العمل وأهدافهم التعاونية لا يمكن تقييمها دون اللجوء إلى جميع المبادرات المبعثرة التي قاموا بها، والتي لم تكن دائمًا تكلل بالنجاح: فماذا كان السان سيمونيون يريدون؟ وماذا فعلوا لتحسين أوضاع المرأة في المجتمع؟ وماذا فعل الأطباء لتخفيف آلام المرضى ونقل علمهم إلى الناس؟ وماذا فعل المزارعون لتحديث التقنيات الزراعية؟ وماذا فعل الفنانون لتعريف الناس بفنهم؟

إن ما لا نعرفه، على الرغم من أهميته الكبيرة، هو أولئك الذين بقوا من السان سيمونيين فبعد مغادرة أنفانتان، وطوال ما يقرب من عشرين عامًا، بعض الحواريين انخرطوا في العمل العام والتفوا حول شارل لامبير، قاموا بدأب بإدخال بعض التحسينات التي كانت حملتهم الجماعية قد شرعت فيها. إن هذه الأعمال يصعب إخراجها من النسيان، فهي راسخة في أعماق المجتمع المصري، سواء لاستمرارها لفترة طويلة، أو بسبب نجاحهم في توطيد أواصر المحبة والصداقة مع أفراد هذا المجتمع.

°°°°°°°°°°

بفضل إدراكه لأهمية الزيّ الرسمي الذي يشكل جزءًا من الهوية المصرية، أصدر محمد علي أمرًا واضحًا لكلوت بك وتلاميذه، في عام ١٨٣٢، عندما أرسلهم في بعثة إلى فرنسا، بضرورة حفاظ

اعضاء البعثة على زيهم(١). ففي رسالة كتبها دوجيه **Duguet** للامبير، عام ١٨٣٤، عن محمد بيومي، يقول فيها: "لعلك لا تنسى شكله عندما جاء يومًا بالزيّ التركي لحضور احتفالنا في شارع مون سينيه **Monsigny**. فهو، على الأقل، لا ينسى هذا اليوم"(٢). وعندما أتى السان سيمونيون لمحمد علي كي يجعلوه يرى زيّ منلمونتان وزيّ بعثة الشرق، بالإضافة لزيّ مدرسة المناجم، كانوا يردون التحية.

بيد أن ميلهم للتطبع بالطابع الشرقي لم يلبث أن ظهر بوضوح في إضفاء بعض الألوان والأشكال على ملابسهم المستوحاة من المجتمع المصري. ويجب أن نعلم أن الأب أنفانتان هو أول من بدأ هذا التحول. ففي رسالة بتاريخ ١٦ إبريل عام ١٨٣٤، وبينما كان يستعد لتسلم منصبه، في الدلتا، كمهندس متطوع، أعلن أنفانتان أنه طلب تفصيل "زيّ جديد" بمناسبة هذه الوظيفة. يقول في الرسالة:

"لن يختلف الزيُّ الجديد عن القديم كثيرًا سوى في اللون الذي سيكون (أحمر بلون الكرز مثل الزيّ الذي رآه دوجيه على محمود بك) والسروال سيكون واسعًا من أسفل ولونه أبيض، ولكنه مصمم على الطراز الأوروبي، أما الصدار فسيكون باللون الأبيض مثل الزي النظامي، ولكني سأحتفظ بالحزام الأسود والتنورة (هكذا)، اللذين سيحفظان لنا سمات شخصيتنا. أما الرأس، فهذا مًا يحيرني بعض الشيء. ولكنني سأتغلب على هذه المشكلة، لن أرتدي الطربوش ولن أحلق شعري، هذا، على الأقل ما أعتقده وآمله"(٣).

وقد كانت النتيجة النهائية، في الحقيقة، أن الزيّ كان قريب الشبه بالزي النظامي، أي الزيّ الذي فرضه محمد علي بقانون، منذ سنوات قليلة، على الجيش وكان يرتديه هو نفسه. وإلى جانب ما وصفه، في الرسالة السابقة، لمكونات الزيّ، وإلى جانب الدمج بين اللونين الأبيض والأحمر، الشائع في ملابس الضباط المصريين، وملابس رابطة "رفاق المرأة"، فالزيّ كان يتضمن أيضًا طربوشًا من صوف الكشمير وبرنسًا أبيض طويلاً، وحذاء من الجلد الأحمر وتحته جورب أصفر(٤).

بيد أنه لرغبته في توفير المصروفات أو لمزيد من السهولة والراحة في الملبس، أو بالأحرى للرغبة في الحياة على طريقة أهل البلد، كل ذلك دفع أنفانتان، خلال صيف عام ١٨٣٥، إلى اختيار الجلباب العربي البسيط كزيّ له. وعندما سافر إلى الكرنك، بصعيد مصر، فرارًا من الطاعون، شرع الأب – إلى جانب تعلمه اللغة العربية وقراءة وكتابة القرآن الكريم – في الالتزام، بالتقشف الإسلامى "لا نبيذ ولا مشروبات روحية، فقط كثير من اللبن"، كما اتخذ هيئة واحد من البدو: "قميصًا وسروالاً واسعًا وشعرًا محلوقًا حالك السواد"(٥).

وفي ذلك الوقت، قرر لامبير الذي كان آنذاك في مهمة استكشافية في القصير، ارتداء الزيّ الإلزامي للموظف التركي، أي زي النظام، الذي يتناسب مع منصبه كمهندس مناجم في خدمة الباشا(٦). لكنه يصف نفسه أيضًا بهذه المناسبة، أنه يمشي في الصحراء "نحيلاً، وأسود اللون ومحروقًا" مرتديًا "سروالاً وقميصًا رمادي اللون مثل العرب" وعاري الساعد والساق(٧).

وفي الخريف، عندما عاد أنفانتان إلى القاهرة، احتفظ، في البداية بزيّ الفلاحين حتى عند زيارته للبكوات. ولكن عندما "لم يعد يشعر بالحاجة إلى التفرد"، قرر حلق لحيته وارتداء زيّ الأثرياء، أي الزيّ النظامى بما فى ذلك وضع السيف على أحد الجانبين. وكانت هذه أيضًا هي هيئة روجيه وماسول(٨) وكذلك توماس أوربان في شهر مايو من العام المنصرم(٩).

والحقيقة أن زيَّ السان سيمونيين كان، على العكس، قد ألهم زيَّ المدارس العليا. ففي عام ١٨٣٧، إبان الحركة المطالبة "بالعودة للزيّ الإسلامي" وعندما صدرت الأوامر للتلاميذ بارتداء "الزيّ التركي"، تساءل لامبير عن مصير الحزام الجلد الذي تم استخدامه تحت التأثير الجماعى للجماعة، قائلاً:

"هل هذا الحزام الذي انتشر بين جماعتنا لثلاثة أعوام رمز للنظام كعلامة على الانضباط مستعارة من هذا الذي بدأ في مدرسة بولاق ثم ساد جميع المدارس لا سيما مدرسة طرة، هل سيكون مصيره النسيان مثل مصير من ابتدعه؟ إنه الرمز، دائمًا الرمز، وا أسفاه!" (١٠).

أما فيما يتعلق بتعلم اللغة العربية، رغم عدم إمكانية إجراء إحصاء كامل أو تقييم للمستويات التي تحققت في هذا المجال، يتعين أن نذكر أن هناك العديد من كبار المستعربين في صفوف السان سيمونيين.

بيرون وأوربان معروفان. ولا يجب أن ننسى، في هذا الصدد، نويل Noêl الذي تعلم على يد الشيخ رفاعة الطهطاوي عام ١٨٣٤، وعمل بعد ذلك صيدلانيًا في مستشفى أبي زعبل قبل أن يسافر إلى بيروت عام ١٨٣٧ للعمل كمدرس للغة العربية ولتعلم اللغة التركية(١١).

أما برونو، فلأسباب مهنية، قرر أن يتعلم التركية أولاً (كان يريد قراءة قواعد العمليات العسكرية ومعرفة جودة الترجمة) ثم تعلم بعد ذلك العربية، فها هو يقول: "لا مفر من ذلك، فالمدارس لا تعين إلا العرب". إلا أن رغبته في تعلم العربية ليكون قادرًا على التدريس لتلاميذه بلغتهم الأم، سريعًا ما اصطدمت بعقبه كبيرة.

فلقد أدرك "أن هناك ثلاث لغات عربية" اللغة العامية"، وهي اللغة الدارجة التي "تتكون من مفردات قليلة مما يجعلها عاجزة عن التعبير عن جميع الأفكار بطريقة واضحة ومحددة"، واللغة "المتوسطة" وهي "كافية لذلك ومكتوبة وتستخدم في جميع المواد المترجمة التي يدرسها التلاميذ"، واللغة "الفصحى" لغة القرآن وهي لغة "يتقنها الفقهاء ومراجعو الترجمات الذين يستعينون بهذه اللغة في تصحيح اللغة العربية الرديئة، على حد قولهم، ولكنهم يجعلون الترجمة غير مفهومة على الإطلاق". ولهذا السبب تراجع "برونو" عن تعلم اللغة العربية الأدبية، فهو يرى أنها لن تعود عليه بفائدة، فتركها للعلماء، كما يعترف قائلاً: "حتى يتمكنوا من العثور على لغة علمية معقولة ومفهومة"(١٢).

أما لامبير الذي يعترف بأنه أقل موهبة في تعلم اللغة، فقد حصل أيضًا على دروس في اللغة العربية للأسباب التربوية السابق ذكرها. وهذا واقع يشير إلى وجود شرائح وطنية واجتماعية ولغوية يتعين تخطيها في مجال التعليم، بدءًا من المعلمين حتى التلاميذ، وهي أنه كان يدرس تحت إشراف المراجع العام لمدرسة المهندسخانة ببولاق ومعه من أطلق عليهم اسم "الشباب الأربعة"، وهم المدرسون المكلف بالإشراف عليهم "عبد الرحمن وبيومي ودوجلي(١٣) وطائل". هؤلاء كانوا يجمعون بين الثقافتين التركية والفرنسية معًا وتلقوا من لامبير بالفرنسية علمًا وجدوا صعوبة في نقله إلى العربية.

إلا أن الحاجز الذى يصعب تخطيه في طريق اندماج السان سيمونيين في المجتمع المصري، كان بالطبع الدين.

ولد توماس أوربان في جويانا الفرنسية، وهو ابن غير شرعي لبحـــار تاجر بمدينة لاسيوتـــا La Ciotat وترجع جذوره القديمة إلى أحد العبيد السود. وكان أوربان أول من اتخذ قرارًا باعتناق الدين الإسلامي من بين البعثة السان سيمونية، وكان ذلك في الثامن من مايو عام ١٨٣٥.

كان أوربان يعمل، في بداية الأمر، مدرسًا للغة الفرنسية بالمدرسة الحربية بدمياط، وأصيب بالاكتئاب بسبب وفاة امرأتين كان شديد التعلق بهما. وكانت هاتان السيدتان أقرب إلى الإسلام من المسيحية وهما: حليمة، جارية سوداء كان اشتراها وتزوجها د. دوساب **Dr. Dussap** وأحبها أوربان وساعده حبها على العثور على جذوره القديمة. أما الثانية، فهي ابنتها هانم، التي اعتقد أنه سيجد عندها سلوته بعد فقدان الأم.

ويبدو أن اعتناق أوربان الإسلام كان محفورًا فى مساره الشخصى، فهو وسيلة للحفاظ على علاقاته العاطفية وإعادة وصل ما انقطع مع أسلافه. وقد لفت أوربان إليه الأنظار لا سيما في اختيار اسمه الجديد، باعتباره دليلاً على هويته المسلمة، فقد أطلق على نفسه اسم "إسماعيل، ابن الجارية، التي حملت سفاحًا وتركه أبوه" واستطاع العثور، كما تروى السيَر، على المنبع المقدس. إلا أنه فور تخطيه مرحلة اكتشاف أسرار هذا الدين الجديد، عندما كان يقول: "إنني أشعر حقًّا أنها يد الله التي تدفعني"، المعنى الثقافي لاعتناقه الإسلام. فلقد كان هدف أوربان، هذا الرجل الملون، هو أن يحقق في ذاته، التوحد بين الشرق والغرب، وأن" يربط فعليًا بالإيمان المسيحيين بالمسلمين ". فقد كان دائمًا يقول "إنني فعلت هذا من أجل الشعب العربي (...) الذي لديه كثير من الأفكار المسبقة ضد حضارتنا – ويصرُّ قائلاً – من أجله فعلت هذا، وليس من أجل الأتراك. ولقد أراد أوربان أن يكون أول فرنسى وأول سان سيمونى مسلم". وقد أبلغ أوربان قنصل فرنسا في مصر برغبته، على غير العادة في مثل هذه الأمور، في الاحتفاظ بجنسيته الفرنسية على الرغم مما سوف يسببه هذا من صعوبات قانونية. إلاَّ أن إيمانه كمسلم يدفعه لإنكار إيمانه السان سيموني بأنفانتان كنبيٍّ حيّ. فإلى جانب ممارسته للفروض الخمسة ودراسته للعقيدة الإسلامية، كان لأوربان تصور خاص عن وضعه يرى أنه يشبه المحول، فهو لا

يتخيل أن هناك ديانة تستطيع أن تظل جامدة للأبد. فقد كتب في هذا الموضوع قائلاً :"الدين الإسلامي لن يتغير إلا بعمل صناعي كبير يدمج جهد العمل بالدين، ولكن الدين كما هو موجود والذى يتغير أولاً بأول بقدر ما تسمح به الأعمال المنجزة".

وعلى الفور، أشهر أوربان رسميًا إسلامه أمام الشيخ عبد الوهاب، إمام مدرسة دمياط، وبحضور اليوزباشي خليل أفندي (ناظر المدرسة الحربية) والربان هلمس أغا. وبعد إشهاره للإسلام، قام وفد رفيع المستوى يضم "الشيخ علي الخفاجي وقاضي دمياط وهيئة كبار العلماء بالمدينة" بزيارته. وعلى الرغم من أن إشهاره للإسلام، كان ينظر إليه على أنه مجرد وسيلة طموحة للحصول على رتبة تركية كبيرة، فإن الشيخ علي الخفاجي، أباه الروحي، كان يقدره لدرجة تزكيته عند شيخ الجامع الأزهر الذي يناظر مكانة السوربون في فرنسا، إبان العصور الوسطى، في مجال اللاهوت والعلوم[٦٤].

وقد كانت أيضًا هذه الرغبة في الاندماج في المجتمع المصري هي الدافع وراء الاعتناق المواكب زمنيًا لكل من "براكس" و"ماشرو"[٦٥] وطبقًا لما ذكرته "سوزان فولكان"، فإن ماشرو قد أشهر إسلامه لغرض الزواج من امرأة مصرية كان يحبها. وأضافت سوزان التي كانت لا تنظر بعين الرضا لهذا التحول الديني، بأن ماشرو كان مقتنعًا بأنه كان يسكن الشرق فى سابقة[٦٦]، بحيث بدا إشهاره للإسلام كتجسيد لاندماج تلقائي. كما أن اختياره لاسم "محمد المهدي" كان بهدف إظهار أن الاعتبارات الاجتماعية والنبوية تحركه بنفس قدر الأهداف العاطفية[٦٧].

أما براكس، وهو ضابط مهندس بحري، فيروي أنه كان يتبع جيش الحجاز باعتباره بكباشيًا صيدليًا، ولم يتحمل فكرة أن يبقى خارج مكة "مثل الكلب" بينما فرقته كانت قد دخلتها. وحتى لا يظن البعض أن اتخاذه قرار اعتناق الإسلام كان قرارًا متسرعًا، فقد سبق قراره ما وصفه فيما بعد بأنه علامات مبشرة (مثل لقائه بأحد الحجاج الذي أخبره برغبته بأن يحج هو أيضًا، ورؤيته في المنام لمعبد كبير في طريق السويس، عرف بعد ذلك أنه المسجد الحرام بمكة).

وبعيدًا عن هذه الاتجاهات الروحانية، جاء اعتناق براكس للإسلام نتيجة فشل عاطفى (حبه لأجاريث كوسيديير **Agarithe Caussidière** التي فضلت عليه كونيا)، هذا إلى جانب طرده من الجالية الفرنسية بالقاهرة عقب مشاجرة نشبت بينه وبين قنصل فرنسا تيبل بسبب قضية دوساب – ڤوالكان، وكان نتيجتها أن أرغم على الاختيار بين عودته لفرنسا بالقوة أو إبعادة في الحجاز. إلا أن هناك ملحوظة حميمة وردت فى قضية "عبد الرحمن أفندي" بعنوان "لماذا أصبحت مسلمًا" تقدم تفسيرًا يتجاوز حالته الشخصية:

"اليوم أتعلم حياة جديدة لا يفهمها أغلبنا (ويقصد هنا السان سيمونيين) لأنه منذ وجودنا في الشرق، أي منذ عامين، خطونا خطوات قليلة، وقدمنا القليل وحصلنا على القليل. حصلنا على القليل نظرًا لكوننا مسيحيين وغربيين، ثم وضعنا دائمًا فى صف جنس لقيط اسمه الجنس الإفرنجى"[٦٨].

****

إن دراسة مختلف المبادرات الفردية المناضلة في العديد من المجالات مثل (وضع المرأة والطب والزراعة والفنون الجميلة) تؤكد، بطريقة أو بأخرى، هذا التقرير أو هذا التحليل المتشائم الذي ذكره براكس وهو: "أنه دون تأييد صريح وفعال من جانب سلطات الدولة، فإن اندماج السان سيمونيين في المجتمع المصري سيبوء بالفشل".

والحق يقال، إن خطوات وجهود السان سيمونيين فيما يتعلق بقضية المرأة في مصر كان يشوبها، في البداية، بعض الغموض بشأن موقف القادة من الرجال تجاه نساء الحركة. فعلى الرغم من تصريح أنفانتان برفع "الاستبعاد" عن اللائى كان يهمشهن، من أجل منحهن الحرية الكاملة، وعلى الرغم من دعوتهن للعمل بأنفسهن على تحرير أخواتهن في الشرق، فإنه رفض منحهن أى نوع من التعليم، أو أن يصرح بوضوح إذا كان عليهن اللحاق به في مصر أم لا(١٩). وقد ترددت صوفيا لامبير **Sophie Lambert**، شقيقة شارل لامبير، في المشاركة خوفًا من أن يقتصر عملها على الأعباء المنزلية مثل "الرعاية، وترتيب المنزل وتحضير الطعام" .... أما بولين رولان **Pauline Roland**، البطلة الثورية الجمهورية فيما بعد، فقد رفضت صراحة، بسبب عدم وجود أي عمل "اجتماعي" مطروح أمام نزعتها لحب الإنسانية(٢٠).

أما رائدة هذه الحركة النسائية، فقد كانت كلوريند **Clorinde** زوجة روجيه الشابة الجميلة. فقد وضعت كدليل على شدة إيمانها، عقدًا أسود به شارة من الفضة كُتب عليها La femme de la Mère(٢١) أي " امراة الأم". لقد كانت كلوريند ترأس جماعة من نساء مدينة ليون، انضمت دون تحفظ للحركة، وتبنت مثلها مثل أصدقائها ومثل رفاق الحركة الحكم المسبق أن المرأة في الشرق تعيش حياة مغلقة مثل السجينات. وقد سافرت كلوريند إلى مصر وهي مقتنعة بأنها تتوجه لتحرير المرأة في المكان الذي "تعامل فيه كجارية". وقد ذكرت بلغتها الدينية المسيحية بأنها تحمل ذنوب" أخواتها في الشرق وترقيهن أخلاقيًا. وعندما وصلت إلى القاهرة، في نهاية شهر ديسمبر عام ١٨٣٣، عملت على تجميع بعض الحواريين تحت شعار "جماعة فرسان المرأة". وكانت تكسب قوتها من العمل كمربية خاصة بمنزل إحدى الأسر الفرنسية وهي أسرة بونفور **Bonfort**. والحق يقال، فإن تجربة تعليم الفتيات التي تعد إحدى المهن النادرة المتاحة، في ذلك العصر، أمام النساء في فرنسا، هي التي أوحت لكلوريند بفكرة العمل على تحرير النساء المصريات من خلال هذا السبيل. وبعد نضال طويل، استطاعت كلوريند، كما تقول، الحصول من والي مصر ومن ابنه إبراهيم باشا على ما لم تحاول أي امرأة قبلها الحصول عليه وهو: "التصريح بإنشاء منزل كبير، أي حرملك، لتعليم الجواري بمختلف ظروفهن وبمختلف جنسياتهن"(٢٢).

بيد أن جوندريه **Gondret** قد روى هذا الموضوع بطريقة مختلفة بعض الشيء. فطبقًا لما ذكره، "اضطرت كلوريند من أجل النساء لقبول اقتراح لازم بإنشاء حريم، وفي هذه الحالة، يرسل إليها إبراهيم باشا عشر فتيات صغيرات من الأتراك لتربيتهن". أتراك، أم جوارٍ؟ على أية حال، فإن هذا

النمط الشرقي يجب أن يخضع لتعليم فرنسي بحت يتمثل في "تعليم القراءة والكتابة والحساب باللغة الفرنسية"، وبعد اجتياز هذه المرحلة الابتدائية من التعليم، يبدأ تعليم الأدب والأفكار والأخلاق الفرنسية"[٢٣]. إلا أن ثمن هذا النجاح العابر كان باهظًا ويتعارض مع الغرض من تحقيقه، فقد كان: علاقة علنية بسليمان – سيف.

إن هذا "التفانى المطلق"، كما تصفه كلوريند، إن لم يكن يتعارض مع مبادئ وتعاليم أنفانتان بشأن التأثير الشهوانى للراهبات، إلا أنه قد فجر لدى الإفراج فضيحة كبيرة، امتدت إلى بلاط الوالي، وكادت تهدد مستقبل الجنرال المهني وتهدم بالطبع المشروع التربوي[٢٤].

أما معرفة ما إذا كان مشروع كلوريند روجيه مرتبطًا، وبأي درجة، بالخطط التي أعدها رفاعة الطهطاوي داخل لجنة المعارف العامة لصالح تعليم المرأة[٢٥]، فهذا ما لا تسمح مصادرنا، للأسف، بتحديده.

أما سوزان فوالكان فقد سلكت طريقًا أرحب من كلوريند ما بين تحرير المرأة والطب. بدأت سوزان، في البداية، بالعمل غسالة لملابس المجموعة حتى تكفل استقلالها المادي. ثم كلفها الدكتور دوساب **Dr. Dussap** بعد وفاة زوجته، في نهاية فبراير ١٨٣٥، بمتابعة تعليم ابنيه، عارف وهانم. وفي مقابل هذه الخدمة، حرصت على تعلم اللغة العربية بمساعدة الصبيين اللذين يدرسان العربية الفصحى في المنزل. إلا أنها استفادت، بشكل خاص، من دروس الطب التي كان الدكتور دوساب يعطيها لابنته ومعه أحد الأطباء الفرنسيين الشباب وهو "ألفريد دولونج **Alfred Delung** بغرض استقطاب الزبائن من الحريم فيما بعد. ومما زاد من شراء هذه التجربة أن هانم قد حصلت على تعليم مزدوج اللغة: العربية من الأم والفرنسية من الأب. وقد قامت هانم بتعليم سوزان التقاليد والمعتقدات الطبية العربية وفي الوقت نفسه كانت تتلقى من دولونج دروسًا خاصة فى فن التوليد، وتعاون الدكتور دوساب أثناء الكشف على المرضى.

وقد لاقت هذه الدعوة استجابة كبيرة لتدريب القابلات. وكان لامبير قد أشار منذ نوفمبر عام ١٨٣٤، بعد العديد من الاتصالات بديوان الصحة، أن "البدء بإنشاء ما يسمًى بالطب النسائي ليس بالأمر المستحيل في مصر"، وأن "هناك العديد من الأفكار التي يتم تداولها في هذا الصدد، أطلقها السان سيمونيون ويعملون على تنشيطها"[٢٦].

ومن جانبه، يعرض كلوت بك، في مذكراته على الرغم من عدم دقة التأريخ، الجهود التي بذلها لإقناع محمد علي باشا بإنشاء مدرسة لتعليم الطب النسائي. وقد كانت أيضًا نقطة انطلاق حجته من أجل إقناع الباشا للتحرك هي الجانب العسكري. فنظرًا لإدراكه للخسائر الفادحة الناجمة عن الأمراض الجنسية مثل الزهري في الجيش، فقد وجه رئيس اللجنة الصحية الأنظار إلى أن شفاء الجنود التام والدائم يجب أن يمر من خلال صحة زوجاتهم. ونظرًا للتقاليد الاجتماعية التي لا تبيح علاج النساء بواسطة أطباء من الرجال، أو قيام الرجال بتعليم النساء الحرائر، فقد اقترح بتعليم جوارٍ سود وحبشيات في أبي زعبل، وحصل على التصريح بذلك[٢٧]. ولهذا السبب فقد قبل كلوت بك طلب

سوزان، بعد وفاة د. دوساب وابنته، بتلقي تدريب عملي في مستشفى الأزبكية، ولكن بشرط واحد هو أن تتنكر في ملابس رجل يرتدي الزيَّ النظامى. وقد أكد لها أنه قد حصل على وعد من الباشا بتأسيس مستشفى للنساء بالقاهرة فور انتهائه من حرب الحجاز، واقترح بأن تعمل في هذه المستشفى كقابلة. بيد أن سوزان قد أصابها الإحباط نظرًا لتأجيل تأسيس هذا المشروع، فعادت إلى فرنسا لاستكمال دراستها[٢٨].

وفي الحقيقة، إن المجال الطبي كان مثله مثل المجالات الأخرى التي نشط فيها السان سيمونيون بطريقة واضحة ومستمرة. إلا أن قلة العدد كانت عائقًا كبيرًا، فكل من شاربان وكونيا وفوركاد وجالا (الذى بقى لفترة قصيرة) ولاشيز وريجو لا يكفون لإدخال الطب الأوروبي في مصر. إلا أن إيدلوجيتهم قد لاقت، في هذا الوسط الخاضع للنفوذ الفرنسي، استحسانًا كبيرًا.

أوبير **Aubert**، طبيب جمهوري تورط في فرنسا في قضية تآمر، وهرب إلى الإسكندرية[٢٩]، ودولونج **Delung**، يعيش في حماية د. دوساب، ودوساب نفسه، نظرًا لوجوده في القاهرة منذ وقت طويل، وكرمه وأفكاره المستوحاة من فلسفة عصر التنوير، ونظرًا لكثرة زبائنه من الأتراك والعرب؛ فقد حظي بشهرة كبيرة. أما بيرون **Perron**، عضو سابق، في فرنسا، في الجمعية الحرة لتعليم الشعب، فقد كان ضالعًا أيضًا في حركة النضال الجمهوري[٣٠]. وأوجين ريمونيه **Eugène Reymonet**، صديق الدراسة القديم لأوربان في مارسيليا، كان يعمل طبيبًا بالإسكندرية ثم في المدرسة الحربية بدمياط[٣١]، وجوزيف ريجو مدير المستشفى الأوروبي بالإسكندرية وقريب أدولف ريجو رئيس جمعية رفاق المرأة.

وقد اهتم كلوت بك بتوطيد علاقته الحميمة بأنفانتان، فدعاه، على سبيل المثال، لحضور امتحان طلبة مدرسة الطب في ديسمبر عام ١٨٣٥. وقد كان كلوت بك الذي تشغله، قبل كل شيء، مصالح دواوينه، يقبل طواعية للعمل فى المدرسة من ينسبون أنفسهم للأب أنفانتان، ولكنه لا يستسيغ زعم أنفانتان الاحتفاظ بفرض سيطرته عليهم. أما فوركاد فكان يستدعى بصورة دورية في مدرسة المدفعية، قبل أن يتوجه إلى موقع العمل بقناطر النيل. إلا أنه أصيب بالطاعون بينما كان رئيسًا لأطباء مستشفى الأزبكية، وكان أول الضحايا الأوروبيين في القاهرة لهذا المرض[٣٢]. وقد حرص الأطباء السان سيمونيون وأصدقاؤهم، متخذين من كلوت بك قدوة لهم، على محاربة الطاعون وتقليص العدوى، بأياديهم العارية. وبدلاً من ارتداء الملابس والأغطية الغربية، مثلما كان يفعل كثير من الأوروبيين الذين كانوا يرتدون أغطية من الكتان المغطى بالمشمع، معتقدين أنهم بذلك يحمون أنفسهم من العدوى، فقد عمل السان سيمونيون في تمريض المرضى المحتضرين وكانوا يشرِّحون الجثث من أجل معرفة وفهم تطور المرض[٣٣]. إلا أن هذه الشجاعة المنزهة عن الغرض أمام هذا الوباء، التى حازت إعجاب القناصل والسلطات التركية، لم تسفر، مثلما حدث في باريس عام ١٨٣٢، إبان وباء الكوليرا لا عن إنشاء مراكز لرعاية الفقراء، ولا عن إعداد خطط للسلامة العامة.

وقد اكتفى السان سيمونيون، نظرًا لقلة الإمكانات، مثلما ذكر أوربان في كتابه "رحلة إلى الشرق"، بالنظر للعرب بإعجاب من صبرهم الهادئ وتضامنهم أمام هذا الوباء.

وبعد وفاة العديد من الأطباء (فوركاد ودولونج ودوساب وجوزيف ريجو وريمونيه **Reymonet**) ومغادرة البعض الآخر، حمل بيرون وحده الشعلة السان سيمونية في مصر.

كان بيرون يعمل أستاذًا للكيمياء والفيزياء بمدرسة الطب، ثم طبيبًا بمستشفى قصر العيني، ثم عين مديرًا لمدرسة الطب عام ١٨٣٩. وبعد سفر كلوت بك، تم تكليفه بإدارة المستشفى بالاشتراك مع دوفينيو **Duvigneau** وشافعي بك. وبعد مكوثه بفرنسا لمدة ثلاثة أعوام، أصبح في عام ١٨٥٠ رئيسًا لأطباء المستشفى الأوروبي بالإسكندرية. ونظرًا لاهتمامه باللغة العربية أكثر من النظم الإدارية، على خلاف كلوت بك، فقد حرص على التعاون مع الشيخ التونسي في مراجعة ترجمة كتاب "كنوز الصحة" الذي كتبه كلوت بك كتبسيط مخصص لحلاقى الصحة الذين كانوا يقومون بدور الأطباء والجراحين للشعب، مثلما كان الحال في أوروبا في الماضي[٣٤].

وبعد ذلك بعشر سنوات، مع ترحيبه بإرسال ثمانية من تلاميذه للدراسة في ألمانيا وفرنسا، كان ينتقد بشدة الحالة العلمية للمدارس الإسلامية والثقافة الإسلامية بوجه عام، ويلخص نشاطه فى تكوين لغة وكتب طبية عربية حديثة قائلاً:

"في أوروبا، يقول بيرون، هذه الدراسات يصاحبها بالضرورة مستوى معين من التعليم، في عالم يمتلك عادة ما يقدمه للفكر وللروح من غذاء فكري أخلاقى يختلف عما يقدمه الإسلام. وإنني لمسرور بأن المدرسة التي أشرف عليها تستطيع تقديم رجال قادرين على الوصول لدرجة عالية من الكفاءة بواسطة المناهج الأوروبية. إنه حقًا إنجاز كبير. أما بالنسبة لمصر، فإنني أعمل جاهدًا لإرساء مبادئ العدالة والدقة، مع توسيع نطاق الدراسة العملية للطب بقدر المستطاع. إنني أعمل أيضًا كثيرًا في ترجمة الكثير من الكتب بهدف، أن نترك لهذا البلد مبادئ، تدوم حتى لو ترك من سيخلف الوالي المؤسسات التعليمية الحالية في مصر تموت. فالكتب ستبقى بالطبع وستكون ذات نفع وفائدة من بعدنا. وقد قمت، على نفقتي الخاصة، بترجمة مرجع عربي في الفيزياء وثلاثة مراجع في الكيمياء، وهو ما كان فى الفرنسية على الأقل عشرة كتب. هذا بالإضافة لمراجعتي لجميع ما تم من ترجمات وأقوم بتدقيقها قبل الطباعة. وبهذه الطريقة استطعت إصلاح وتعديل اللغة الطبية، فأصبحت أكثر دقة. وقد كلفني ذلك الكثير من الجهد، لأنني اضطررت لقراءة الكثير من النصوص العربية لاستخلاص التقنية ودقة الأسلوب الطبي. وكان ينبغى القيام بهذا العمل فور تأسيس مدرسة الطب. إلا أنني وجدت، عندما تم تعييني مديرًا للمدرسة، بأنه يجب عليَّ القيام به. إجمالي ما قمنا بترجمته يبلغ ما بين ٢٥ إلى ٢٨ كتابًا في تخصصات مختلفة، أما ما تم طباعته فيزيد على عشرين ألفًا. تلك هي مادتنا العلمية. وهذه المادة تطورت منذ أن توليت إدارة المدرسة بشكل أكبر مما تم خلال ما يقرب من ١٢ عامًا(٣٥).

ومن بين القطاعات التي أعطى لها السان سيمونيون أولوية في الاهتمام والتحديث، قطاع الزراعة.

أنطوان أوليفييه خريج روفيل **Roville** هو أحد نُسَّاك منلمونتان وأحد أصدقاء الأب أنفانتان، غادر فرنسا متوجهًا إلى مصر وأمامه هدفان: "الأول إنشاء مزرعة نموذجية تعليمية لشباب المزارعين المسلمين، والثاني إعداد شركات ومصانع خاصة متعددة يستثمر فيها رجال الأعمال من جميع البلاد أموالهم ومواهبهم ويعملون على إثراء وإخصاب وإعادة إعمار مهد الحضارة الإنسانية"[٣٦].

وقد دعا أنطوان لتحقيق هدفه في هذا المجال، اثنين من الخبراء في الهندسة الزراعية، وهما "أميدي بوسكو **Amédée Busco**" و"ليون دي دومبال **Léon de Dombasle**". وكان بوسكو الوحيد الذي جاء. وهو صهر ماتيو دي دومبال **Mathieu de Dombasle**، مؤسس مدرسة الزراعة بروفيل **Roville**، ووالد ليون. وقد لعب بوسكو وهو نفسه مهندس زراعى دورًا كبيرًا في تأسيس شبكة من المدارس الزراعية الفرنسية[٣٧].

وفي أكتوبر عام ١٨٣٤، حضر إلى مصر ومعه خطة عمل للنهوض بالزراعة، واقترح على محمد علي تأسيس "مزرعة نموذجية كالتي أسسها نسيبه بفرنسا". ولتنفيذ مشروعه، طلب إمداده بحوالي من ألف إلى ألف ومائتي فدان من الأراضي الصالحة للزراعة وأبنية وأساتذة ومائة تلميذ تتراوح أعمارهم ما بين ١٤ و ١٨ عامًا يتولى تعليمهم لمدة عامين. ولإبداء ثقته الكاملة في فرص نجاح المشروع، طلب ليون بدلاً من راتب شهري "المشاركة بنسبة في الأرباح". ويذكِّر بوسكو، في التقرير المرفق بالمشروع، بالتجربة التي قام بها ثلاثة من شباب المصريين الذين تم تدريبهم في إطار البعثات التعليمية عام ١٨٢٦، في تنسيق حدائق محمد علي وإبراهيم باشا وحدائق شبرا. وطبقًا لما ذكره، فقد كانت نتيجة هذه التجارب إيجابية، إلا أنها تعد صغيرة الحجم، مقارنة بالمساحات الشاسعة المطلوب استصلاحها في الدلتا[٣٨].

يأتي هذا الاقتراح تحديدًا، لو كان ما رواه جرانال **Granal** صحيحًا، في عصر كان تلاميذ دو دومبال المصريون يعانون كثيرًا من أجل التغلب على المشاكل الروتينية. فمحمد أفندي، على سبيل المثال، خريج مدرسة والذي اكتسب منها لغة فرنسية ممتازة وولع بزراعة القرعيات، لم يجد أي عمل سوى الإشراف على إدارة "ما يشبه مدرسة ابتدائية زراعية" تم إنشاؤها في قطعة أرض تابعة لقصر محمد علي باشا للأطفال اليتامى.

أما يوسف الأرمني، الذي كان مدعومًا من بوغوص بك **Boghos bey** وكان يعمل بصفة مؤقتة، نظرًا لإتقانه اللغة الفرنسية، في ترجمة دراسة لمونتسكيو عن "عظمة وتدهور الرومان" Grandeur et décadence des Romains من أجل أن يقرأها الباشا، إلا أنه كان أكثر الذين حققوا تقدمًا ملموسًا في مجال الزراعة. فقد حصل على قطعة أرض ليقيم عليها تجاربه الابتكارية. إلا أن عثمان بك، حاكم شبرا، وأحد الأتراك المتأصلين، قام، لينافس محمود بك، وبحجة الحفاظ على التقاليد، بزراعة مساحة مساوية لأرضه استعمل فيها، نظرًا لسلطته[٣٩]، أعدادًا كبيرة من المزارعين والآلات.

أما أنطوان أوليفييه فقد حرص على نقل خبرته في الحياة في مصر إلى بوسكو، وحاول أن يجنبه وصاية مدير تركي، مع دعمه بوسيط لدى سلطات البلاد، فاستطاع أن يحصل على مؤازرة بونفور له، أمين سر إبراهيم باشا، وابن قنصل فرنسا السابق في مصر، وكان يتقن العديد من اللغات وعلى دراية جيدة بالتقاليد الشرقية(٤٠).

وقد كانت هذه الوساطة، فيما يبدو ذات تأثير كبير، والدليل على ذلك أن خورشيد بك، ناظر الجهادية، وأحد كبار الملاك في البلاد، قد سمح لبوسكو بالعمل على أراضيه ومنحه ورشة حدادة في بولاق، كان من المقرر أن يصنع بها كل من دومولار **Dumolard** وفاشيه **Vacher**، وهما من العمال السان سيمونيين، آلات الحرث. وقد تعهد خورشيد بك، أيضًا بأن يقوم إبراهيم باشا بمنحه **700** فدان، بالإضافة للأموال والمعدات اللازمة. كما كان من المقرر أنه في حالة تقديم بوسكو لصناعته أي علمه وخبرته العملية، سيكون له الحق في المشاركة في أرباح المشروع(٤١).

بيد أن بوسكو، من شدة الإرهاق، أصيب بسكتة دماغية وتوفى على أثرها في ١٩ مارس عام ١٨٣٥، وكان على دوجيه **Duguet**، على الرغم من أن ذلك يشق عليه، أن يدفنه في الحقل نفسه الذي كان قد قام لتوه بحرثه وبذر بذوره(٤٢).

وهكذا كان أوليفييه هو المهندس الزراعي الوحيد المتبقي من السان سيمونيين في هذا المجال. وتتميز استراتيجيته بأنها مبادرة خاصة، بالمعنى الاقتصادي للكلمة. فبدلاً من أن يطلب من الدولة، التمويل وأدوات التنفيذ من معدات وأيدٍ عاملة، فقد فضل أن "يعمل للخاصة الذين يتمتعون بقوة تأثير ونفوذ كبير" و"يعتمد عليهم في العمل العام". وقد شجعه ديليسيبس على هذا الاتجاه، ونصحه بأن يتوجه للتجار وأن يجعل لهم الأولوية، "حتى يبدو الأمر وكأنه مضاربة من نوع خاص"، "دون ضجة أو مظهرية، كأي معاملة تجارية عادية"(٤٣). وبسبب عدم رغبة خورشيد بك، فيما يبدو، في استمرار مشروع بوسكو، مال أوليفييه لاقتراح إنجليزي للعمل في تجفيف واستغلال أرض بحيرة المريوطية وبحيرة المنزلة في الزراعة بواسطة آلة بخارية إنجليزية الصنع تعمل على تسوية وحرث وبذر وتمشيط ٨ هكتارات في الساعة(٤٤).

وكان قد فكر في هذا المشروع، من قبله، في عام ١٨٣٤، كل من توشيه **Toché** وبريس **Prisse**، اللذين كانا، في ذلك الوقت، أستاذى علم التحصينات في المدرسة الحربية بدمياط. وكان بريس يأمل في أن يهتم أوليفيه أيضًا بهذا البرنامج(٤٥). غير أن أوليفيه فضَّل، في النهاية، عقد اتفاق مع أحد المقربين من محمد علي باشا والقنصل وهو التاجر اليوناني توسيزا **Tossizza**، الذي كلفه بزراعة مساحة كبيرة من أراضيه تقدر بحوالي ٥٠٠ هكتار، تقع على بعد أربعة فراسخ من الإسكندرية، على ترعة المحمودية، وقام بإمداده بالمعدات اللازمة وعدد كبير من الأنفار.

وقد فكر أوليفييه بإنشاء مدرسة للزراعة(٤٦)، رأى أن يكون موقعها بجانب مدرسة الطب البيطري، بالقرب من القاهرة. كما درس إمكانية تطوير السواقي، وذلك باستبدال الأصص الفخارية بصفائح حتى تكون أكثر متانة وأقل ثقلاً وأكبر حجمًا(٤٧). بيد أن وصفه لحال الريف، في ذلك الوقت، ولا سيما قرى الإسكندرية يبعث على الإحباط:

"الأرض- يقول أوليفييه - بلا زرع، والمحاصيل لا تجد من يحصدها نظرًا لنقص الأنفار، لقد مات فيما يقال نصف الفلاحين، الأرض وكل ما هو يافع وقوي. وكان ذلك مثار تأمل بالنسبة لي. وعلى الرغم من ذلك، يستمر الباشا في جمع الأنفار"(٤٨).

وفي التاسع من مايو عام ١٨٣٦، توفى أوليفيه، بعد إصابته بالسل في فرنسا. ولم يتبقَّ من مشروعات تطوير الزراعة سوى اقتراح لينان بإصلاح الأرض التي كانت عليها بحيرة موريس (القديمة) بالفيوم للاستفادة منها في زراعة ما بين ٨٠٠,٠٠٠ إلى ٩٠٠,٠٠٠ فدان(٤٩).

وننتقل إلى الفنون الجميلة وهى المجال الذي واجه فيه السان سيمونيون مشاكل كبيرة، أكثر من أي مجال آخر نظرًا للفكرة السائدة بعدم نفعها، وذلك من أجل نشر الفنون التطبيقية الغربية في أعماق المجتمع المصري، بدلاً من أن تقتصر على الطبقة الصغيرة الحاكمة التي تلتف حول محمد علي باشا.

وعلى الرغم من استدعاء أنفانتان للفنانين إلى جانبه، فإنه لم يكن يرمي على الإطلاق إلى تكليفهم برسم على الآثار المصرية القديمة. ويبدو أن أنفانتان لم يكن لديه أدنى فكرة عن وجود فنون خاصة بالشرق سوى العمارة(٥٠). ربما كان متأثرًا بالأفكار المسبقة المناهضة للإسلام، التي كانت منتشرة في المسيحية، في هذا الشأن. فقد كان يعتقد أنه سيقوم باستئصال كل ما هو قائم وخلق كل شيء من جديد. ولهذا السبب فقد تخيل، في خريف عام ١٨٣٤، إمكانية عمل عروض فنية مسرحية وموسيقية، بواسطة سليمان باشا، مستفيدًا في ذلك من أعياد رمضان.

وتطبيقًا للتقسيم الثلاثي للملكات والكفاءات الخاص بالسان سيمونيين (الدين/الفن – الصناعة/القوة – العلم/الذكاء) فقد وجد، بالاستعانة بالتفكير المنهجي، أنه من المنطقي والحتمي، إلى جانب تعميم"العلم والصناعة العامة" على المدارس وموقع إنشاء القناطر، أن يتم تنمية "الفنون العامة، بإنشاء مسرح". وقد اعتمد، في تنفيذ هذه الفكرة، على فرقة مسرحية مكونة من عناصر متميزة وهم: ديفيد **David** عازف بيانو ومؤلف موسيقي، وروجيه عازف كمان ومدير جوقة الخلوة بمنلمونتان ومؤسس أوركسترا العمال بباريس، وجوندريه Gondret كيميائي وعازف بيانو ومغنٍّ ومؤلف موسيقى، وماشرو رسام وممثل كوميدي، وأوربان الذي يمتلك موهبة إلقاء الشعر والإلقاء المسرحي، وفيلارسو متخصص الرياضيات ويمتلك موهبة العزف الموسيقي وتعاون مع روجيه وماسول في تأسيس مسرح بالجزائر، وأليرك النحات، وكذلك بعض العناصر الأخرى التي نجهل تخصصاتها مثل لامي ومارشال وسونيرا **Sonnerat**(٥١).

وفي الواقع، فبفضل سليمان باشا، تم تعيين كل من روجيه وفيلارسو مدرسين للموسيقى بمدرسة الفرسان بالجيزة، التي تم فيها أيضًا تكليف كل من ماشرو وأليرك بتدريس فن الرسم (وبعد ذلك ذهب أليرك لأبى زعبل). ولكن أليس من المفترض أن مهمة السان سيمونيين، في مجال الفنون، لا يجب أن تقتصر على تدريس الرسم للضباط الفرسان؟ إن هذا الأمر قد دفع كلوت بك لانتقاد موسيقيي أنفانتان بسبب محاولتهم الساذجة إدخال الموسيقى العسكرية الأوروبية في معسكر الخانكة(٥٢). أما أكبر نجاح حققه السان سيمونيون، فقد كان في إحياء حفلات الاستقبال التي كان يقيمها سليمان باشا في مختلف المناسبات، مثل مناسبة وصول المارشال مارمون **Marmont** إلى مصر(٥٣).

والحقيقة أن مواهب ماشرو قد تخطت هذا الإطار من الحفلات الخاصة، إلا أنه لم يتمكن من الوصول لعامة الشعب. فقد نجح، بوجه خاص، في عروضه المسرحية على خشبة تياترو القاهرة، وبمسرحياته الهزلية (الفودفيل) وفي بعض العروض المسرحية الأخرى من تأليفه. وقد شهد الجميع بموهبته وشهرته، بدليل تلقيه دعوات كثيرة للعزف أمام محمد علي، وكذلك تعيينه، في عام ١٨٦٠، مديرًا لمسرح محمد سعيد(٥٤) الخاص.

وعقب إغلاق مدرسة الجيزة، استقبل الكولونيل سيف ماشرو (محمد المهدي) الذي قام بزخرفة شقته بالروضة ورسم لوحة تمثل معركة نصيبين التي تقع على الحدود التركية السورية والتي برع فيها مضيفه. ولكن يبدو أنه اقتصر في رسم لوحاته (فيما عدا لوحة معركة نصيبين) على رسم المناظر الطبيعية والأدوات. وقد ذكر شارل إدمون **Charles Edmond** ، الذي جعل ماشرو أحد أبطال روايته بعنوان "زفيران كزفان في مصر **Zéphyrin Cazavan en Egypte**" أن ماشرو نجح في رسم لوحة لأحد زبائنه من الباشوات تمثل بعض النساء في نزهة، إلا أنه لم يبرز طرف أنف واحدة من الحريم ولا أحد الأغوات، ولكنه مثل المنظر في شكل ١٢٦ عربة حنطور تقف الواحدة وراء الأخرى، مقاعدها خاوية والجياد دون فرسان(٥٥).

وهناك معلومات أخرى دونها "جرانال" في مقال بجريدة لوتون "**Le Temps**" عدد ٣١ يناير ١٨٣٨، تحت عنوان "شبرا وتمثال الباشا". لقد صنع أليرك **Alirc** تمثالاً لسليمان باشا الفرنساوي، أعجب به لوبير وميمو الذي عرضه على بوغوص بك وقام محمد علي، في صيف عام ١٨٣٤، بعرضه في قصره بشبرا. وقد طلب محمد علي باشا، صنع تمثال له، ربما لإسعاد قنصل فرنسا(٥٦)، ووافق على أن يتم ذلك خلال بعض الجلسات التي يكون فيها الباشا مستلقيًا على الديوان.

ويقال، كما لمح جرانال **Granal**، إن الباشا كان يعطي لبعض مشايخ المساجد الذين يحظون بتأثير على العامة، نقودًا لمنعهم من الحديث عن هذا التمثال. هذا لأنه لا أحد يجهل أن القرآن يحظر، نظرًا لتحريم عبادة الأصنام، رسم أو نحت صور لأشخاص أو حيوانات.

وعلى أية حال، فقد تحمل ألريك Alric النحات، نظرًا لما كان يتذوقه من حلويات ومربى ترسلها إليه حريم الوالي أثناء عمله، مضايقات عثمان بك، وهو نفسه الذى كان يعترض على الابتكارات الزراعية الحديثة التي اقترحها يوسف، وأنجز التمثال:

"لقد خرج تمثال الباشا الباهر أخيرًا من القالب. كان شديد الشبه به وبقدر ما نقترب نلمح الابتسام على فمه. اللحية والعمامة تم نحتهما بإتقان متميز. الجميع رغبوا في رؤيته وأبدوا إعجابًا به. تم نقله إلى الإسكندرية تحت حراسة النحات وتم تسليمه إلى الباشا الذي وضعه في الحرملك حيث لا يراه إلا نساؤه اللاتي كن مسرورات بامتلاك باشا من الجبس في الأوقات التي لا يستطعن فيها امتلاك الباشا شخصيًا".

إن نهاية هذه المغامرة وطول مدة حبس التمثال في إطار حياة الباشا الخاصة، يدلان على لبس واضح، من جانب وآخر، حول مكانة الفن. ولأن "ألريك Alric" لم يكن يرغب، تمجيدًا لفنه، بأن يقال بأنه كان يعمل مجانًا، ودخل في صراع لمدة طويلة، من أجل الحصول على ثمن مرتفع مقابل عمله. وقد أظهر طمعًا كبيرًا لدرجة دفعت بارو إلى توبيخه: فقد أوشك على الإساءة لسمعة جميع السان سيمونيين وذلك بإثارة غضب المصريين بادعائه نيته بأن يخرج الفنون من مراتب القيم العادية(٥٧).

وفي نهاية المطاف، دفع بوغوص بك ستة آلاف قرش(٥٨) للنحات مقابل التمثال. وعلى الرغم من أن المبلغ لم يكن على قدر المأمول، فإنه كان مبلغًا كبيرًا. فقد كان ألريك يتقاضى في الجيزة ٨٠٠ قرش كراتب شهرى بالإضافة لـــ ١٠٠٠ قرش بدل ملابس، إلى جانب ١٤٠ قرش للانتقالات، وتم منحه حصانًا وحصة من التبن(٥٩).

****

عندما تقلص عدد أفراد الحملة السان سيمونية، سواء بسبب الطاعون أو بسبب الإحباط وغادر الأغلبية إلى فرنسا، ظل لامبير هو رمز للتعاطف والنجاح الذي حققه السان سيمونيون في مصر. إن تقلده المناصب العليا العامة، ولا سيما نظارة مدرسة المهندسخانة، جعله يلمس المشاكل المهمة المختلفة التي تقف عائقًا في سبيل نهضة مصر الحديثة.

فحياته المهنية الطويلة جعلته يتقرب لبعض الشخصيات المصرية من الصف الأول ويشاركهم أفكاره، فأصبحوا، فيما بعد من أصدقائه المقربين، سواء كانوا رؤساء أو مُعاونين أو تلاميذ له. وقد نبع هذا النفوذ وهذا التأثير الذي حظي به لامبير، بصفة خاصة، من اختياره لنمط وجود مختلف. ففي ربيع عام ١٨٣٥، وبينما كان في مدينة القصير، في رحلة استكشافية عن المناجم، اتخذ قرارًا واضحًا، نبع من داخله، بأن يكون فرنسيًا عربيًا، وفي الوقت نفسه، قرر أيضًا ارتداء الزي النظامي. وفور تعيينه ناظرًا لمدرسة المناجم، وانتقاله من صفة "المتطوع" إلى صفة "موظف مصري" كتب لسليمان باشا الفرنساوي، بعبارات تقريبًا صوفية، يشرح له فيها كيف حدث بداخله هذا التحول الجذري، وحول رسالته التى اكتشفها للتو:

"لكي يتم تأسيس عمل المناجم في مصر، ويدوم عند أهلها بصورة أقرب ما تكون للروح العربية، يجب بالطبع أن يغدق الرجال الذين يمتلكون الحضارة الأكثر تقدمًا، على من هم أكثر فقرًا وأكثر تخلفًا جميع أنواع العطايا، على الأقل في مجالات معينة. يتعين على أوروبا، فتاة الشرق القديمة، أن تعيد لأمها كل ما سبق أن حصلت عليه منها. إنني أقر بأنني أحب في الإنسان العربي طبيعته الخاصة، وأحب في الإنسان الفرنسى فكره المستنير وحسه الاجتماعى. وسوف أسعى لتقديم كل ما ينقص الإنسان الفرنسى في هذا المجال (...) فإنني أعتبر نفسي أبا العرب، لذا يجب أن أدعو نفسي لإعادة تكوين هيئتي الجسدية وحياتي الحالية، وسوف أكرس كل وقتي وكل عملي لهم! ودون ذلك أرى أنني لن أستطيع أن أفعل أي شيء حسن (...) يجب أن أكون رجلاً فرنسيًا عربيًا".

إن هذا البحث عن الجنسية المزدوجة (التي تأخذ فيها كلمة "عربي" معنى شديد الاتساع، وهو "ابن البلد" فى مقابل "إفرنجي") كان له المعنى نفسه الذي سببه اعتناق أوربان وبراكس وماشرو للإسلام. ولهذا السبب يعبر لامبير، في الفقرة التالية، عن همه بالانغماس أكثر من ذلك في المجتمع المصري، وتجنبه أن يسبب تعاونه الشخصي تشجيع مشروع للسيطرة:

"في العموم، شعوري ألا يكون على رأس العرب إلا أقل عدد ممكن من الأوروبيين، حتى لا يتم سحق شعب عن طريق شعب آخر، وحتى يجد العرب من حولهم ومن حولنا (أي هو نفسه وسليمان باشا الفرنساوي) ما نحتاجه، بقدر الإمكان، من دعم، في العلوم وتطبيقاتها، ومع السعي بالطبع، في التوفيق بين رغبة الباشا في التحديث والاقتصاد اللازم لتنفيذ مشروعاته المستقبلية"[٦٠].

وقد اقترح مساعدة المصريين على تعويض تأخرهم العلمي والتكنولوجي دون التخلي عن استقلالهم. وهذا يبين إلى أي مدى كانت تنمية وتحديث مصر بالنسبة للعقول الأوروبية في ذلك الوقت أمرًا يصعب التوفيق بينه وبين بناء دولة مستقلة.

وفي ١٢ سبتمبر عام ١٨٣٥ قام لامبير، عند عودته من الصحراء، بوضع اثني عشر شابًا تم اختيارهم من الجامع الأزهر "وسط الأتربة وحطام" أحد المنازل المتهدمة بالقاهرة القديمة. وبهذه الطريقة قام بتأسيس مدرسة المناجم بالتعاون مع ماسول كمدرس للغة الفرنسية وسكرتير للمدرسة وجونوفوا كمشرف عام على المدرسة، ولوفافر وروجيه وجوندريه وفيلارسو كأساتذة "متطوعين". أما هو، فقد تم تعيينه مديرًا للمبنى، وحصل من ثم على رتبة قائمقام والحق في أن يكون له خاتم خاص به.

بيد أنه بعد ذلك بثلاثة أشهر، في إجراء اقتصادي، تم دمج مدرسة المناجم ومدرسة الهندسة المدنية التي كان يديرها لينان في كفر منصور، في مدرسة المهندسخانة التي كان يديرها حقيقيان في بولاق[٦١]. ثم تعرض المدرسون السان سيمونيون لحركة تنقلات، ووجد لامبير نفسه تحت سيطرة مدير مصري تطبيقًا لنظام القيادة المزدوجة المصري، الذي جعل أيضًا من برونو نائبًا لمظهر بك في مدرسة طرة[٦٢]. وكان آنذاك "مهندسًا للمناجم وتابعًا لديوان المعارف العامة، ولكنه انتدب إلى مدرسة بولاق لإرشاد الأساتذة"[٦٣].

إلا أنه في شهر أكتوبر من عام ١٨٣٨، عيَّنه مختار بك ناظرًا للمدرسة بدلًا من حقيقيان الذي حصل على رتبة البكوية وتم تعيينه في منصب آخر[٦٤]. وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٨٤٩.

أما مدرسة المهندسخانة، فقد تم تأسيسها في عام ١٨٣٤ (في شهر ربيع الأول[٦٥] من عام ١٢٥٠هـ)، وكان مقرها بولاق في قصر إسماعيل باشا[٦٦]. وقد تبنى لامبير، الذي كان عضوًا بمجلس إدارتها منذ إنشائها، العديد من التغييرات الجوهرية في أول نص للائحتها، الذي قام بكتابته جابودان Gabaudan، أحد مهندسي القناة من مارسيليا والذي دخل في الخدمة الخاصة للباشا. وعلى خلاف مختار بك، فقد أصر لامبير على حذف إحدى المواد من اللائحة "التى تنص على استبعاد الاستعانة بمدرسين من أوروبا"[٦٧].

وفي التقرير الذي كتبه في عام ١٨٣٦، باسم اللجنة، أعرب لامبير عن رأيه بأنه باستثناء عبد الرحمن "الذي تم تكليفه خصيصًا بمسئولية التدريب العملي لعشرين من المهندسين الميكانيكيين"، فإن المدرسين الثلاثة المصريين الذين تم تدريبهم في فرنسا وهم: بيومي ودوجلي وطائل، "هم أقوى في العلوم النظرية من العملية"، لذا فسيكون اختصاصهم العلوم الرياضية، أما الفيزياء والكيمياء وبالأحرى فن العمارة والجيولوجيا والتعدين والتنقيب عن المناجم ... إلخ، فيتعين، لكي يتم تدريسها ، بشكل جيد، الاستعانة بأساتذة من أوروبا.

ولقد أرجع لامبير هذا الميل للتجريد، دون شك، إلى الإعداد الذى حصل عليه المدرسون فى فرنسا. فهو يشير بأن "السمة البارزة في المصريين، مقارنة بالأوربيين هي قوة الحواس". ولكي يتمكن التلاميذ المصريون من استيعاب الحقائق العملية بشكل جيد، يجب، طبقًا لوجهة نظره، أن يلجؤوا، بقدر الإمكان، إلى "التطبيق العملي"[٦٨]. ولهذا السبب، فإن النموذج الفرنسي الذي تم الاقتداء به، عند إنشاء مدرسة بولاق، لم يكن مدرسة الهندسة العليا بباريس، على الرغم من التشابه الكبير بين المدرستين والجهود التي تمت في البداية، لمحاكاة هذه المؤسسة الرائعة[٦٩].

"من بين المدارس الشهيرة، في أوروبا، التي تشبه – كما يقول لامبير – إلى حد كبير مدرسة بولاق، في طابعها الصناعي الذي يظهر في مقرراتها وما تكسبه للطلبة من مهارات وتطبيقات عملية، المدرسة المركزية العليا للفنون والصناعة بباريس، وهي مدرسة لا تزال حديثة، ولكنها كثيرة الأنشطة ولها مستقبل واعد، ويطلق عليها المدرسة العليا للهندسة الصناعية. مدة الدراسة بها ثلاث سنوات مثل مدرسة بولاق، كما أن شروط الالتحاق بها هي نفسها شروط بولاق. ولهذه الأسباب فقد رأينا من الحكمة أن نتخذ برنامج المدرسة المركزية كأساس لمدرسة بولاق مع إجراء التعديلات المناسبة طبقًا للهدف الأساسي من إنشاء هذه المدرسة[٧٠].

وقد اتفق كلٌ من لامبير وحقيقيان اللذين اشتركا في التوقيع على برنامج مدرسة بولاق، على تدعيم مقرر مادة الرياضيات، فاقتبسا من المدرسة العليا المركزية بباريس توجهاتها العملية بحيث يتمكن المهندسون المصريون من الدخول في جميع أنواع الصناعات وجميع الأشغال العمومية.

وتتويجًا لمقررات السنة الثالثة، فقد وضعا مقررًا باسم "الاقتصاد الصناعي" يتكون من ١٨ درسًا. ويتعين أن نشير، على الأقل، إلى بعض موضوعات هذا المقرر، لأن بعضها يتعلق بجوانب مصرية بحتة، والبعض الآخر مستوحى بوضوح من الفكر السان سيموني، وهي: "العمل، تأسيس المجتمع المدني ... تضافر الجهود مع النتائج ... كيفية توزيع قيمة المنتجات بين فئات المنتجين ... التعليم الشعبي ... تقدم الطبقات العاملة ... القوى الصناعية في مصر وتوزيعها على مختلف أرجاء البلاد. وهناك وثائق تتعلق بموقف أفرع الإنتاج المختلفة في مصر ولا سيما الصناعة المعدنية وصناعة النسيج والسكر والصابون والمنتجات الكيميائية والآلات ... إلخ، الاستهلاك وخلق أسواق داخلية وخارجية، حالة الطرق والمواصلات، الاستيراد والتصدير"[٧١].

وهناك مادة أساسية أخرى اقترح لامبير إقرارها وهي اللغة الفرنسية.

ويوضح لامبير، في هذا الصدد، أن هناك سبيلين قد تم اقباسهما من أجل جلب المعارف العلمية الأوروبية إلى مصر: أولاً البعثات التعليمية المصرية. وثانيًا في الاتجاه المقابل، دعوة كبار العلماء والمهندسين الأوروبيين للحضور إلى مصر. بيد أن هذين السبيلين يمثلان بالنسبة لمصر "عنصرًا من عناصر الإزعاج والقمع". ويضيف لامبير هناك طريق ثالث لاستيعاب أوروبا "وسيلة حضارية أخرى"، تم تطبيقها وهي إنشاء الشيخ رفاعة الطهطاوي لمدرسة الألسن التي كان الهدف منها "إعداد تلاميذ مثقفين يتقنون اللغة الفرنسية والعربية والتركية والفارسية، لتكليفهم بالترجمة العامة المتخصصة، والتدريس، وأيضًا الإشراف على الأعمال الهندسية الفنية، بعد قضائهم مدة كافية للدراسة في المدارس العلمية والصناعية". ويشك لامبير، في أن تكفي بضع سنوات من الدراسة وهذا العدد المحدود من المترجمين، للقيام بهذه المهمة، لاسيما أن هناك قصورًا في المصطلحات العلمية في جميع اللغات الشرقية. ويلاحظ لامبير، في النهاية، أن التلميذ لن يستطيع الوصول لدرجة مهندس أو مدرس إلا عندما يصبح قادرًا على تنمية قدراته وقواه الخاصة، وذلك بالاطلاع على أعمال زملائه ومناقشتهم. أما مدرسة الألسن، فوحدها، قد لا تستطيع سوى إعداد "تلاميذ صغار، كتب عليهم أن يظلوا للأبد صغارًا، لأن التلاميذ الذين يتعلمون ترجمة المواد، لن يستطيعوا الولوج إلى مجالات أخرى، عندما لا توجد ترجمة".

والخلاصة التي توصل إليها لامبير هي أن مصر يجب أن تستلهم نموذجًا لها وهو النموذج الروسي؛ نظرًا لبدء روسيا، منذ ما يقرب من قرن ونصف قرن مضى، من حيث تبدأ مصر الآن. وقد لجأت أيضًا إلى الوسائل نفسها، قبل البدء في تعليم اللغة الفرنسية على نطاق واسع. هذا الخيار، كما يذكر لامبير، سيعمل على خفض كثير من التكاليف والجهود في ظل الوصاية الأوروبية الحالية. كما سيحول، على المدى الطويل، العلاقات المضطربة بين البلدين بسبب عنصر الاحتياج، إلى علاقات خصبة ومريحة لأنها ستصبح حرة. وإلى جانب ذلك، ستزيد من الفائدة المرجوة من بعثات شباب المصريين المستقبلية إلى فرنسا، وسترفع معدل السن، فسيتم إرسالهم في سن أكثر نضجًا حتى تكتمل تربيتهم طبقًا لعادات وتقاليد بلادهم[٧٢]. ولهذا السبب فإن برنامج مدرسة بولاق يخصص ثلاث ساعات يوميًا لتعليم اللغة الفرنسية (من أصل ١٢ ساعة دراسة يوميًا)[٧٣].

وفضلاً عن ذلك، تتضمن شروط الالتحاق بالمدرسة، أن يكون الطالب ملمًا بأساسيات الوعي الوطني أي معرفة جغرافيا وتاريخ مصر كما عدلها عصر محمد علي: "قراءة الدراسة التي كتبها ميشليه وترجمها الشيخ رفاعة الطهطاوي حيث تم التوسع في الأجزاء الخاصة بمصر وسوريا والجزيرة العربية والنوبة، أكثر مما كان في أصل العمل"، وكذلك "تاريخ العرب" للشيخ مرعي الحنبلي و"تاريخ مصر" للمسعودي[٧٤].

ولم يثبت أن لامبير قد حصل على المدرسين الأوروبيين الذين كان قد طلبهم. بل على العكس من ذلك، كل شيء يشير إلى أنه كان يقوم بمهام عديدة، في البداية على الأقل عند إنشاء المدرسة، فقد كان عليه أن يكتب بنفسه جزءًا أساسيًا من المحاضرات والدروس، وأحيانًا كان يتم نسخها أو تدريسها بالتعاون مع المدرسين المصريين الأربعة. ولكن على المدى الطويل، انحاز لامبير إلى فكرة أن "المدرس الوطني الذي يعمل تحت مدير أوروبى هو أفضل الحلول"، مع منح أفضل العناصر، على سبيل المكافأة، منحة دراسية في أوروبا[٧٥]. وفي الواقع، فقد كان يطبق أيضًا نظام التعليم التضامنى، الذي يقوم فيه بعض النجباء من الطلاب بالإعادة للطلاب الضعاف، وقد ساعد ذلك على سد الفجوة في نقص عدد المدرسين.

وهذه الطريقة، الإنجليزية الأصل، يتم تطبيقها أيضًا في مدرسة الهندسة العليا بباريس، وفي مدرسة الطب بالقاهرة، وفي البعثة المدرسية في عام ١٨٢٦، كان يحبذها جومار[٧٦] **Jomard**. وقد بدت مدرسة بولاق، في هذه الظروف، وكأنها تقوم بمهامها في تفريخ العناصر والكوادر اللازمة للمدارس الخاصة. ففي عام ١٨٣٧، على سبيل المثال، قدم لامبير عشرين مهندسًا لمدرسة الطرق والكباري، وكان يرى أن أول دفعة من المدرسة ستقدم ما بين ١٢ و١٥ من الشباب المتميزين.

ولكن، مع مرور الوقت، نظرًا لإغفال معيار الجودة، ارتفع عدد طلاب المدرسة في عام ١٨٣٨ إلى ٢٢٥ طالبًا، ثم انخفض في عام ١٨٤٨ ليصل إلى ٦٥ طالبًا، وارتفع مرة أخرى في عام ١٨٤٩ إلى ٨٠ طالبًا[٧٧]. والدراسة الإحصائية إن أمكن إجراؤها، لن تبرز التدريب الدائم الذي كان ينظمه لامبير في عام ١٨٤٦ للخريجين من المدرسة بتقسيمهم إلى "ست فرق خاصة يتم تدريبهم على الإتقان والتطبيق" وقد مكنه هذا التدريب غير الرسمي من إعادة الروابط مع المهندسين المصريين الذين كان يتم تعيينهم في مناصب لا تمت بصلة لقدراتهم ويجد لهم الفرصة لممارسة تخصصهم[٧٨].

وقد علا شأن لامبير، في عام ١٨٤١، حتى وصل إلى القمة في المرحلة الحرجة من نهاية حكم محمد علي لا سيما عندما تم إعادة هيكلة المدارس العليا، المهمة التي كلف بها أدهم بك وسليمان باشا الفرنساوي وكياني بك وآرتين بك[٧٩]. كما كلفه إبراهيم باشا بمهمة إرساء قواعد ديوان التعليم العام ومنحه تقديرًا كبيرًا بأن أقر على الملأ أنه" أحد أهم وأفضل ثلاثة رجال في البلاد" .

ونظرًا لكونه الفرنسي الوحيد الذي ظل في مصر ولم يتم ترحيله مع باقي الأجانب، فإن موت إبراهيم باشا المبكر وتولي عباس باشا لم يمنع لامبير، في الخامس من إبريل عام ١٨٥٠، من تسليم العاهل الجديد، الخطة التي أعدها، بناء على طلبه "لتنظيم ديوان التعليم العام وكذلك ديوان الأشغال العمومية"[٨٠]. وإذا لم نكن قد عثرنا على نسخة ورقية محفوظة من هذه الخطة، فإن مشروع إنشاء "المدرسة المصرية" الذي كان على الأرجح قد أعد بناء على رغبة إبراهيم باشا، يصف حالة التعليم في مصر وما كان يعانيه من مشاكل نحو عام ١٨٤٤–١٨٤٥، كما يوضح فكر لامبير تجاه هذا الموضوع.

ويبدو أن إنشاء هذه المدرسة أو "المدرسة التجهيزية"، كان بهدف التمهيد لإعداد مستوى ثانوى قادر على إمداد مدرسة المهندسخانة ومدرسة الطب بما تحتاجه من طلاب. وتقع هذه المدرسة بمنطقة أبي زعبل، وتستقبل كل عام نحو ٢٦٠ تلميذًا تتراوح أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشرة، ومقسمة إلى ستة أقسام. كلما اقترب الطلاب من المرحلة العليا الأخيرة، نقصت أعدادهم تدريجيًا "نتيجة لاستبعاد الراسبين". ويتم توزيع مكافآت على المدرسين الأكفاء. وقد بدأت المدرسة مهمتها بمقر واسع ونظيف وحد أدنى من الأدوات والمعدات، على أمل الوصول إلى مستوى التعليم الثانوي بفرنسا. وعندما يبلغ الطلاب ما بين ١٤ و ١٩ عامًا يتم تقسيم الصفوة المصرية ما بين مدرسة الطب ومدرسة المهندسخانة، حيث التدريس "باللغة الفرنسية فقط". وفي نهاية هذه المرحلة، يتم تصفية الطلاب إلى نحو الثلث، فريق صغير منهم يتم اختياره للسفر إلى فرنسا لاستكمال الدراسة، أما الأغلبية فيتم توزيعهم على المدارس المتخصصة في مختلف الدواوين العامة حيث يمكثون حتى بلوغهم ما بين ١٩ و ٢١ عامًا.

وبخلاف مبدأ التصفية الصارم الذي يسير على نهج النموذج الفرنسي، فإن ما يسترشد به لامبير أيضًا هو هدفه بأن ينصهر المصريون من الشباب في قالب وطني موحد، أو قد نستطيع القول، بأنه قالب علماني قبل الأوان. وفي الفقرة التالية يبرر موقفه، في جزء أساسي من خطته التي تعد آخر ما كتبه في هذا الموضوع:

> "إن نسبة التلاميذ الذين سيتم إرسالهم إلى فرنسا مقارنة بالذين سيبقون في مصر بصفة مؤقتة أو نهائية، يجب أن يتم حسابها بحيث لا تفكك الوحدة الوطنية. هذه الوحدة هي الرابط الذي "يربط التلاميذ بعضهم ببعض في هذه المدرسة الكبيرة المشتركة وهي الضمان لإتمام المهام المستقبلية في وحدة وحرص. إن هذه الوحدة هي القوة الكبرى لمدرسة الهندسة العليا بباريس. وهذا عكس التعليم الذي يستمد عناصره من مصادر مختلفة، فتكون محصلته فوضى في الخدمات في البلاد (...). وفضلاً عن ذلك [أي مشكلة إرسال بعض التلاميذ فقط إلى فرنسا]، فإن أهم مبدأ لتركيز التلاميذ المصريين في مبنى وطني كبير هو أن تتوحد جهودهم في يوم من الأيام في المهام المختلفة من أجل الصالح العام للبلاد. ويتميز هذا الأسلوب أيضًا بدمج وتنمية دراسة اللغات الوطنية مع دراسة اللغة التي تسجل بصفة دائمة أعظم ما توصلت إليه العلوم الحديثة.

ويتيح هذا الدمج إقامة روابط بين الأشغال العمومية والجيش من جهة، وأفرع الإدارة الأخرى بالبلاد من جهة أخرى، كما يتيح، في الوقت، نفسه، بأن نكون دائمًا على دراية بأهم الاكتشافات وأحدثها، والتي يمكن دومًا متابعتها باللغة الفرنسية وهو ما تعجز أعمال الترجمة الدؤوبة عن القيام به"[٨١].

وبدلاً من أن يحصر محمد على عمل لامبير على ديوان التعليم العام، طالبه بالمشاركة بخبرته في معظم المجالات المتعلقة بالتنمية المستقلة في مصر.

ففي عام ١٨٣٤، كتب لامبير ملاحظات عن الفوائد الاقتصادية للقروض. فالقروض المالية، كما يوضح، هي تمامًا مثل استعارة المحراث بدلاً من الاستمرار في استخدام الفأس. فالقروض سوف تتيح لمصر الانطلاق في تنفيذ المشروعات الصناعية الكبرى دون التضحية بأي شيء من الجهاز العسكري الذى تفرضه الظروف. تلك هي الوسيلة، طبقًا لوجهة نظره، لاستصلاح الـــ ٢٠٠,٠٠٠ هكتار من الأراضي الممتازة والخصبة التي تحيط ببحيرة المنزلة بعد تجفيفها: "فرأس المال سوف يدر ما بين ٢٢ و٢٤% ويسدد القروض سريعًا. أليست إنجلترا هي الدولة الأكثر ازدهارًا، وفي الوقت نفسه، الأكثر اقتراضًا؟ فلماذا إذن، ويتساءل لامبير، أصبحت إنجلترا، رغم ما عليها من ديون ضخمة، الدولة الأكثر تقدمًا زراعيًا وصناعيًا وتجاريًا وإنتاجيًا والأكثر ثراء من الشرق، الذي لا يلجأ إلى الاقتراض؟". إن مصر تمتلك هبة طبيعية من الموارد لا تمتلكها إنجلترا: أراض خصبة، موقعًا جغرافيًا متميزًا، في الوسط ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ... فبخلاف المميزات الاقتصادية، سوف يجني الباشا امتيازات سياسية كبيرة من هذه الممارسة المالية الجديدة على الإسلام؛ لأن هؤلاء المقرضين، أي الدول الأوروبية، سيكونون حريصين على تحقيق رخاء وقوة بلاده. ألم تقاوم إنجلترا نابليون لأن دائنيها، من المصرفيين والملاك الأثرياء، كانوا حريصين على عدم انهيارها؟ يرى لامبير أن الاقتراض بالنسبة لمصر هو أفضل وسيلة للدخول في تحالف مع أوروبا، وهذا معناه ضمنيًا الاستقلال عن تركيا[٨٢].

وقد يكون في هذه القروض، فيما يبدو، حل لمشروعات الريّ والزراعة الكبرى التي توقفت لأسباب مالية، والتي عرض السان سيمونيون، في ذلك الحين، التعاون في تنفيذها. ولكن الظروف الدبلوماسية والعسكرية، في تلك السنوات، والاستخدام اللاحق للقروض على يد خلفاء محمد علي، تسمح لنا بالكثير من التحفظات.

وبدءًا من عام ١٨٤٢، أصبح للامبير كلمة مسموعة، وكان دائمًا تُطلَب مشورته فيما يتعلق بمسألة العملة. ولم تكن خبرته تقتصر على التحقق من نقاء المعادن المستخدمة في ضرب العملة، أو اختيار أفضل التقنيات في الضرب، أو خفض تكاليف الضرب أو التنظيم الإداري للضربخانة[٨٣]. فبخلاف جميع هذه المسائل التقنية التي كان يتولى لامبير رئاستها، وضع لقضية النقود بعدًا سياسيًا. فالحكومة المصرية، عند تحديدها لتعريفة القيمة المتداولة لمختلف العملات الأجنبية التي يتم تداولها في البلاد (كالتركية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية والنمساوية ... إلخ) كانت تشبه، كما يشير لامبير،

الإدارات الاستعمارية الكبرى التي تفرض [illegible] على شعبها كثير من العملات الأجنبية، بجانب العملة الوطنية. ويرى لامبير أن هذا الوضع أدى لتحول مصر إلى "مستعمرة لجميع الدول". والأسوأ من ذلك، أن الخلط بين القرش المصرى والقرش التركى الذى كان أضعف بشكل ملحوظ (بمعدل يتراوح بين ١٧,٢٥/٢٠) يزيف المعاملات التجارية بشكل دائم. وفضلاً عن ذلك، فقد أدى تدخل قنصليات الدول الأجنبية في تحديد أسعار تداول العملات، إلى تفاقم الفوضى، وكان لذلك تداعيات خطيرة على سيادة الدولة. لذا يجب، كما استنتج لامبير، أن تكون العملة الوطنية "محددة القيمة" و"متداولة بوفرة". وهذا هو الشرط الوحيد الذي سيجعل العملات الأجنبية الأخرى تصبح مجرد "سلعة" على أرض مصر"(٨٤).

ومن الممكن قياس مدى انخراط لامبير في المجتمع المصري من خلال أقواله تلك: تبنيه لرؤية مصرية صريحة كان نتيجة لعلاقاته الوثيقة بمن يمثلون النخب الجديدة من قيادات الدولة التى كونتها سياسة محمد علي. فهؤلاء المثقفون، الذين كانوا في الغالب من أصل تركي شركسي، أرسلهم محمد علي في بعثات تعليمية في الخارج، ولا سيما فرنسا، ليصنع منهم إطارًا لدولته، وعادوا إلى مصر في الفترة نفسها، على وجه التقريب، التي أتت فيها الحملة السان سيمونية.

ومن بين هؤلاء القائد التركي للبعثة التعليمية لعام ١٨٢٦، مصطفى مختار، الذي تم تعيينه رئيسًا للمجلس الأعلى للتعليم العام بدءًا من ديسمبر عام ١٨٣٥، ثم أصبح ناظرًا لديوان الجهادية في يناير عام ١٨٣٧. وكان مصطفى مختار قد أعرب من قبل، عن نيته في تقليص عدد المدرسين الأجانب إلى الحد الأدنى، فقد كان شديد الحرص على مصالح جيله وطبقته من الأتراك. وكانت هذه المصالح نفسها هي التي دفعته، على سبيل المثال، إلى دعم تجربة التعليم الطبي النسائي الذي اقترحه كلوت بك والذي وصفه مصطفى مختار بأسلوبه الخاص بأنه "أكبر نصير للتقدم والحضارة الأوروبية". وقد كان هو من قام بتعيين لامبير، قبل وفاته المبكرة، ناظرًا لمدرسة المهندسخانة. وقد ذكر لامبير أن عداء مصطفى مختار في البدء كان قد تلاشى وتحول "لمحبة حقيقية"(٨٥).

وحمل إبراهيم أدهم بك الراية بعد وفاة مصطفى مختار، وخلفه في رئاسة التعليم العام في نهاية عام ١٨٣٨. وكان إبراهيم أدهم قد أعلن منذ عام ١٨٣٥ انضمامه للسان سيمونية. وقد ذكر لامبير نحو عامى ١٨٣٧ و١٨٣٨ أنه كان شديد القرب والتعلق بالقس أنفانتان، ووصفه بأنه كان داعية، بل أيضًا قام بتكييف المبادئ السان سيمونية مع الثقافة الإسلامية.

> "إنه لاهوتي ضليع – كما يقول لامبير– وباحث نشط عن آثار للإيمان السان سيموني في الكتب التركية. وهو الآن ينشر بحماس متزايد ما شعر به من قيم عظيمة في الاعتقاد بأزلية الحياة. وعلى الرغم من مواجهته، في كثير من الأحيان، لبعض الأشخاص الأجلاف الذين لا يقدرون هذه اللآلئ من الأفكار، فإنه ينشرها بإصرار في كل مكان. على أمل أن يتم التقاطها".

وعندما توجه إلى إنجلترا في مهمة عام ١٨٣٧، كتب أدهم بك إلى أبيه العزيز (أي أنفانتان) يقول له إن دولة الصناعة لا تزال، في نظره، بعيدة جدًا عن تحقيق هذه "الدقة المتناهية في توزيع الربح، بحيث تعطي مالك رأس المال أرباحًا كبيرة، وفي الوقت نفسه تعطي رجل الصناعة، أي بلغة السان سيمونيين، العامل والمهندس على حد سواء، الذي يساعد في الإنتاج بعمله وجهده، مكافأة معقولة". وعندما قام بزيارة المصانع الإنجليزية، أدرك مع الأسف، أن العمال تحولوا لعبيد للآلات التي يعملون عليها. لقد كان يحلم "بحضارة شرقية" ولم يتردد في المناداة صراحة بإقامة اشتراكية دولة على الطريقة المصرية. وعلى الرغم من ميوله الإنجليزية الواضحة، كما يبدو، في نظر محمد علي، فإنه ظل ناظرًا للمعارف العامة والأشغال العمومية حتى تولى عباس باشا الحكم، ثم أصبح ناظرًا للتجارة. وبعد عودة لامبير، عام ١٨٥٧، كان أدهم بك حاكمًا للقاهرة ويحمل رتبة باشا، وعهد للامبير بمهمة تربية ابنه إسماعيل، خرِّيج مدرسة سان سير **Saint Cyr** العسكرية، وطلب منه تقديمه لأنفانتان. وفي الواقع، إن أدهم بك كان رجل سلطة، وفي الوقت نفسه، مفكرًا كبيرًا. فقد أشار جاك تاجر إلى العديد من الكتب العلمية التي قام بتأليفها، ولكنه للأسف لم يذكر أسماءها. ولهذا السبب، لم يكن غريبًا أن نجد اسم أدهم بك مع اسم رفاعة الطهطاوي في مشروع إصلاح ديوان المدارس الذي، للأسف، لم يتم من عام ١٨٥٤ إلى ١٨٥٥ وكان يهدف إلى تأسيس "المدرسة الأهلية"[٨٦] بدلاً من "المدرسة الأميرية".

على هامش هذه الصداقة المتميزة، فإن أرشيف السان سيمونيين به الكثير من المعلومات عن علاقات عمل لهم، ببعض المصريين المعروفين أو المنسيين. وقد أوصى أدهم بك لامبير، بناء على نصيحة جومار ودوجيه، في عام ١٨٣٤، بأن يستعين بمحمد بيومي ومظهر أفندي ومصطفى المراغي للعمل بمدرسة المهندسخانة. وهؤلاء الثلاثة، كما هو معروف جيدًا، كانوا تلاميذ أوجست كونت الذي كثيرًا ما ننسى أنه كان الابن الروحي لسان سيمون، فقد قدم جومار مظهر أفندي، وهو من أب تركي، إلى دوجيه باعتباره أقوى العناصر الثلاثة. فقد درس مظهر أفندي وهو في الخامسة والعشرين من عمره عام ١٨٣٤ في مدرسة الهندسة العليا بباريس ومدرسة الطرق والكبارى. ويعترف برونو، ضابط المدفعية، بمميزاته ولكنه دهش لتكليفه، عند عودته من فرنسا، بإدارة مدرسة المدفعية بطرة، على الرغم من عدم تلقيه أي تدريب كرجل مدفعية. ولهذا لم يقبل بأن يكون معاونه، عندما طلب منه ذلك، إلا بشرط ألا يكون تابعًا له. وقد تم حل هذا النزاع بتقسيم واضح للمسئوليات، ثم بتعيين مظهر أفندي، بعد ذلك، في التدريس مع لامبير، قبل توليه الإشراف على إنشاء قناطر النيل بعد إعادة العمل بها في عام ١٨٤٣ وإتمام الإنشاء في عام ١٨٥٣ وتوليه نظارة الأشغال العمومية.

أما بيومي أفندي فقد، وصفه دوجيه عندما قابله بأنه عربى يبلغ من العمر ما بين ٢٣ و٢٤ عامًا ولد فى القاهرة من أبوين كرديين. وبزعمه أنه الوحيد بين أبناء بلده الذي لم يحتفظ في فرنسا بالأفكار المسبقة المصرية، فقد وعد بيومي دوجيه "بتقديمه لعائلته وأن يعرفه بأمه وبأخواته البنات". وكقاعدة عامة، يرى دوجيه أن هؤلاء المصريين الشباب بحاجة لمن يدافع عنهم ضد "هوس المعارضة" للباشا؛ فقد يتعرضون لخطر كبير يدفعهم للهروب لصالح السلطان بسبب تعيينهم في وظائف ثانوية هامشية

وخضوعهم لقيادة من هم أقل منهم كفاءة. إلا أن ما هو مؤكد أن بيومي أفندي، لدى عودته من فرنسا، كون مع دوجلي وعبد الرحمن وطائل، ولحق بهم بعد قليل إبراهيم رمضان، أول نواة للمدرسين الذين أحاطوا بلامبير(٨٧).

إن ذكر قائمة بأسماء معاوني لامبير في مدرسة المهندسخانة أمر شاق، لا سيما أن هناك صعوبة في التعرف على الأسماء من طريقة كتابتها وتتبع وظائفهم. فمن هو، على سبيل المثال، "محمد شافعي" الذي درس معه لامبير في عام ١٨٣٥ المعادن بالجبال التي تحيط بالنيل في صعيد مصر٨٨؟ ومن هم وما هي وظائف كل من محمود وإبراهيم سالم وعلي وإبراهيم وسليمان حسانين ويوسف أفندي وحكيم وأحمد فتحي وأبو سنة؟

وماذا كان مصير تلاميذ دفعة عام ١٢٦٠-١٢٦١هـ المتفوقين، ولا سيما عبد اللطيف وشركس مصطفى (الذي كان الأول على الدفعة) وعطا حسن وحسانين السيد وعبد الرحمن وعثمان دكروري وخطّاب عبد المغني؟ إن أسماء هؤلاء تظهر بوضوح في لوحة الشرف بالمدرسة وكذلك في أسفل الدروس المصورة التي كانوا يترجمونها لزملائهم(٨٩). لكن الشيء الوحيد الواضح هو أن هؤلاء المهندسين، يشكلون بتضاعفهم، القاعدة الاجتماعية التي تولدت منها طبقة من التكنوقراط، تكاثرت بعد ذلك من تلقاء نفسها(٩٠).

وقد كان الصديق الحميم للامبير هو عبد الرحمن رشدي المدرس بمدرسة بولاق ثم أصبح بعد ذلك نائبًا لمدير المدرسة. وقد كان يتقن العديد من اللغات (فبخلاف التركية والعربية، كان يتحدث أيضًا الفرنسية والإنجليزية والإيطالية). وقد انضم إلى مجموعة السان سيمونيين الصغيرة التي اختارت أن تعيش في مصر (وهم لامبير وبرونو وبيرون وماشرو). وقد صاحب أدهم بك في إنجلترا عام ١٨٣٧ – ١٨٣٨، ثم عاد إليها في عامى ١٨٤٤-١٨٤٥ ليقوم بشراء ماكينات للغزل. ووقتها قابل كارليل **Carlyle** وبعث للامبير بتقارير مطولة عن فلسفته وكذلك عن الحالة في إنجلترا. وعند عودته، عين ناظر النظار لمصنعي بولاق، ثم رقي، في ١٦ يناير ١٨٤٦، بكباشيًا مدنيًا، مع منحه راتبًا قدره خمسة أكياس حتى يتمكن من الإنفاق على الانتقالات ما بين السويس والإسكندرية.

وقد تمت ترقيته، على الرغم من علو منصبه الذي يحسده عليه الكثيرون، بواسطة عباس باشا إلى رتبة قائمقام وحصل على البكوية عندما أرسله في مهمة دبلوماسية إلى القسطنطينية، في إبريل عام ١٨٥١، بصحبة أدهم باشا وخير الدين باشا. وكان الغرض من هذه المهمة التفاوض بشأن تطبيق تنظيمات في مصر بما لا يمس سيادة السلطان العثماني. وقد أيد عبد الرحمن رشدي رغبة عباس باشا في الحصول على دعم إنجلترا بتنفيذها وعدها بإنشاء خط السكة الحديد الذي يربط القاهرة بالإسكندرية والسويس. إلا أن خدمته لعباس باشا ضد السلطان العثماني، وبشأن إجراءات قضائية تتعلق بموضوع عدم انتهاك الملكيات والأشخاص، أدت إلى إحساس عبد الرحمن رشدي بتأنيب الضمير:

"ألم يكن هذا معناه أنني أصبحت عميلاً للهمجية ضد الحضارة"؟ ألم يكن بالأحرى، الاستقالة من أن أخدم رجلاً "لا يطلب سوى الانغماس في الملذات على حساب دم الفلاحين البؤساء"؟

والحق يقال، إن عبد الرحمن رشدي كان يميل بوضوح إلى الغرب، حتى في حياته الخاصة. والدليل على ذلك أنه أقر بضعفه أمام السحر الروحى للنساء الأوروبيات، ولهذا السبب طلق زوجته المسلمة ليتزوج في عام ١٨٥٠، من سيدة فرنسية وهي صوفيا ليفيلون **Sophie Léveillon**. وقد أثار ذلك ضجة كبيرة على الصعيد الديني. وقد انضم الاثنان إلى مذهب الأب ووضعوا صورته في مكان مميز بمنزلهما. وقد قام عباس باشا بإقالة عبد الرحمن رشدي من منصبه في مايو عام ١٨٥٠ قبل إرساله رفاعة الطهطاوي إلى السودان، لكونه، كما تخيل، "يميل كثيرًا إلى الأتراك والفرنسيين" بحيث أصبح خطرًا أن يظل في القاهرة. ويسبق الغضب على نوبار. الذى أدى إلى تأزمه بشكل عنيف، مما دفعه لاتخاذ قرار جريء: فقد تذكر عبد الرحمن رشدي هويته الملطية، فقام بإصدار جواز سفر إنجليزي باسم "موريس أولا **Maurice Eula** " وفكر في اعتناق المسيحية من أجل السفر لأستراليا. إن هذا المسئول الكبير هو في الحقيقة أحد أمهر الشباب الذين أرسلهم محمد علي لاستكمال دراستهم على نفقته الخاصة إلى أوروبا وذلك لتكوين إدارة حديثة للبلاد. فعندما كان في العشرين من عمره، ترك، على حد قوله، المجتمع الذي كان يعيش فيه "ليتخلص من وضعه كعامل بسيط، ويرضي طموحه بأن يصبح ذا شأن في البلد التي [كان يعتقد] أنه سيمضي بها بقية حياته". إلا أن موت عباس باشا مقتولاً وتولي سعيد باشا الحكم كان بداية لمرحلة جديدة ذات اتجاه مجند لأصدقاء الأوروبيين. وبينما استدعى أدهم بك للقسطنطينية حيث مكث بعض الوقت وتم العفو عنه، أصبح عبد الرحمن رشدي وكيلاً للتجارة وتمت ترقيته إلى رتبة "متميز". وفي الثالث من مايو عام ١٨٦٠، تولى منصب مدير الشركة المجيدية وهي الشركة المصرية للملاحة البخارية فى البحر الأحمر، كما منحه سعيد باشا إدارة المطبعة الأميرية ببولاق وأراضٍ بالمحلة الكبرى. وعندما توفى سعيد باشا كان عضوًا في اللجنة المكلفة بتصفية تركته، وقام إسماعيل باشا بتجديد إدارته للشركة المجيدية[٩١].

****

إن المناصب الرفيعة التي تولاها كل من أدهم بك وعبد الرحمن رشدي وما حققاه طوال حياتهما من إنجازات، وما وقع من أحداث خلال توليهما هذه المناصب، تعكس، فيما يبدو وبأمانة، الفترة التي تواجد فيها السان سيمونيون في مصر، وما تميزت به من تقدم وتراجع. فكما قال أنفانتان عندما وصف مسيرته في فرنسا، "إنها ثورة تأتي من أعلى"، فقد كان هذا ما ينطبق على الأعمال والجهود التي بذلها وحققها لامبير وأصدقاؤه عن طريق علاقتهم بكبار قادة دولة محمد علي وبإسهاماتهم في تعليم صفوة المجتمع المصري. ولكن يمكننا أن نتساءل: ألم يكن الطريق الذي سلكه لامبير ضيقًا للغاية؟ وألم يكن اتباع هذا الطريق من شأنه فقدان الإيدلوجية الرئيسية للسان سيمونية لجزء كبير من هويتها وجعلها تختلط بهذا الكيان الغامض والمبهم الذي يتفق البعض والبعض الآخر على تسميته "بالحضارة"، هذه الكلمة التي تفترض أن كل شيء خارج هذا الكيان هو نوع من الهمجية؟ إن هذا الطابع التكنوقراطي وما نتج عنه من تواطؤ مع حكومات فقدت شعبيتها كان هو، في فرنسا أيضًا، أحد

الأسباب التي أدت إلى إساءة معرفتها. ولكن هناك أمر يتفق عليه الجميع وهو أن السان سيمونيين لم يكن أمامهم خيار آخر، بعيدًا عن الأشخاص الذين مثلوا هذه الجماعة في ذلك الوقت. لقد كان هدفهم جميعًا الاتصال بمصر المستقبل بشعبها الناهض وأنهم في هذا المجال، لم يكونوا عمالا سيئين ولا أنبياء سيئين .

****

الهوامش

(1) Mémoires de A.-B, Clot bey publiées et annotées par Jacques Tagher, p.191.

(2) Lettre du 9 décembre 1834, F.E., MS.7/718/22.

(3) F.E., MS.7.618F°38V°.

(4) Voir d'Allemagne, *Les saints-simoniens*…, p. 408.

(5) Lettre à Lambert du 6 mai 1835, F.E., MS.7.670/60 .

(6) F.E., 7642/62, 3ème cahier, F°73.

(7) Lettre à Enfantin du 24 mai 1835, F.E., MS.7.739/37.

(8) Lettre d'Enfantin à Olivier du 9 décembre 1835, F.E., MS.7.741/7, et lettre du même à Aglaé Saint-Hilaire du 25 du même mois, F.E., MS.7.827/17.

(9) Voir *Voyage d'orient*, p. 52.

(10) Lettre du 17 décembre 1837, F.E., MS.7.739/61.

عن الزى الذي كان متوقعاً أن يرتديه عمال الإنشاء بالقناطر، راجع الفصل السابق.

(11) F.E., MS.7.739/39 et MS.7.739/41, 7.768/19 et MS.7.741/21.

(12) Lettre du 26 août 1838, F.E., MS.7.700/43.

(13) Voir lettres du 22 et du 27 décembre 1837, F.E., MS.7.739/53 et 61.

(14) Quatrième Cahier du *Voyage d'Orient*, passim et lettre de Sonnerat du 13 juillet 1835, Fonds Eichthal de l'Arsenal, MS.7.783/64.

في العصر الذي كتب فيه أوربن هذه الرسالة لم يكن إضافة مقطع (isme) إلى كلمة Islam الإسلام ينطوي على أية إيحاءات. أما كتابة الأسماء العربية التي وردت بالكتاب،فهي تختلف طبقاً لكاتب الرسالة.

(١٥) طبقاً لما ذكره Noël في رسالة له هناك طريقة رابعة لاعتناق الإسلام.F.E., MS.7.672/5

(16) *Souvenirs d'une fille du peuple*…, p. 271.

(17) Voir F.E., MS.7.739/39 et 68

تأثر السان سيمونيون كثيراً برواية المهدي، قائد ثورة الفلاحين ضد بونابرت.

(18) Manuscrit inédit, intitulé Ragueb 1251, circoncision (épigraphe : « Il y a des flammes comme des montagnes »- Ragueb), F.E., MS.7.773/90, FF.7R°,11R°-V°,18V°.

(19) Voir lettre à Hoart et à Bruneau du 3 septembre 1833, F.E., MS.7.618,F°4V°1.

(20) F.E., MS.7.742/4.

(21) Lettre de Clorinde Rogé à Enfantin, 24 août 1833, F.E., MS.7.647. F°21V.°

(22) Lettre à Enfantin du 20 juin 1845, F.E., MS.7.776/52.

(23) Programme rapporté par Suzanne Voilquin, Souvenirs…, p. 379.

(24) Voir les détails rapportés par Lambert, lettre à Enfantin du 23 septembre 1835, F.E., MS.7.739/44.

(25) Voir Anouar Louca, *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIX°siècle,* Paris, 1970, p. 72.

(26) Lettre à Lachèse, 15 novembre 1834, F.E., MS.7.753/9,F°7V°.

(27) *Mémoires…*, pp. 159-160.

(28) Souvenirs…, pp. 453-55 et 483.

(29) Suzanne Voilquin, « *Lettres sur l'Egypte* », Le Siècle, n° du 3 mai 1837.

(30) Lettre d'Olivier du 7 décembre 1834 (F.E., MS.7.614,F°19) et Revue Encyclopédique, t. LVI, 1833, p. 422.

(31) Même référence que supra n° 14, p.55.

(32) F.E, MS.7.626/39.

(33) Voir S. Voilquin, Souvenirs…, p. 14

ورد في هذا المرجع أن فوركاد Fourcade مات بعد تشريحه لإحدى الجثث المصابة بالطاعون (F.E, MS.7.776/138) أسباب اختيار كلوت بك ل Gondret في اللجنة الجماعية التي كتبت التقرير عن مرض الطاعون غير معروفة. قد يكون بسبب كونه ابن طبيب (F.E, MS.7.730/17,).

(34) Jagailloux, *La médicalisation de l'Egypte au XIX siècle*, p. 51 et p. 77.

في هذا المرجع يذكر الوظائف التي تقلدها بيرون وعملية استبداله بعباس باشا.

(35) Lettre au « Père » (Enfantin) du 17 février 1845, F.E, MS.7.670/50.

في هذا المرجع نجد أنه من بين الثمانية تلاميذ المذكورة أسماءهم، يوجد أربعة كان من المفترض إرسالهم لباريس (اثنان لدراسة تركيبات الأسنان، وكل ما يتعلق بطب الأسنان وتقويم الأسنان، واثنان لدراسة تصنيع تكرير الملح وكذلك دراسة صناعة مبيضات النسيج، كما كان من المفترض إرسال اثنين إلى مارسيليا لدراسة صناعة الصابون وتكرير الزيوت وتصنيع الشمع من مادة الستورين واثنين لألمانيا لدراسة طب أمراض العيون). ومن هنا ندرك أن مدرسة الطب، على خلاف اللائحة المنظمة لإنشاء المدرسة التي ذكرها ديوان المعارف العامة، كانت تهدف لإعداد خريجين ممارس عام، ومن بينها دراسة كيمياء التبريد باستخدام البوتاسيوم، المفيد في حالة الحرب أكثر من مجال الصحة. هذا بخلاف ترجمة كتاب:

Traité complet d'hippologie et d'hippiatrie arabes, Paris, 1852-1860 (3 vol, in-8°)

ثلاثة أجزاء ترجمة الناصري أبو بكر بن بدر بعنوان "إتقان اثنان من الفنون" وكذلك مقال عن "طب الأنبياء"

« La médecine du Prophète » Alger, 1860, extrait de la Gazette médicale de l'Algérie)

ترجمة جلال الدين أبو سليمان.

فإن المكتبة الوطنية بباريس La Bibliothèque Nationale تحتفظ بعملين علميين لبيرون Perron تم طباعتهما في المطبعة الأميرية ببولاق وهما: "كتاب الطبيعة، ترجمة إلى العربية يوحنا النوري عام ١٨٣٨، ٣٣٠ صفحة، وكتاب التحليل الطبي والكيمياء الطبية، ترجمة إلى العربية محمد بن عمر بن سليمان التونسي عام ١٨٤١-١٨٤٣ في ثلاثة أجزاء. ولم يكن الدور الحقيقي لبيرون محدداً بطريقة واضحة: هل كان يترجم أم كان يطلب من غيره أن يترجم أو أنه كان مراجعاً للترجمة؟

(36) lettre à Hamont du 28 mars 1835, F.E, MS.7.768/48.

(37) lettre d'Olivier à Petit écrite entre le 30 mars et le 23 avril 1835, F.E, MS.7.768L57.

(38) F.E, MS.7.728/41 et MS.7.728/42.

(39) Article de P. Granal dans la rubrique Variétés du Temps, 31 janvier 1838.

وفي المرجع الأخير نقرأ أن سليمان أفندي، وهو ثالث تلميذ مصري درس بمدرسة Roville، ذكره فقط Gondret الذي كان قد قابلة عند Dussap.

Lettre du 4 juin 1835 à Olivier, F.E, MS.7.730/17.

(40) Lettre d'Olivier à Busco le 5 janvier 1834, F.E, MS.7.768/42.

(41) Lettre de Duguet à Lambert le 30 mars 1835, F.E, MS.7.718/24.

(٤٢) المرجع نفسه. من أجل الاستحواذ على رضاء السلطات عن بوسكو، طلب دوجيه تدخل Jomard، العضو السابق بلجنة علماء حملة بونابارت ومدير البعثة المدرسية المصرية في فرنسا عام ١٨٢٦.

F.E, MS.7.718L24.

(43) lettre d'Olivier à Busco du 4 mars 1835, F.E, MS.7.768/43.

(٤٤) انظر هامش رقم ٣٧

(45) lettre de Prise à Olivier du 12 décembre 1834, F.E, MS.7.773/81.

(46) Lettre d'Olivier à Agarith Caussidière du 1er juin 1835, F.E, MS.7.768/45.

(47) Lettre d' Olivier à Hoart du 9 avril 1835, F.E, MS.7.768/40 et MS.7.768/62.

يوجد بهذه الرسالة تعليق مجهول المصدر حول عدم جدوى وعدم ربحية هذا التطوير إذا كان خارج نطاق كبار ملاك الأراضي.

(48) Lettre à Agarithe Caussidière du 30 mai 1835, MS.7.768/44.

في هذه الرسالة نقرأ أن ارتباطها بـــ Tossizz كان بتاريخ لاحق نحو يوليو عام ١٨٣٥.

(49) *Mémoire sur le lac Moeris.* Publié par la Société égyptienne, Alexandrie, imprimerie de A.E. Ozanne, 1843, 28p. in-4°.

قرأ هذه المذكرات وقدمها للشركة المصرية في ٥ يوليو ١٨٤٢، لينان دي بلفون، المفتش العام على قطاع الطرق والكباري، ورئيس الشركة المصرية. ونجد بها أيضاً خريطة مطبوعة لمدرسة المهندسخانة ببولاق. هذه النسخة محفوظة بأرشيف أنفانتان، مكتبة الأرسنال بكود ٥٤٩.

(٥٠) راجع الفصل الرابع، الملحوظة الخاصة بـــ "المدينة الجديدة".

(51) Lettre d'Enfantin à Duguet du 28 octobre 1834. F.E, MS.7.618,F°102V°.

(52) Aperçu.., t. II, pp.89-90 :

يلاحـــظ كلوت بك في هذا الكتاب أن موسيقانا [أي الموسيقى الفرنسية] لا تؤثر في العرب، بل تسبب لهم "الضيق" و"السأم" وعلى الرغم من ذلك، تم تعيين مدرس للموسيقى الأوروبية في كل كتيبة عسكرية.

(٥٣)راجع الهامش رقم ١٤ ص٥٩.

(54) Auriant, « Mohammed effendi », Le Manuscrit autographie, janv.- fév, 1930, pp.67-71, et F.E, MS.7.671/209.

(55) F.E, MS.7.759/5.

طبقاً لما ورد بإحدى الروايات التي ظهرت في عام ١٨٨٠ فإن شارل أدمون هو الاسم المستعار للبولندي Chojecki، رئيس التحرير السابق لجريدة صوت الشعب Voix du peuple de proudhon الذي حضر إلى مصر هرباً من اضطهاد الشرطة له، وكان صديقه ماسول Massol قد عضده لدى لامبير.

(56) F.E, MS.7.739/9.

(57) Lettre de Barrault à Alric du 2 septembre 1834, F.E, MS.7.691/54.

نجد في هذه الرسالة أن متطلبات ألريك تتوافق تماماً مع الفكر النضالي لجمعيات الفنانين في فرنسا في عام ١٨٣٠ الذين كانوا يطالبون بالاستقلال المادي والاعتراف بالفنون الجميلة على أنها أعلى وأرقى أنواع الفنون على الإطلاق.

(58) F.E, MS.7.788/44.

(59) F.E, MS.7.790/93.

(60) Lettre à Soliman pacha du 25 avril 1835, F.E, MS.7.742/62,F°71V°-72R°.

(61) Lettre de Lambert à Enfantin, F.E, MS.7.739/43 ; et le 23 septembre 1835, , F.E, MS.7.739/44 : ainsi que la lettre de Gondret à Olivier du 12 décembre 1835, F.E, MS.7.730/20.

(62) Lettre de Bruneau à Olivier du 23 mars 1836, F.E, MS.7.700/51.

يذكر أنفانتان في هذه الرسالة أنه وجد نفسه محاط ببعض الإداريين الأتراك لمراقبة أعماله في إدارة مشروع إنشاء القناطر (وهم سليمان أغا ومحمود بك) .Mémoire...p.439

(63) Lettre de Lambert à Prax du 29 juin 1837, F.E, MS.7.7421/21.

(64) Lettre de Lambert à Enfantin du 21 novembre 1838, F.E, MS.7.739/69.

(65) An 1262 de l'hégire, Rapport de Charles Lambert au vice-roi d'Egypte sur l'École Polytechnique de Boulac, F.E, MS.7.746/2.

التقرير الذي رفعة شارل لامبير لوالي مصر في عام ١٢٦٢هـ عن مدرسة المهندسخانة ببولاق.

(66) Feuilleton d'Urban, « L'arrivée au Caire », Le Temps, 25 décembre 1836.

(67) Lettre de Lambert à Enfantin du 22 juillet et du 25 décembre 1834, F.E, MS.7.739/10 et MS.7.739/28.

(68) Même référence que supra n° 65, ff. 5 v° et 6 v°.

(69) F.E, MS.7.718/39.

في يوم ٢٥ فبراير عام ١٨٣٤، طلب لامبير من Holstein كتاب L'histoire de l'école polytechnique de fourcy "تاريخ مدرسة الهندسة العليا" واللوحات الخاصة بمدرسة De Mancy. ولكنه طلب أيضاً معلومات عن مدرسة الطرق والكباري بسان بترسبورج، التي تم تأسيسها بناء على طلب قيصر روسيا من بعض المهندسين الفرنسيين الذين قابلهم أنفانتان خلال فترة إقامته في روسيا.

(70) Même référence que supra n. 65, f° 7 r°.

(71) Programme de l'enseignement de l'École Polytechnique proposées par une Commission spéciale modifiés et approuvée par le Conseil Supérieur de l'Instruction Publique, F.E, MS.7.764/1, pp. 47-48.

البرامج التعليمية بمدرسة المهندسخانة التي اقترحتها لجنة خاصة تم اعتمادها من قبل المجلس الأعلى للمعارف العامة.

(72) ibid. f° 8 r°.

من الملاحظ أن الأجازات قد تم اختصارها أيضاً إلى شهر واحد فقط.

(73) Même référence que supra n. 71, p. 5.

(74) Lettre à Enfantin du 20 juin 1844, F.E, MS.7.740/59.

(75) *L'Histoire de l'École Polytechnique de Fourcy*, p. 172.

طبقاً لما ذكره Dhombres، في الطبعة الثانية لهذا الكتاب أشار فورسي Fourcy أن التعليم المتبادل كان مطبقاً في مدرسة الطرق والكباري منذ عام ١٧٤٧، وعرض بالتفصيل النظام الخاص بالمعيدين وبقادة فرق مدرسة الهندسة العليا بباريس: وقد قام لامبير باقتباس النظام نفسه في مدرسة بولاق (راجع الهامش السابق ص ٨ وص٥٦-٥٧. أما بالنسبة لمدرسة الطب، أنظر Mémoires de Clot bey..., pp. 82-83

(76) Lettre de Lambert à Enfantin du 17 décembre 1837, F.E, MS.7.739/61 et d'Abder Rahman à Lambert du 26 juillet 1848, F.E MS.7.777/115 ; extrait copié du Rapport adressé à Mr le Ministre de l'Instruction Publique et des cultes par M. Pellissier, professeur de philosophie, chargé d'une mission en Orient, sur l'état de l'Instruction Publique en Egypte, en date du 3 juin 1849, F.E, MS.7.829/39.

(77) Lettre de Lambert à Enfantin du 27 avril 1846, F.E, MS.7.740/88.

(78) Lettre à Enfantin du 24 septembre 1841, F.E, MS.7.740/38.

(79) Lettre à Enfantin du 24 septembre 1841, F.E, 7.740/99.

(80) Instruction Publique. Projet de création d'un Collège égyptien, F.E, MS.7.746/3.

(81) Papiers personnels de Lambert (1834), Notes sur l'Egypte., F.E, MS.7.829/1.

(82) Voir les cartons 7.748 , 7.749 et 7.750 du F.E, le 7 janvier 1846.

ورد على هذه الخرائط عبارة ذكرها لامبير مقتبسة من لويس الرابع عشر، عن الضربخانة قال فيها "أنا الديوان والديوان أنا" (F.E, MS.7.740/80)

(83) *Note sur la monnaie égyptienne*, F.E, MS.7.750/3.

(84) F.E, MS.7.739/28, 55 et 69 ; 7.700/42 et 51 ; Mémoires de Clot bey..., pp. 160 et 324 ; Anouar Louca, Voyageurs et écrivains égyptiens..., p. 52.

(85) F.E, MS.7.744/2، 7.739/33,52,61,93، 7.721/4,6,12,13,16-18، 7.740/36 ; Ampère, Voyage en Egypte et Nubie, p. 128 (cité par Rouchdi Fakkar, Sociologie, Socialisme et Internationalisme prémarxistes, pp. 248-49) ; Mémoires de Clot bey ..., pp. 232-233 (y compris not de bas de page) ; Gilbert Delanoue, « Réflexions et questions sur la politique scolaire des vice-rois réfotmateurs », L'Egypte au XIX° siècle, p. 328.

(86) F.E, MS.7.718/22، 7.740/5، 7.746/2(F°5R°)، 7.700/51.

وعن التلاميذ المصريين لأوجست كونت، أنظر كتاب أنور لوقا

Louca, *Voyageurs et écrivains égyptiens*..., p. 260-62.

(87) F.E, MS.7.742/62.

(88) F.E, MS.7.746/3,F°16V° ، 7.747/1,F°4.

(89) Voir communication de G. Alleaume, « Linant de Bellefonds (1799-1833) et le saint-simonisme en Egypte », in Actes (à paraître chez Edisud) du colloque organisé par Magali Morsy à Sénanque (mai 1987) sur « le Modernisme, les Saint-Simoniens et l'Orient ».

(90) F.E, 7.721/14 ؛ 7.770/112,40,59 ؛ 7.778/37,62,65,71,76,82,89,102,106,107,114,116.

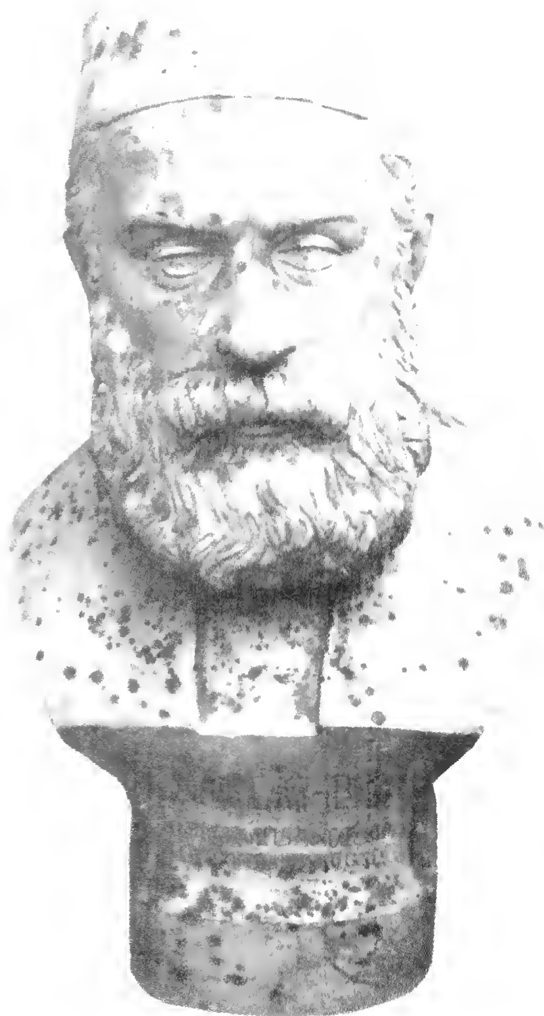
●●●●●●●●●●



صورة لشارل لامبير. طبعها مجهول
0, 35×0, 27 Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal



تمثال لشارل لامبير صنعه المثال
هنري لومير عام **Henri**
.Lemaire1849
0, 78×0, 57 متحف الفنون
الجميلة بمدينة فالينسيان



تمثال من البرونز للامبير بك للمثال Etex صنعه
عام ١٨٧٧ وضع عند سلم مكتبة الأرسنال.

0, 35×0, 20. Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal

شارل لامبير (١٨٠٤ - ١٨٦٤)

ولد شارل جوزيف لامبير بمدينة ڤالنسيان بشمال فرنسا في الثاني من يونيو ١٨٠٤، من أب كان يعمل تاجرًا متواضعًا بالمدينة. حصل لامبير على منحة دراسية من مدرسة دواي **Douai** الدينية، مكنته من الالتحاق بمدرسة الهندسة العليا عام ١٨٢٢، التي نبغ بها فكان أول دفعته حتى تخرجه عام ١٨٢٤. التحق بعد ذلك بمدرسة المناجم لمدة أربع سنوات، ثم انضم إلى جماعة السان سيمونيين عام ١٨٢٩، وظل لعدة أشهر لا يمارس مهنته كمهندس، من أجل تعليم العقيدة السان سيمونية بين المهندسين. ومنذ ذلك الحين، نظرًا لاتجاه تفكيره إلى المنطق وانشغاله بالميتافيزيقا أصبح هو المفكر اللاهوتي للمجموعة.

وعلى الرغم من عدم ممارسته لمهنة الهندسة، فإن شهاداته، دفعت محمد علي لتعيينه مهندسًا للمناجم في مصر. وكان في البداية يعمل مساعدًا للينان دي بلفون في رسم التصميمات الخاصة بقناطر النيل، حتى كلفه محمد علي باشا بمهمة التنقيب عن المعادن في صعيد مصر. وعند عودته، كلف بتأسيس مدرسة المناجم التي أصبحت بعد ذلك، بعد اندماجها بمدرسة حقيقيان، مدرسة المهندسخانة ببولاق والتي كانت قمة نظام التعليم في عهد محمد علي. وكان لامبير مسئولاً عن إعداد اللائحة التنظيمية للمدرسة والبرامج وأيضًا تدريس العديد من المقررات بمساعدة أربعة من المهندسين المصريين الشباب "الذين اعتبرهم أبناءه الروحيين" وهم: بيومي وطائل ودوجلي وعبد الرحمن رشدي. وباعتباره عضوًا بالمجلس الأعلى للتعليم العام، فقد شارك في إعداد جميع الخطط الإصلاحية المدرسية بسبب علاقته الوطيدة بناظر المعارف أدهم بك.

ومنذ توليه هذا المنصب، بدأ نشاط لامبير يزدهر في كثير من المجالات وتفانيه الكامل جعله يكسب ثقة محمد على الذى كلفه بمهام كثيرة. وفـيما يلي قائمة مختصرة لأنشـطـته، أعدها بنفسه عام ١٨٤٩:

"على مدار ستة عشر عامًا، شارك [لامبير] بشكل فعال في جميع الأشغال التي تم تنفيذها في هذا البلد، مع متابعة جميع ما يحدث في أوروبا. قناطر النيل، خط سكة حديد، قناة السويس، شق الترع في جميع ربوع مصر، الري الآلي وبواسطة الترع، اكتشاف المناجم بمصر، منجم ذهب فاظوغلو، وحديد كردفان بالسودان، منجم حديد بسوريا، الطبوغرافيا، رسم خريطة مصر، تنظيم التعليم العام والأشغال العمومية، البرامج التعليمية وفرق التفتيش المدرسية، إدارة مدرسة المهندسخانة، مرصد، ضرب العملة، تكرير الملح، مصانع الورق والنسيج الهندي، الطرق والكباري، توزيع مياه القاهرة .... إلخ تلك هي الأعمال التي شارك فــي تنفيــذها لامبير، أو بمعنى آخر، تاريخ خدمته. إلا أن هذه القائمة لا تذكر علاقاته الحية بالمصريين. ويروى لينان أن المرصــد الذى أنشأه لامبيــر تم نهبه وتدميره بعد



صورة لشارل لامبير وضعت علي زجاج الكنيسة التي دفن بها

مونبرناس بباريس. تصوير Seymour Morsy

شارل لامبير وبروسبير أنفانتان. *0, 15×0, 18. Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal*

مغادرته لمصر. ولكن هناك معلومة يجدر الإشارة إليها، قبل ختام الحديث عن لامبير، وهي أنه يرجع إليه الفضل، نتيجة لجهوده في إعادة نقل العلوم التي سبق أن اقتبسها الأوروبيون من العرب إلى مصر: فقد استطاع أحد تلاميذه في المرصد أن يستولى على تقويم القاهرة في تلك السنة ١٨٤٦ وأن يطبعه باسمنا "بحيث استطاع توزيع الساعات الشمسية في جميع جوامع مصر لتحديد مواقيت الصلاة، واكتسب، بذلك، محبة جميع مشايخ البلاد".

وقد كان لامبير يطبق المبادئ السان سيمونية أيضًا في حياته الخاصة، فهو يفضل "ممارسة التعددية في علاقاته النسائية". فبعد أن ترك، في فرنسا، بولين رولان (الزعيمة الجمهورية الواعدة)، تعرف على سوزان فوالكان (وأغلب الظن أنه أنجب منها طفلاً توفى بعد ولادته بقليل). ثم ارتبط بجوديث جريجوار **Judith Grégoire**، وأنجب منها طفلة غير شرعية أسماها "ألين بروسبير بينيلوب" **Aline-Prospère-Pénélope**، ثم سيدة مصرية قبطية، اسمها صبيحة، شقيقة رفيقه برونو، وأنجب منها طفلاً، ولد في الثاني من مايو عام ١٨٣٨، أسماه سعيد يوسف بروسبير. وعند عودة لامبير لفرنسا، كلف عبد الرحمن رشدي برعاية ابنه الذي يعتبر أصل السلالة المصرية للامبير بك. ثم انفصل عن صبيحة في عام ١٨٤٤، تزوج بعدها من ابنة برونو، بولين **Pauline** (واسمها الشائع مارجريت **Marguerite**).

ونتيجة للإرهاق والعمل بلا احتراس في التفتيش الطويل على مصنع مساحيق الصابون، اعتلّت صحته وطلب الحصول على إجازة في عام ١٨٤٧. وخلال هذه الفترة تم تصويره، فيما يبدو، خلال الرحلة التي قام بها في كل من فرنسا وإنجلترا وهو بصحبة أنفانتان. وقد تم استقباله، في فرنسا، بحفاوة كبيرة باعتباره الوزير المفوض للوالي محمد علي باشا. واستطاع بموجب ذلك، أن يستعيد جنسيته الفرنسية التي سحبت منه عندما قبل، دون الحصول على تصريح مسبق، الدخول في خدمة الوالي.

وعندما عاد لمصر، عينه إبراهيم باشا أميرًا للقصر، وكان مقررًا أن يزداد نفوذه، ولكن تولي عباس باشا الحكم أدى إلى توقف مهامه الوظيفية في مصر وعودته إلى فرنسا بصفة نهائية.

وفي فرنسا، عاد إلى دوره الأول كمعلم للاهوت السان سيموني، كما كان في منلمونتان. وإبان عهد الإمبراطورية الفرنسية الثانية، مارس تأثيره، والتف حوله مجموعة من السان سيمونيين الجدد وأسسوا المجلة الفلسفية والدينية **Revue Philosophique et Religieuse**.

وفي الثالث عشر من فبراير عام ١٨٦٤، توفى لامبير، قبل ستة أشهر من وفاة أنفانتان، ونظرًا لإيمانه بالمذهب السان سيموني الخاص بإلغاء التوريث، فقد ترك معظم ثروته للمدارس العسكرية المصرية ولا سيما مدرسة المدفعية.

وقد صنع النحات أتيكس **Atex** تمثالاً علويًا للامبير وضع عليه شعار مجلتى أورجانيزاتور وجلوب وهو "لكل حسب قدرته ولكل حسب عمله".

« A chacun selon ses capacités, à chacun selon ses œuvres ».

جـول سـونرا Jules Sonnerat:

قدم لنا H.-R d'Allemagne هذه اللوحة مؤكدًا على أنها "لسونرا رسمها ماشرو في مصر"[٢]. ولكن لا شيء على الرسم أو خارجه يشير إلى صدق هذا التأكيد. لذا فهذا الرسم مشكوك في هويته[٣].

أقام سونرا في مصر قبل وصول السان سيمونيين إليها. وكان يعمل، في البداية، موظفًا في خدمة محمد علي باشا، في أبي زعبل بصحبة بيرون Perron. وقد عم التوافق سريعًا بينه وبين السان سيمونيين حتى بدا وكأنه ينتمي إليهم. وقد أسدى لهم خدمات كثيرة في بداية وجودهم في البلاد. مثل مصاحبته لدوجيه وأوربان في مهمتهم الاستكشافية في صحراء السويس. ثم عمل بالتدريس في مدرسة الجهادية بدمياط، بصحبة أوربان. وفي عام ١٨٣٧ توجه إلى سوريا لإبرام صفقة شرانق حرير، إلا أن بعض المعوقات المادية التي واجهت Arlès-Dufour، في ذلك الحين، حالت دون إتمام هذه الصفقة.



صورة رسمها مجهول بالرصاص لجول سونرا
Fonds Enfantin 0, 23 × 0, 33
Bibliothèque de l'Arsenal 0, 23×0, 33

وعندما عاد إلى فرنسا، في سبتمبر أو أكتوبر عام ١٨٣٧، استخدمه دوكيان Decaen (أحد رجال الصناعة بمدينة أربوراس Arboras) قبل أن يتوسط له أنفانتان ليعمل سكرتيرًا في شركة السكك الحديدية (باريس – ليون). ولسونرا ولد أسماه (سعيد – بروسبير). مثل ابن لامبير، إشادة بمصر وبأنفانتان[٤].

Généalogie de Charles Lambert bey

Jean Noël Joseph Lambert (1764 – 1827) épouse Jeanne Agnès Braconnier (1762 – 1834)

Sophie – saint-simonienne, sans alliance ni postérité

Célestine – épouse le général J.-H. Daigremont d'où postérité

Constant – postérité éteinte au XIXe siècle

Charles Lambert bey – 1804 – 1864, saint-simonien, Fondateur de l'École Polytechnique du Caire. Bey, général, ministre plénipotentiaire égyptien, épouse une Égyptienne, Sabikha Hanem

- **Saïd Youssouf Prosper Lambert** – né au Caire 1838 – mort au Caire 1889, épouse au Caire le 7 janvier 1866 une Grecque Julie Palamari (1844 – 1934)
  - **Charles** – Directeur des Postes d'Alexandrie (postérité en France)
  - **Henry** – né et mort au Caire (postérité en France)
  - **Edouard** – né au Caire 1874 – mort au Caire 1946, épouse au Caire le 1er mars 1900 une Grecque, Alemini Stampa (1881 – 1965)
    - **Georges** – né au Caire 1901 – 1976, Architecte Décorateur du Roi d'Égypte, épouse Amalia Degni (1906 – 1984)
      - **Lucien** – né au Caire 1932
        - Odile, Jean-Frédéric, Yvonne, Nathalie, François-Charles, Edouard-Jean
    - **Fernand-André** – né à Ezbet el Zeitoun près Le Caire 1905, donna Laura Juppa des Marquis Juppa, petite-nièce de Juppa bey, compositeur de l'Hymne Égyptien, née au Caire 1909 – Mariage au Caire 1934
      - **Adrien** – né au Caire 1937
      - **Jacqueline** – née au Caire 1940, épouse Yves Cauro d'Alexandrie
        - Christian Cauro, Véronique Cauro, Jean Hugues Cauro
    - **Alexandre** – né à Ezbet el Zeitoun 1916, épouse Simone Barbier
      - **Hervé** – épouse Anne Margand
        - Marion, Antoine
  - **Sophie** – (Le Caire 1877 – Mataryeh 1947) sans alliance ni postérité
- **Safeya** – (née au Caire en 1847 – morte en 1856)

Généalogie sommaire de Charles Lambert. Document établi par M. Adrien Lambert et reproduit avec son aimable autorisation.

سلسلة نسب شارل لامبير. أعد هذه الوثيقة أدريان لامبير ونُشرت بناء على تصريح منه

سوزان فوالكان

إذا نظرنا إلى الصورة التي أمامنا، نستطيع التعرف بوضوح على شخصية سوزان فوالكان، نظرًا للشبه الكبير بين الحقيقة والصورة التي رسمت عام ١٨٣٩، وقد حُفظت في المكتبة الوطنية بباريس. الرسام نقل بدقة جميع التفاصيل: الشفتين، الإصابة التي بالأنف نتيجة لحادثة وقعت في الطفولة وروتها سوزان في مذكراتها.

وعندما أعيد طبع هذه المذكرات، في عام ١٩٧٠، بعنوان "ذكريات فتاة من الشعب"، أو فتاة سان سيمونية في مصر (باريس، ١٨٦٦)، كان ذلك إعادة لاكتشاف شخصية سوزان فوالكان التي أصبحت رمزًا لحركة تحرير المرأة في فرنسا.

بدأت سوزان حياتها المهنية كعاملة تطريز، ثم رئيسة تحرير لجريدة سان سيمونية بعنوان "المرأة الجديدة (أو منبر النساء)، تم تأسيسها في عام ١٨٣٢، وكانت تطبق في حياتها، مبادئ وفكر أنفانتان التي أعطت للمرأة الحق في عدم الإفصاح باسم والد أبنائها من الحمل سفاحًا. ولهذا، فقد نسبت ابنها الذي أنجبته في القاهرة، إلى اسهما هي، وكذلك الاسم الأول لدولونج ولامبير وأنفانتان تكريمًا لهم، فكان اسم الطفل: ألفريد شارل بروسبير **Alfred Charles Prosper**، ابن جان سوزان مونيه **Jeanne Suzanne Monnier**

إلا أن الطفل مات في الرابع من يونيو عام ١٨٣٦.

وبفضل الحلقات المسلسلة من مذكراتها عن حياتها في مصر، التي كانت تنشرها في جريدة (القرن **Le Siècle**) والتي شكلت أساسًا لكتاب ذكرياتها، استطاعت دفع نفقات تعليمها فن القبالة في باريس.





Suzanne Voilquin
صورة مطبوعة لمجهول
Fonds Enfantin 0, 23 × 0, 31
Bibliothèque de l'Arsenal 0, 23×0, 33



كارولين كاربونل وجوديث جريجوار وألفريد دولونـج

لوحة بالقلم الرصاص ***0, 14×20, 5. Fonds Enfantin, Ms 7.74 5/5 Bibliothèque de l'Arsenal***

وفي نهاية حياتها الصاخبة المليئة بالنضال، خصص لها أنفانتان وآرلس دوفور **Arlès Dufour**، في عام ١٨٦٤، دخلاً ثابتًا يتيح لها دخول مؤسسة سانت بيرين للمسنين **Sainte Perrine** في حي Auteuil[5]. هذا العمل التضامني السان سيموني يوضح، إلى جانب أعمال أخرى كثيرة، أن هذه الجماعة كانت تطبق المبادئ والقواعد الاشتراكية التى كانت تتمنى نشرها في المجتمع.

****

كارولين كاربونل وجوديث جريجوار وألفريد دولونج

نستطيع، من الصورة، التعرف على الشخصيات من الأسماء التي كتبها مجهول بالقلم الرصاص.

ألفريد دولنج، طبيب وصديق للدكتور دوساب Dussap وهو الذي اختاره ليكون خليفته بعد وفاته. انضم فعليًا لجماعة السان سيمونيين وارتبط بعلاقة حميمة بسوزان فوالكان ومات في العاشر من سبتمبر عام ١٨٤١.

أما الفتاتان اللتان عادتا إلى فرنسا مع سوزان فوالكان، على متن السفينة Pénélope، فقد ذكرتهما بأسماء مستعارة كنوع من التحفظ: (بوكارنل Bocarnel وجريجوريو Grégorio).

الفتاة الأولى هي كارولين زوجة أحد النساجين السان سيمونيين، هربت من بيت الزوجية بسبب تسلط حماتها. أما الثانية، فهي جوديث Judith فتاة ولدت خارج الزواج واعترف بها أبوها زوجة خياط يعمل في باريس، وأرادت، هي الأخرى، فيما يبدو، الهرب من استبداد أبيها. وقد ارتبطت كلتاهما بكلوريند روجيه، وانضمتا إلى جماعة "نساء الأم"، ووصلتا إلى القاهرة عن طريق بيروت ثم دمياط، بعد رحلة طويلة توقفتا خلالها طويلاً بالجزائر، حيث اضطرتا للعمل لدفع نفقات السفر. وأثارتا الانتباه عند وصولهما؛ إذ كانتا ترتديان ملابس تشبه زى الرجال: "قبعة (أمازونية) وشاح أسود ورداء أسود قصير وحزام من الجلد وسروال". وفور رؤيتهما، اجتهد لامبير لمنحهما نقودًا لخياطة ثياب أكثر تحفظًا من هذه الثياب العصرية.

أقامتا فى البداية في منزل لامبير، فقد تعرفتا أيضًا على أنفانتان. وقد أشار لامبير أن طموح جوديث الشخصي هو الذي دفعها لمحاولة التسلق للوصول للأب أنفانتان، وهنا يبين لامبير أن العلاقات المتحررة، داخل الجماعة كانت وسيلة، بالنسبة للنساء، للتطلع للسلطة[٦].

****

رسم تخطيطي يظهر فيه كل من محمد علي باشا وفتاة سان سيمونية ومئذنة وأشجار نخيل.

على ورقة واحدة، من ألبوم صور ماشرو، صدفة مضحكة جمعت شخصيات لا يمت أحدها بصلة للآخر، ولم يتقابلوا على الإطلاق: الوالي محمد علي باشا (الذي تتفق صورته مع الصور التي وردت بالفصل الثالث) وفتاه سان سيمونية، هي في أغلب الظن "جوديث أو كارولين" إذا رجعنا إلى وصف لامبير لزيهما المتشابه.



رسم تخطيطي يظهر فيه محمد علي وفتاة سان سيمونية ومئذنة وأشجار نخيل

0, 22×0, 32 Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal

محمد أفندي البيومي (١٨١٠ - ١٨٥١ أو ١٨٥٢)(٧)



محمد أفندي البيومي. . صورة قدمها أمين سامي باشا، تقويم النيل. القاهرة، ١٩٢٨، الجزء الثاني ما بين 596-597

ولد محمد أفندي بيومي في القاهرة، من عائلة تعود جذورها إلي مدينة دهشور بالجيزة. وقد كان عضوًا في أول بعثة تعليمية مدرسية يرسلها محمد علي لباريس عام ١٨٢٦. وقد نبغ في دراسته في باريس، حتى التحق بمدرسة الهندسة العليا عام ١٨٣٠، حيث التقى بأوجست كونت وتتلمذ على يديه. واستطاع بيومي إتمام دراسة جميع المقررات بالمدرسة، اشترك أيضًا في مسابقات الالتحاق بالعديد من المدارس التطبيقية ، ولكونه قد شارك في تنفيذ مشروعات عامة كبرى في فرنسا، يرجح أنها مدرسة الطرق والكباري) .

وبعد عودته إلى مصر عام ١٨٣٥، عين أستاذًا للهندسة في مدرسة المهندسخانة ببولاق، وكلف، إلى جانب ذلك، بتدريس محاضرات إضافية تعويضية لطائل أفندي ودقلة أفندي نظرًا لعدم تمكنهما من إتمام دراستهما في فرنسا. وعندما عين لامبير ناظرًا للمهندسخانة عام ١٨٤٠، أصبح بيومي أفندي عضوًا أساسيًّا لهيئة تدريس المدرسة المكونة من أعضاء البعثة التعليمية القدامى وهم: أحمد دقلة وأحمد طائل وأحمد فايد وإبراهيم رمضان، وقد عينوا جميعًا في آن واحد.

وفيما بين عامى ١٨٤٢ و١٨٤٣، إبان إنشاء رفاعة الطهطاوي لمكتب الترجمة، عين بيومي على رأس أول قسم للترجمة وهو قسم الرياضيات. وكرس معظم وقته للترجمة أو لكتابة المداخل التعليمية. فترجم كتاب ماير **Mayer** في الجبر وكتاب دوشن **Deuchesnes** في الهندسة الوصفية وكتابًا آخر في علم الحساب وكتابًا في حساب المثلثات وآخر في الميكانيكا، كما ألف دراسة في علم الجبر.

وفي عام ١٨٥٠، أصدر عباس باشا مرسومًا بنفيه للسودان ربما بسبب أفكاره السياسية. وقد كان بيومي أفندي قريبًا من جماعة السان سيمونيين ولا سيما مجموعة الإصلاحيين المناضلين بقيادة أدهم بك. وفي الخرطوم، عين مدرسًا للحساب في إحدى المدارس الابتدائية. وتوفى قبل إصدار الأمر بالعفو عنه. وقد زاره قبل وفاته أحد أصدقائه الفرنسيين وأهداه كتابًا ألف خصيصًا عنه بعنوان:"محمد بيومي في المنفى". وقال عنه علي مبارك: "لقد كان رجلاً ذا مبادئ وقيم عالية، رزين التفكير، سليم الحكم، ويحب المال بطريقته الخاصة"[٨].

****

محمد أفندي مظهر (١٨١٠؟ – ١٨٧٣)



محمد أفندي مظهر. صورة قدمها أمين سامي باشا، تقويم النيل. القاهرة، ١٩٢٨، الجزء الثاني ما بين 596 - 597

ولد محمد أفندي مظهر بالقاهرة، من أصل تركي، ويشبه، في مسار حياته، بيومي أفندي: فقد كان أيضًا عضوًا في البعثة التعليمية عام ١٨٢٦، ودرس بمدرسة الهندسة العليا وتتلمذ أيضًا على يد أوجست كونت الذي وصفه قائلاً: "كان أكثر التلاميذ المبعوثين، آنذاك، في باريس، ذكاءً وودًّا". وقد أتم دراسته عام ١٨٣٥، ثم سافر إلى إنجلترا، على الأرجح لتعلم الهندسة الصناعية التطبيقية. وقد تمكن، في ذلك الوقت، من تكوين علاقات عديدة جعلته يظهر، فيما بين عامى ١٨٣٠ و١٨٤٠، مع حقيقيان، باعتباره القيادي النشط الأول لحزب "أنصار الإنجليز".

وعند عودته للقاهرة، عين، في البداية، في إدارة مدرسة المدفعية بطرة، وكان قد أعاد هيكلتها السان سيموني برونو. كما كلف أيضًا، في الوقت نفسه، بتدريس محاضرات إضافية تعويضية لإبراهيم رمضان، الذي كان قد عاد من فرنسا دون إتمام دراسته. وكان، في ذلك الوقت، يحمل رتبة كومندان. ومثلما فعل بهجت، فقد ترك سلك التدريس ليعمل مهندسًا، في الإسكندرية، في إعادة بناء الفنار. ورقي لدرجة كولونيل، نظرًا لعمله مساعدًا لموجل في إنشاء القناطر الخيرية عام ١٨٤٠، وكان مسئولاً عن قناطر فرع رشيد (كان بهجت مكلفًا بفرع دمياط). وبعد انتهاء أعمال الإنشاء عام ١٨٤٦، اشترك مظهر أفندي مع بهجت في أعمال التفتيش بمنطقة الدلتا. فقد كان باشمهندسًا لمحافظة الغربية والجيزة، وكان بهجت مسئولاً عن محافظة المنوفية والقليوبية. وفي أثناء ذلك، سافر في مهمة لإنجلترا عام ١٨٤٣، ظاهرها زيارة المصانع لاختيار الماكينات اللازمة للصناعات المصرية.

وقد مرت حياته المهنية، في عهد عباس باشا وسعيد باشا، دون مشاكل أو عقبات. وفي عهد إسماعيل باشا، أنعم عليه الوالي برتبة باشا، أي (ميرميران)، وتم استدعاؤه في بداية عام ١٨٧٠، مع بهجت وإرسالهما لفرنسا مع موجل ولجنة من الخبراء، لدراسة كيفية إصلاح الشقوق التي ظهرت في القناطر بعد إتمام إنشائها. وبعد موت بهجت، في عام ١٨٧٢، عاد سريعًا للقاهرة ليخلفه في منصبه، إلا أنه مات في العام التالي(٩).

****

أحمد طائل وأحمد دقلة وإبراهيم رمضان

(لا تتوافر لدينا أية صور لهؤلاء المهندسين الثلاثة)

أولاً: أحمد أفندي طائل (؟ - ١٨٥٤)

ولد أحمد أفندي طائل بقرية بلتان بإقليم طوخ الملق بمحافظة القليوبية وتعلم في المدارس الأميرية. سافر في بعثة دراسية لفرنسا عام ١٨٢٧ أو (كما ذكر علي مبارك ١٨٢٩ حسب التقويم). وتم استدعاؤه عام ١٩٣٥، وعمل معيدًا لبيومى أفندي الذى أتم تأهيله.

ثم عُين مدرسًا بالمهندسخانة، عندما كان لامبير رسميًا ناظرًا لها في عام ١٨٤٠، وكان مسئولاً عن تدريس الميكانيكا والجبر، ولكن تم نقله سريعًا للأقاليم وكلف بإصلاح وترميم حواف نهر النيل. وفي عام ١٨٤٣، وشى به حاكم الشرقية نظرًا لتسريحه العمال قبل انتهاء أعمال الترميم واتهم بالرشوة وتم إحالته لمجلس تأديب وحكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر في موقع عمله وبوقف راتبه. وعندما علم محمد علي بهذه الواقعة، قرر إحالته، ليكون عبرة لغيره، لجمعية الحقانية التى حكمت عليه بالسجن خمس سنوات مع الأشغال الشاقة في ترسانة الإسكندرية.

وقبل انقضاء مدة عقوبته بعام ونصف صدر مرسوم بالعفو العام؛ مما ساعده على استعادة وظيفته كمدرس بالمهندسخانة ببولاق.

إلا أنه في عهد عباس باشا، تم نفيه إلى السودان، حيث عمل مدرسًا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم. ثم تم العفو عنه، في بداية عهد سعيد باشا، وتوفي ببولاق، بعد عودته بيومين.

ولم يكن علي مبارك صارمًا تجاهه بسبب زلة قدمه الماضية، فقد وصفه على العكس من ذلك، بأنه كان مدرسًا جيدًا ومحبوبًا جدًا من تلاميذه(١٠).

****

أحمد أفندي دقلة (؟ – ١٨٥٥ أو ١٨٥٦)

يرجع أصل أحمد أفندي دقلة إلى قرية بسيون (محافظة الغربية، مركز كفر الزيات)، وقد كان عضوًا بالبعثة التعليمية لعام ١٨٢٩، وكان استدعاؤه في عام ١٨٣٥، مثل كثير من المبعوثين، لعدم إتمام دراسته التي أتمها بعد عودته، برعاية محمد أفندي بيومي بمدرسة بولاق. وفي عام ١٨٤٠ عين مدرسًا للجبر والهيدروليكا بالمهندسخانة. وظل يمارس مهنة التدريس لمدة عشر سنوات، قام أثناءها بتدريب أغلب المهندسين المعينين، وكان ذلك في أثناء تدوين كتاب "الخطط".

وعرف عنه كفاءته وامتيازه كمربٍّ ومعلم. ألف كتابًا عن حساب المثلثات، وعمل فترة وكيلاً لمدير المهندسخانة، قبل أن يتم تعيينه عام ١٨٥١ في قلم الهندسة.

وفي عام ١٨٥٢، تم تكليفه أثناء حفر قناة المجيدية (محافظة البحيرة) بعمل مسح هندسي للمنطقة بأكملها. لقد كان، كما ذكر علي مبارك، مهندسًا عظيمًا، ولكنه كان ميالاً لشرب الخمر(١١).

****

إبراهيم أفندي رمضان (؟ – ١٨٦٤ أو ١٨٦٥)

ولد إبراهيم رمضان بقرية "الشبانات" (محافظة الشرقية، مركز الزقازيق). سافر إلى فرنسا عام ١٨٢٧، في البعثة التعليمية، ثم تم استدعاؤه عام ١٨٣٥، قبل أن يتم دراسته، ولكنه أكملها في القاهرة بفضل رعاية مظهر أفندي، بمدرسة طرة. وقع اختيار لامبير عليه للعمل في التدريس بمدرسة بولاق عام ١٨٤٠، وظل يعمل بها لمدة طويلة من أجل إعداد وتدريب تلاميذ علي مبارك الذين شهدوا له بالقدرة والكفاءة العالية. كان مكلفًا بتدريس الطبوغرافيا، وعلم المساحة والهندسة الوصفية والمنظور والهندسة الفراغية. وفي عام ١٨٤٠، حضر، إلى جانب مصطفى باشا بهجت، أول مسح لمدينة نبروه التي حُظيت باهتمام محمد علي باشا وأمر برسم خريطة لها. وقد كان هذا المسح بحضور طلبة الفرقة النهائية بالمهندسخانة.

في عهد عباس باشا، عندما نقلت نظارة مدرسة الهندسة لعلي مبارك، تم نقل إبراهيم رمضان للعمل في مدرسة الترجمة التي أنشأها رفاعة الطهطاوي. ويرجع إليه الفضل في ترجمة العديد من الكتب التعليمية مثل كتاب عن "مسح التربة" والدراسة التي أعدها عالم الرياضيات الفرنسي جاسبار مونج Gaspard Monge عن "المنظور"، وكتاب عن الهندسة الفراغية وآخر عن الهندسة الوصفية. وقد تم طباعة جميع هذه الكتب بمطبعة بولاق، وبعضها كان لا يزال يستخدم عند تدوين كتاب "الخطط" للمقريزي.

أما في عهد سعيد باشا، فقد تم تعيين إبراهيم رمضان في ديوان الوالي مباشرة، ثم في أعمال شق قناة السويس التي استؤنفت بعد الحكم الذي أصدره نابليون الثالث على مصر[١٢].

****

مصطفى باشا بهجت الحرمجي (١٨١٣ - ١٨٧٢)

ينتمي مصطفى بهجت باشا لأسرة عريقة أرستقراطية: الأم من مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية. والأب ألباني توفى وهو لا يزال صغيرًا، فتولى رعايته والوصاية عليه حسن باشا الأرنؤطى الأرستقراطي الكبير الذي عين له معلمًا، ثم ألحقه بمدرسة قصر العيني التجهيزية الحربية. والتحق بعد ذلك بمدرسة المهندسخانة بالقلعة، ثم سافر إلى فرنسا وهو في الثالثة عشرة في أول بعثة مدرسية تعليمية. وكما فعل مظهر أفندي وبيومي أفندي، فقد التحق بالمدرسة المصرية بباريس، ثم بمدرسة الهندسة العليا وتتلمذ على يد أوجست كونت. وعند عودته، تم ترقيته سريعًا إلى رتبة كومندان، ثم ناظرًا لمدرسة قصر العيني من عام ١٨٣٥ إلى ١٨٣٧، فناظرًا لمدرسة المدفعية بطرة من عام ١٨٣٧ إلى ١٨٣٩، بالاشتراك مع مسيو برونو. وفي عام ١٨٣٩ – ١٨٤٠، كلف بنظارة مدرسة الأشغال العمومية، واشترك في مشروع إعداد خريطة مدينة نبروه الذي كان المشرف عليه لامبير وتم تنفيذه، كما ذكر علي مبارك "بإتقان تام".



مصطفي باشا بهجت المحرمجي. صورة وردت بكتاب أمين سامي باشا، "تقويم النيل" القاهرة، ١٩٢٨، الجزء الثاني في صفحتي ٥٣٤ و٥٣٥

وتطورت أنشطة بهجت باشا، واتجه اهتمامه إلى أعمال الري، فأصبح كبير مهندسي محافظتي الشرقية والدقهلية حتى عام ١٨٥٠ – ١٨٥١. وفي عهد عباس باشا، عين مفتشًا للهندسة لمحافظتي المنوفية والغربية ومشرفًا على إنشاء جزء مهم من خط السكة الحديد الذي يصل بين القاهرة والإسكندرية. وقد ذكرنا في موضع سابق مشاركته في إنشاء قناطر الدلتا تحت إشراف موجل، وخبراته في ترميم التلفيات التي لحقت بهذا المشروع حتى عام ١٨٧٠.

وخلال فترة إقامته بباريس، كان بهجت قد تزوج من فرنسية اعتنقت الإسلام في مصر وأطلقت على نفسها اسم زليخة. وكانت تدير أملاك هذا المهندس الكبير ببراعة بحيث استطاع، كما يقول على مبارك، التفرغ لمهنته. ويعد مصطفى بهجت باشا أحد أعظم المهندسين المصريين في القرن التاسع عشر(١٣).

****

إبراهيم باشا أدهم(١٤)

ولد إبراهيم باشا بالقسطنطينية وتعلم بالطبع في مدارس السلطان سليم الثالث للمهندسين ما بين عامي ١٧٨٩ و ١٨٠٧. وصل إلى القاهرة إبان إنشاء محمد علي "للنظام في الجيش المصري". ونظرًا لكونه ضابط مدفعية، فقد كان أول أساتذة مدرسة القلعة (عام ١٨١٦)، كما ساهم في جعلها مدرسة لسلاح المهندسين على أسس سليمة. وشارك بفاعلية في إنشاء الجيش الجديد وقام بتدريب سريتين للإطفائيين وسرية لمهندسى الكباري، دخلت الخدمة عام ١٨٢٤. وطبقًا لما ذكره المؤرخ بلانا Planat: كان يحيط به، في ترسانة السفن، حوالي ثلاثين من الضباط الذين علمهم بنفسه قواعد الحساب وبعض قوانين فن الهندسة. وقد تقلد كثير من تلاميذه مناصب مدنية كبيرة منهم: إبراهيم بك رأفت، معلم علي مبارك المحبب إلى قلبه في مدرسة أبي زعبل، ومصطفى أفندي رسمي، مدرس بمدرسة المدفعية بطرة.

ونظرًا لكونه مساعدًا لمحمد علي وكاتمًا لأسراره، فقد منحه رتبة قائمقام وكلفه بإنشاء وإدارة ديوان المهمات الحربية وهو الذي يقوم بإمداد وتموين جميع دواوين الدولة، بدءًا من الجيش وحتى ديوان المدارس حتى ديوان الأشغال العمومية والمصانع.

لقد كان أدهم باشا، في الجيش، كالمأمور العام، امتدت سلطاته لتشمل بعض الإدارات المدنية. فقد كان يدير أحد التشكيلات العسكرية الصناعية الصغيرة لصناعة البارود وإصلاح السفن الحربية، وكذلك تشكيلات من الصناع الحرفيين والمقاولين. وقد ذكر علي مبارك أنه كان محبوبًا جدًا من عماله، حتى إنه كان لا يتردد في استقبالهم في منزله عند الحاجة.

وأثناء حملات الشام، أصدر محمد علي باشا مرسومًا بترقيته لرتبة أميرلاي. وعندما توفى مختار باشا، عام ١٨٣٨، تولى إبراهيم باشا جميع ما كان يتقلده من مناصب إلى جانب نظارته للمدارس والأشغال العمومية. ونظرًا لعلاقاته الوثيقة بالسان سيمونيين، فقد كان يرحب بجميع أعمالهم الإصلاحية في البلاد في نهاية ١٨٣٠. كما كان مقربًا لرفاعة الطهطاوي، وقام بدعم مشروعه لإنشاء مكتب الترجمة، واحتفظ، حتى عام ١٨٥٠، بنفوذه القوي في اختيار رجال الدولة وكذلك في التوجيه العام للأشغال العمومية.

وعندما تولى عباس باشا الحكم، تم تفكيك الفريق الذي كان يعمل معه: فقد نحي لامبير عن منصبه، ونفي رفاعة الطهطاوي، وتقلص عدد المدارس، واقتصر عمله على إدارة تسليح الجيش وديوان الأوقاف بأرض الحجاز.

فهل كان عباس باشا يخشى من ازدياد نفوذ هذا الخادم القديم الوفي لمحمد علي؟ وعلى الرغم من زوال حظوته عند عباس باشا، فإن ما عوضه هو تنازل محمد علي له عن مزرعة هائلة تبلغ حوالي ٨٥٠ فداناً، في قرية سبرباي بطنطا، مزروعة بأشجار الأكاسيا من أجل إصلاح الأراضي التي غمرتها مياه الفيضان.

وفي عهد سعيد باشا، تم العفو عنه وعين حاكمًا للقاهرة ورقي لرتبة ميرميران (التي تعادل درجة وزير)، واستعاد نظارة الأشغال العمومية والتسليح. بيد أنه لأسباب مجهولة، استقال من منصبه، عندما تولى إسماعيل باشا الحكم، وغادر مصر إلى تركيا. وتوفى عام ١٨٧٥، بعد مشاركته، قبل وفاته بعامين، باعتباره ممثلاً للباب العالي، في المؤتمر الدولي الخاص بتحديد غاطس موحد للسفن العابرة لقناة السويس. ومن الجدير بالذكر أنه انضم لمحفل الشرق الكبير الماسونى الفرنسى بإسطنبول(١٥) .

****



إبراهيم باشا أدهم
صورة وردت بكتاب أمين سامي باشا، "تقويم النيل" القاهرة، ١٩٢٨، الجزء الثاني ص 407 - 406

الهوامش

(1) F.E, (en particulier les cartes 7.671 ،7.691 ،7.651 ،7.743 ،7.739 ،7.740 ،7.744، 7.828 et la boîte en bois non cotée contenant le décret de réintégration) ; Linant de Bellefonds, Mémoires... Maxime de Camp, Souvenirs Littéraires ; Papiers Du Camp, Bibliothèque de l'Institut, MS3.751 ; Adrien Lambert Juppa bey, ouvr. Cité en bibliographie.

(2) *Les saint-simoniens*..., hors pagination (vers p. 420).

(٣) كان D'Allemagne، أمين مكتبة الأرسنال وكان قد كلف بحفظ أرشيف أنفانتان، إلا إنه، فيما يبدو، كان يحتفظ ببعض المعلومات والبيانات التي اختفت للأسف في عهده.

(4) *Voyage d'Orient* d'I. Urbain (Fonds Eichthal de la bibliothèque de l' Arsenal, MS13.736, passim) ; F.E, MS7.783 (en particulier ff. 48, 52, 55, 69 et 73).

(5) F.E, MS.7.791/44.

(6) F.E, MS.7/739/44-49 , 7.740/37, 7.743, 7.744/7, 7.789/41.

(٧) تم الحصول على المعلومات عن هذه الشخصية والشخصيات التالية، بالإضافة للصور الدالة عليهم بفضل تعاون "جيسلان ألوم Ghislaine Alleaume". طريقة كتابة الأسماء، تم اقتباسها من الوثائق التي حصلنا عليها.

(8) *Biographie dans Khitat, t.* XI, pp. 67-69 sous « Dahshûr ; Sâmî, Taqwim, t. II, pp. 598-617, « les membres des missions scolaires sous Muhammed Ali (n° 18) ; Tâgir, Targama, pp. 59-60 ; Zirikli, A' lam, t. VI, pp. 61-62 ; Louca, *Voyageurs, pp. 33-54 et 260-62.*

كتاب "الخطط" للمقريزي، الجزء الحادي عشر ص٦٧-٦٦، تحت عنوان "دهشور"، وكتاب "تقويم النيل" لأمين سامي باشا، الجزء الثاني ص٥٩٨-٧١٧، عن "أعضاء البعثات المدرسية التعليمية في عهد محمد علي" (رقم ١٨)، وكتب "التراجم" للشيخ داغر ص٥٩-٦٠، وكتاب "الأعلام" لخير الدين الزركلي، الجزء السادس، ص٦١-٦٢، وكتاب أنور لوقا "مسافرون وكتاب مصريون في فرنسا في القرن التاسع عشر" ص٣٣-٥٤ و ص٢٦٠-٢٦٢.

(9) *Taqwim,* t. II, pp. 598-617, n° 4 ; Zirikli, A' lam, t. VIII, p. 105 ; Tûsûn, Ba'thât, p. 40; Louca, Voyageurs, pp. 35-54 et 260-62.

كتاب "تقويم النيل" الجزء الثاني ص٥٩٨-٦١٧، رقم ٤، وكتاب "الأعلام" للزركلي، الجزء الثامن، ص١٠٥، وكتاب "البعثات العلمية" للأمير عمر طوسون، ص٤٠، وكتاب "مسافرون وكتاب مصريون في فرنسا" لأنور لوقا، ص٣٥-٥٤ و ص٢٦٠-٢٦٢.

(10) Khitat, t. IX, p. 78 ; Taqwim, t. II, p. 603 (n° 58) , lettre de Muhammed Alî et sentence de la Haute-Cour dans Madâris, 2/72 du Sha'bân 1259 et 2/78 du 14 Shawâl 1259.

كتاب "الخطط" الجزء التاسع، ص٧٨، وكتاب "تقويم النيل" الجزء الثاني، ص٦٠٣، رقم ٥٨، ورسالة محمد علي باشا، ومرسوم ديوان الحقانية رقم ٢/٧٢ الخاص بالمدارس، الصادر في الخامس من شعبان عام ١٢٥٩هـ ورقم ٢/٧٨ الصادر في الرابع عشر من شوال عام ١٢٥٩هـ.

(11) *Khitat,* t. IX, p. 65 ; Taqwim, t. II, p. 607 (n° 136) .

كتاب "الخطط" الجزء التاسع، ص65، وكتاب "تقويم النيل" الجزء الثاني، ص٦٠٧، رقم ١٣٦.

(12) *Khitat,* t. XV, p. 14; A' lam, t, I. p. 193; Taqwim, t. II, p. 605 (n° 110).

كتاب "الخطط"، الجزء الخامس عشر، ص١٤، وكتاب "الأعلام" الجزء الأول ص١٩٣، وكتاب "تقويم النيل" الجزء الثاني، ص٦٠٥، رقم ١١٠.

(13) *Khitat,* t. XV, pp. 56-58.

(١٤) أدهم هو الاسم الوارد في الوثائق العربية، أما "أتهم" فهو النطق التركي للاسم.

(15) *Khitat,* t. XII, p.5, sous Sabarbây, et l'autobiographie de Ali Mubârak, ibid., t, IX, p. 41, sous Birinbâl, Planat, Histoire, p. 156 ; Tagher, « Écoles populaires », Cahiers d'Histoire Égyptienne, t. I, n° 2, pp. 186-91 ; Charles-Roux, *L'Isthme et le Canal de Suez,* t. II, p. 17 (et photographie de groupe, p. 19).

المعلومة الخاصة بانضمام إبراهيم باشا (للماسونية) ترجع لدومون Dummont.

****

الفصل السادس

من القاهرة إلى باريس: ردود الأفعال

"تبعث الحركة الاقتصادية على الكوكب بأثره إلى إضفاء الطابع الاشتراكي على رأس المال. ويسير الشرق نحو اشتراكية رأس المال عن طريق العقار والامتلاك المباشر للأرض وجمع كافة رءوس الأموال غير المنقولة بين يدي الحاكم، ويتقدم الغرب نحو النقطة ذاتها عن طريق رأس المال المنقول، عن طريق كبرى الاتحادات الصناعية والميزانيات والبنوك."

(أوجوست كولان Auguste colin "مصر الحديثة"، Le Temps، ١٥ ديسمبر ١٨٣٧).

"إن أجمل وأعظم ما يمكنني القيام به هو أن أقف على المسرح بوصفي شخصًا ذا ثلاث سمات رئيسية وهي كوني فنانًا ومسلمًا ورسولا للإيمان الجديد وأن أكشف للغربيين النقاب بشغف عن رسالة محمد بكل ما فيها من عظمة وشعرية وإلهية، وأن أنصف الإسلام وأرد عنه كل ما يحاط به من استهزاء، وأن أضع محمدًا بفضل موهبته كرسول وفنان في مصاف موسى وعيسى."

(إسماعيل أوربان Ismayl Urbain – Voyage d'orient – المجلد الرابع).

بغية إعادة صياغة عنوان كتاب رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريس "تخليص الإبريز"، يتسنى لنا القول بأنه عند عودة السان سيمونيين من مصر شرعوا هم أيضًا في "تنقية ذهب" تجربتهم.

والأمر لا يتعلق في هذا المضمار بحصر وعرض جميع ثرواتهم، ولكن باختيار بعض منها وتقديمه لإثارة فضول باحثين جدد عن هذا المعدن النفيس. وفضلا عن صعوبة استنفاد مادة متناثرة في الصحف والمجلات، بل (وفي حالة فيلسيان دافيد) في التوليفات الموسيقية، يقف تعدد وجهات النظر وحده حائلا دون جمع كلام هؤلاء وأولئك في خطاب واحد موحد.

ومع ذلك لا يحول هذا التناثر دون تحديد مدى إسهام السان سيمونيين في تكوين تمثيل واضح للإسلام ونشره، ولا في تقدير اختلاف وجهات نظرهم فيما يتعلق بالدفاع السائد والاستعماري عن "الحضارة".

وفي المجال الاقتصادي تبدو مقالات أوجست كولان الأكثر ثراء في مجال المعلومات والاقتراحات، وقد تجاوز هذا "الفنان" المارسيلي – والذي وجد دون عناء في الإسكندرية أرضا لممارسة مهنته بوصفه محاميًا، بدأ مهنته بالدفاع الذي اضطلع به عن مصالح تجار النبيذ والمشروبات الروحية الفرنسيين ضد الإجراءات الضريبية التي فرضها الوالي[١]. وكانت مداخلته الأولى تسير على الخط الذي رسمه كتاب Système de la Méditerranée، واقترح تحسين الخدمة التي أعادت فرنسا إرساءها مؤخرًا والخاصة بسفن البريد في البحر المتوسط، وذلك عن طريق إنشاء واستخدام سفن أصغر، ومن ثم أسرع وأكبر عددًا قادرة على الربط بين الإسكندرية ومارسيليا في ستة أيام ونصف من الملاحة[٢]. ومع ذلك أظهرت مقالة تحت عنوان "مصر الحديثة" نشرت في الصحيفة اليومية الليبرالية "Le Temps" بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٨٣٧ أن التقارب في الزمان والمكان لا يلغي فى ذاته الاختلافات الثقافية، وأشار كولان وهو من الأنصار المعلنين لانتقال رأس المال – شأنه في ذلك شأن كافة السان سيمونيين – أن "للشرق اقتصاد سياسي خاص به" يختلف عن مبادئ الاقتصاد السياسي الغربي الذي تأسس انطلاقًا من ملاحظة "المجتمعات المسيحية والإقطاعية"، وهذا الاقتصاد السياسي الشرقي الذي لم تتم صياغته "يرتبط بصورة أكبر بالشعور الديني والإحسان"، ويعتمد كما يري كولان على "هذين المبدأين اللذين أقرهما القرآن وهما: أن الأرض ملك للحاكم وتحريم الربا"، وينشأ من المبدأ الأول "جمود ملكية الأرض والانتفاع من ملكيتها" ومن الثاني "استحالة الصناعة المصرفية وإقطاع المال" .

ويرى كولان أنه بفضل الرسول لم تتحول الأموال إلى طريق مشروع لاستغلال الإنسان"، وبدلا مما حدث في الغرب من "تحويل الإنسان إلى حساب جارٍ" وإضفاء الطابع المؤسسي على الجمعيات الخيرية المهينة للمستفيدين منها والتي تأخذ شكل دور للرعايا، تصل العلاقات الاجتماعية في الشرق إلى هذه المفارقة المتمثلة في "كون المجتمع فقيرًا (ولكن) ليس هناك عوز". فالتضامن الأسري والشعبي فضلاً عن الفريضة الدينية المفروضة على الأغنياء لتوزيع عشر ممتلكاتهم سنويًا تعالج عدم المساواة وضربات القدر". كما يختفي الدين العام بسبب تحريم الاقتراض بالفائدة، فامتداد احتكار الباشا لصناعات عدة وجهوده الخفية للسيطرة على مجمل الأنشطة الصناعية المصرية جعلت كولان يعتقد بأن ليس ثمة ما يمكنه التأثير على صلابة النظام وقوته ولا سيما أن ممارسة التذكرة (أذون خزانة تعطى للفلاحين مقابل إنتاجهم) تحد من استخدام العملة وتحفظ البلاد – بصورة أساسية من الآليات النقدية الخارجية: فالعملات الأجنبية التي يتم تحصيلها من الصادرات الضخمة راكدة في المواني والمدن، ومع ذلك يرى المحامي كولان أن كمية النقود العينية الأوربية المستخدمة في مصر تتجه إلى الزيادة وإلى أن تحل محل النقود العينية المصرية، وذلك

بفضل ثبات قيمتها. وعلى غرار لامبير يشرح كولان أن هذا "الاتجاه لن يتوقف إلا عند خلق عملة مصرية ثابتة". واستنتج كولان أن الأوربيين ونقودهم العينية أدخلوا الاقتراض بالفائدة، بيد أنه يرى أن الاقتصاد الإسلامي لن يسير في هذا المسار إذ "إن الأزمنة الجميلة للحضارة العربية أثبتت أنه من الممكن وجود – وذلك على نقيض رأي رجال الاقتصاد في أوروبا – "نظام تجاري وصناعي يطبق نظام الاقتراض دون فوائد على رأس المال"، وعلى الرغم من بعض المخالفات للدفاع عن الربا الذي حرمه الرسول، يثق كولان في أن المسلمين يشعرون بطريقة غريزية بأنه وفقًا لقانون الطبيعة لا يسمح امتلاك رأس المال بفرض العشور على العاملين".

"وهذا هو السبب في أن المسلمين في وقتنا هذا لا يبدون متأثرين بمشهد التشكيل الصناعي للدول الغربية واقتصادها السياسي الذي يقوم بصورة أساسية على الاقتراض بالفائدة؛ مما يشكل ركامًا مركبًا من العبودية القديمة والبربرية الإقطاعية ونظام الربا اليهودي في العصر الوسيط. ويستشعر المسلمون أن الاقتراض بالفائدة يجب أن يختفي؛ لأنهم لن يوافقوا أبدًا على تبني صناعتنا المصرفية، وسوف يستمرون في الاعتراض عليها حتى تزيد الثروة الإنسانية بصورة كبيرة – بفضل التراكم المتوالي لرءوس الأموال – لتنخفض الفائدة إلى نسبة جد متواضعة وتقوم الحكومة المالية لا الأفراد بتحصيل هذه النسبة، ومن ثم فإنه من تدبير العناية الإلهية توجس رءوس الأموال الأوروبية من الشرق وتراكمها في أوروبا حتى تنخفض نسبة الفوائد فيها بصورة متزايدة لتحين سريعًا اللحظة التي يمكن فيها تقديم رءوس أموال مجانية للشرق وذلك وفقًا لتعاليم الرسول (...)، وحتى ذلك الحين يكتفي الشرق باقتباس أساليبنا الصناعية وسائلنا وماكيناتنا ولكنه لن يلجأ إلى أموالنا – التي لا غنى له عنها مع ذلك شأنها في ذلك شأن أساليبنا لتحقيق الانطلاقة الصناعية التي يستحقها.(...) وعندما نرى محمد علي – ذلك الرجل الأقل تعلقًا بالأوهام والأفكار المسبقة والأكثر تفاوضية في عصره – وهو يرفض قرضًا كان خليقًا بأن يحصل منه على فوائد ضخمة ويمتنع عن الاستفادة من موقفه بوصفه مالكًا عامًا لمصر لينشأ مصرفًا حكوميًا فيتعين علينا الاعتراف بأن الشرق لن يقتبس أبدًا أفكارنا الخاصة بإيجار الأموال".

تلك هي النبوءة التي استخلصها كولان من تفاوت فائدة الحسم على جانبي البحر المتوسط (٤% في الإسلام مقابل ٢٤% في أوروبا)، ويؤكد كولان أن "التوازن الاقتصادي الحقيقي على الكوكب بأثره" يجب أن ينتج من "المواءمة بين النظامين الإقطاعي والإسلامي" عن طريق "خلق رأس المال الاجتماعي العالمي"[٣].

وهذه الأوهام أو التكهنات السابقة لأوانها لا تمنع كولان نفسه من إظهار معرفة دقيقة للتبادلات التجارية بين مصر وأوروبا، ففي مجلة **La Revue des Deux Mondes**" الصادرة في الأول من يناير ١٨٣٩ يقدم بوفرة أرقام الواردات والصادرات. بيد أن دراستها تقوده بصفة خاصة إلى تصور أن "كافة

العمليات تميل إلى المرور بين أيدي الأوربيين الذين يصبحون تدريجيًا مديرى الحركة التجاريـــة برمتهـــا". ويبرر كولان هذا التطور بالتسهيلات الممنوحة من الباشا للأجانب بالنسبة للوطنيين، إلى الحد – كما يؤكد – الذي تمني فيه بعض اليهود والأقباط أو حتى بعض الأتراك الحصول على جنسية أوروبية، وشـــعر كـــولان بالارتياح لنشأة "عالم تجاري في مصر" ليس له وطن، يأخذ شكل "عنصر متعدد الجنسيات" يرى فيه الأساس الاجتماعي القادر على إقامة اتصالات مادية من سكك حديدية أو قناة للربط بين أوروبا والهند، ومـــع ذلـــك يوافق كولان على "أن المصريين لا يمكن استبعادهم تمامًا من إدارة الأعمال التجارية"، وعلى العكس فهـــو يرى ضرورة "دعوتهم أكثر فأكثر"، وذلك بتعليمهم "مناهج الغرب" مع "الاحتفاظ بما هو نافع ومبتكـــر فـــي مبادئهم." وعلي أي حال تساءل كولان حول سبب فشل محكمة التجارة المختلطة التي أنشأها محمد علي فـــي القاهرة. ويقول كولان إن المصريين يعتبرون الممارسات مثل الكمبيـــالات والتفليـــسة "أدوات للاضـــطهاد والموت" وليست "وسائل لتنظيم المعاملات التجارية". واكتفى من ناحيته بأن يقترح على وزارة تجارة الباشـــا طريقة للتغلب على انخفاض سعر القطن (بسبب زيادة الإنتاج الأمريكي) عن طريق بيع القطـــن المـــصري بالمزاد المباشر في سوق مارسيليا، ولحل التناقض مع كلامه السابق والذي كان لصالح بيئة الأعمال متعـــددة الجنسيات في الإسكندرية يشرح كولان بأنه سيكون من الأفضل للباشا إلغاء التجار الذين يراكمون رأس المال "باستخدام عمل الطبقات الكادحة العربية" ثم يحولون رءوس أموالهم بالكامل إلى بلادهم. إن توفير مثل هـــذه المزايا للصناعة خليق بجذب حرفيين وصناعيين أكثر نفعًا لتطوير الصناعة المصرية. واختتم قائلاً بأن هناك فرصة أخرى لمصر تكمن في خروج البلاد من فلك أوربا الحصرى وذلك بفتح طريق التجارة الكبرى بـــين أوروبا والهند: حتى لو مرت البضائع في ترانزيت فقط ستظل هناك "آثار خصبة" باقية(٤).

والحق أن منهج كولان كان براجماتيًا أكثر منه مذهبيًا، وعندما دعي عام ١٨٣٧ لتمثيل مندوبي التجـــارة الفرنسيين في مصر في المحادثات الخاصة بالتعريفة الجمركية مع الباب رفض زيادة النسبة التي طالب بهـــا العثمانيون وطالب "بحرية التجارة الداخلية وحرية التجارة فى المستويات المتماثلة" وكذلك "بإلغاء الـــضريبة على النبيذ والمشروبات الروحية وإلغاء منع البن الأمريكي". أدرك كولان أن منطق هذه المبادئ يؤدي بعـــد حين إلى هدم نظام احتكار الباشا وتدفق رءوس الأموال الغربية التي تجذبها إمكانية شراء المحاصـــيل مـــن المنتجين مباشرة، ويري كولان أن تنافس رءوس الأموال تلك يجب أن يؤدي إلى ارتفاع الأســـعار وشـــراء محاصيل من الحقل ومن ثم قروض رهنية عقارية وتكوين بنوك زراعية. وبغية معالجة الآثار الضارة التـــي مارسها هذا النظام في أوروبا أقترح كولان بأن يعلن الباب – على غرار محمد علي بالنسبة لمـــصر– "أن كل أراضى الأمبراطـــورية هي ملك للدولة"، وذلك وفقًا للمبادئ التي أقرها القرآن والتي تقول بـــأن الأرض ملك للحاكم". ويفسر من ثم بأن المزارعين الشرقيين سيكونون أصحاب حق انتفاع بمنأى عن مصادرة أدوات

عملهم، وفضلا عن ذلك إذا كان إفلاس التجار مستحيلاً "وفقًا لتعاليم الرسول" فإن مواءمة العنصر الاقتصادي الإسلامي مع العنصر الإقطاعي أو المصرفي "ستؤدي في الإسلام إلى "تحسين ظروف العمال"(٥).

***

ولم يغفل السان سيمونيون الآثار الدينية المترتبة على الاتصالات بين الشرق والغرب، وبتطبيقهم لرؤية لتاريخ الديانات مماثلة للرؤية التي يطبقونها على المسيحية تبنوا فرضية قبلية عن تحول تدريجي يحترم التقاليد ويحركه الإيمان. ويصعب اتخاذ هذا الموقف بطبيعة الحال إزاء رأي عام فرنسي تسوده الفكرة المسبقة الخاصة بتفوق "الحضارة" هذا إن لم يكن معارضًا للفكر الديني بصفة عامة. وفي هذه الظروف فإن استراتيجية السان السيمونيين الخطابية تتمثل في إظهار نوع من التواطؤ مع الأفكار المسبقة حتى وإن تمثل ذلك في اختيار ألفاظ تشهيرية بغية تمرير بعض المعلومات والتقديرات في الإيديولوجية الغربية من شأنها تحويل هذه الأخيرة لصالح الشرق، ومن المؤكد أننا لا نقصد بهذا أنهم لا يتقاسمون على الأقل بعضًا من الأفكار المسبقة الخاصة بالنظام الذى يحاربونه، ولكن يعني أنهم يبذلون جهودًا مخلصة ومثابرة بغية تعديل النظام في مجمله، ويتعين أن نأخذ في الاعتبار هذا الموقف المكافئ في مضمونه لموقف الشيخ رفاعة كي نقرأ كلامهم بطريقة سليمة.

وكان إسماعيل أفندي – الذي يوقع بحذر غالبية مسلسلاته المنشورة في مجلة **LeTemps** باسم "توم. يو **Tom . U**" (توماس أوربان)- يجامل على سبيل المثال الفخر الوطني وهو يتحدث برضا كبير عن ذكريات حملة بونابرت في مصر. وأشاد "بالتسامح الفرنسي" فى مواجهة "التعصب الديني" للمسلمين، ولكنه كان يستهدف من وراء ذلك الدعوة في الخاتمة – إلى احترام أكبر للتقاليد الأسرية تبعا لنموذج محمد علي:

"حافظ المسلمون العرب على الاحترام لعادات أجدادهم ولديانة رسولهم، ولم تؤثر الإصلاحات التي قام بها محمد علي في مصر منذ أكثر من عشرين عامًا في شيء على التكوين الأبوي للأسرة العربية، ولقد شهدنا بعض المغامرين الأتراك الذين لا يرتبطون بأية روابط عائلية في مصر يفخرون بأنهم أنصار الحضارة الأوروبية، لأنهم يشربون النبيذ ويمارسون آلاف الممارسات الدنيئة، بيد أن الفئات الشعبية لم تتأثر قط برياح التجديد. والشعب الذي تتزايد معاناته يوميًا لا يتحرك، وقد يتمنى في نفسه تدخل فرنسا (هكذا)، ولكننا لن نراه في يوم ما متمردًا بعنف ضد الوالي إلا إذا حاول هذا الأخير تدنيس القرآن وعادات الحريم. وتحتاج الشعوب المسلمة أن تتعلم منا العمل والصناعة وعلم الإدارة والحياة السياسية والاجتماعية باختصار، بيد أنه يتعين احترام طابعهم الخاص وتقاليدهم العائلية. وحتى تزدهر الشجرة العربية مرة أخرى يجب تقليمها لا قطع جذورها. فعن طريق مشاعر التسامح والاعتدال فقط يتسنى لنا التأثير على الشرق بصورة قوية ودفع المسلمين لتبني إصلاحات نافعة لتطبيقها على مؤسساتهم القديمة والراسخة حتى يتم إنقاذ المجتمع من البلاهة ومن البربرية".

إن كل كلمة في النص الفرنسي موزونة بدقة اعتبارًا من كلمتي الختـام "بلاهـة" "وبربريـة" وحتـى استخدام الحروف الصغيرة وفي كتابته وكلمتى الرسول والقرآن. بيد أن الأهداف المنشودة واضحة وشـفافة: فالأمر يتعلق بالكفاح من أجل تحديث الإسلام الذي يترجم – من ناحية – عن طريق رفاهية أكبـر للـشعب، ومن ناحية أخرى بحفاظه في ديانة رسول الإنسانية على ما استشعره إسماعيل بصورة شخصية، وهو الـذي كثيرًا ما شعر بالجرح في فرنسا بوصفه ابنًا غير شرعى لجارية سـوداء، وبـصورة عامـة أراد أوربـان استخلاص عناصر تحالف بين المسلمين والفرنسيين ضد السلطة الديكتاتورية والتركية للباشا. ولمعرفة جوهر فكره يمكننا قراءة فقرة أخرى من ذات المقال:

"حين رأى الشعب تزايد بؤسه عندما أراد الأتراك نقل المؤسسات الفرنسية، سأل الأجانب لمعرفة إذا مـا كانت ذات هذه المؤسسات هي التي تحكم بلادهم. يريد العرب أن يعرفوا تفصيليًا أسـلوب تعييننـا للمـوظفين وأسلوب جمع الضرائب والتشكيل الحر للملكية وعدم انتهاك المواطنين. وعندما يعقدون مقارنة بين مؤسـساتنا والتجنيد الإجباري الذي أسسه محمد علي في مصر وجشع الضرائب والإهانات اللانهائية التي تهدد الملاك دوما والقمع القهري الذي يعاني منه الشعب ينتهون إلى التمني بأن يدعى الفرنسيون ليطبقوا في مصر هذه القـوانين التي يعرفونها بطريقة أفضل من الأتراك بما أنهم واضعوها."(٦)

وعلى غرار أنفانتان راهن أوربان على تحالف فرنسي – عربي ضد الأتراك ، ومع ذلك اقترح حـل التناقض الذي أوجده محمد علي بين التنمية الإنتاجية وَتحسين ظروف الشعب عن طريـق إدخـال تـشريع مأخوذ في مجمله عن تشريع الثورة الفرنسية، كما أنه لا يخفى أن هذه الإصلاحات تمر أيضًا عبر نقد التقاليد وثورة للقيم تضع العمل المنتج في المقدمة:

"يعد العمل أهم ما يتعين تعليمه للشرقيين ولهذا يجب تقويض كافة ما يعوق تقدم الـصناعة فـي مؤسساتهم الدينية والسياسية : يتعين تعريفهم قيمة المال كوسيلة – لا تستخدم حصريًا للمتعة – ولكـن فى العمل"... (٧)

وإزاء الفراغ شبه المطلق للمعارف المعاصرة في فرنسا بكل ما يختص بالشريعة الإسلامية اضـطلع سان سيموني آخر من مصر وهو الدكتور نيكولا بيرون **Nicolas Perron** بدور المكتشف وبالرغم من نشر الأربعة أجزاء من ترجمته لكتاب الخليل بن إسحاق "موجز الفقه الإسلامي" أو "مبادئ التـشريع الإسـلامي المدني والديني وفقًا للمذهب المالكي" في باريس في الفترة من ١٨٤٨ وحتى ١٨٥٧ في إطار أعمال لجنـة الاستكشاف العلمي للجزائر، تعد هذه الأجزاء ثمرة لدراسات أجريت في مصر. والدافع لإجراء هذا العمـل الضخم هو الرغبة في معرفة الشريعة لإصلاحها. وهكذا يفسر بيرون، بوصفه طبيبًا في المقام الأول، تحريم

التشريح أو السماح بدفن الجثث على مسافة قريبة تحت سطح الأرض في الملكيات الخاصة بأنه عقبات إزاء سياسة صحية تتعلق بالصحة العامة، وكذلك إزاء التحقيقات القضائية الجنائية. وعلى صعيد آخر يرى ضرورة إلغاء عقوبة الإعدام التي يواجهها المرتدون أو الذين لا يؤدون الصلوات الخمس"[٨]. كما ترجم بيرون أيضًا عملاً لعبد الوهاب الشعراني وهو فقيه مصري في القرن الخامس عشر يحمل عنوان : "ميزان الشريعة الإسلامية أو روح التشريع الإسلامي والخلافات بين المذاهب الفقهية الأربعة". واستغل بيرون الفرصة مرة ثانية ليعلن : "إن أي قانون مغلق أو مسدود هو أمر مناقض للعقل ونوع من الهمجية والإهانة"[٩]. ولكن في سياق الزمان يكمن معنى هذه الأعمال المترجمة بصورة أقل في تحذيرات مماثلة- بالرغم من صدقها - عنها في إدخال الكتب التقليدية للشريعة الإسلامية في المجال الفكري الفرنسي. وفي التقرير الذي قدمه أوربان لمجلة " **La Revue de Paris**" عن كتاب خليل بن إسحاق في نوفمبر **1851** وجه انتباه رجال القانون الفرنسيين إلى ضرورة الإفادة من الكتاب لإجراء "دراسات مقارنة مع القانون الفرنسي" والسعي إلى استخلاص ما يمكن الحفاظ عليه وما يجوز تعديله فقط من هذه الأحكام والقوانين بغية أن يتمكن المجتمع الإسلامي من العيش جنبًا إلى جنب مع المجتمع الفرنسي والانتساب إليه إلى حد ما". وعندما تحدث أوربان عن الموقف الخاص للجزائر عبر عن استيائه، لأنه بعد مضي عشرين عامًا من "السيطرة" لم يفكر أي أستاذ في القانون في إعطاء بعض الدروس عن الفقه الإسلامي[١٠].

واستخدم أوربان التمييز بين الدين والعادات في إبراء ساحة الإسلام من ممارسة العبودية، وكان أوربان يشعر بجرح عميق لعدم اعتراف أبيه به شرعًا بسبب نسبه العبودي والأسود لأمه، وأعجب بالتقليد الذي كان يمنح وضع "أشخاص أحرار" لأبناء الجارية من سيدها، وكذلك للجارية نفسها بعد وفاة سيدها، وتأثر بما أوصى به القرآن من تحرير العبيد، ولكنه لم يمنع نفسه من الحديث عن الرفض الذي يعاني منه أطفال الأم السوداء وعنصرية "التراث الشعبي للشرق حول نشأة الجنس الأسود المستمد من سفر التكوين" وأسهب في التنديد بسياسة محمد علي العبودية في كردفان ودارفور وسنار .. وقدر أوربان عدد البؤساء الذين انتزعوا من بلادهم بحوالي ٦٠,٠٠٠ شخص، وأشار أن خمسة آلاف أو ستة آلاف منهم فقط هم الذين ظلوا على قيد الحياة بعد الحروب التي استخدموا فيها والمعاملة السيئة التي عانوا منها، ولم يتردد أوربان في التنديد "بكبير أطباء الجيش وهو مؤلف الوصايا المشئومة التي طبقها الوالي، والأمر يتعلق بكلوت بك إذا ما فهمنا بصورة سليمة الإشارة التي أدت إلى ابتكار فكرة نقل حوالي ١٠,٠٠٠ سيدة سوداء من هذه المناطق إلى القاهرة. بغية تزويجهم بالعسكر السود للنظام الجديد ومعالجة قلة عدد السكان، وأضاف أوربان: لم يكن الطبيب أو الوالي من حيث المبدأ ليفكرا في التخلي عن "هذه الزيجات الجماعية". وهذه الزيادة في المواليد التعسفية، والتي ليس لها بصورة بديهية أية علاقة بالإسلام، امتدت إلى المصريين. وكتب أوربان في سبتمبر ١٩٣٦: لقد قاموا أيضًا مؤخرًا بترحيل بضعة آلاف من الفتيات إلى سوريا لحشود الفلاحين"[١١].

وتمثل ظروف المرأة العربية حجر الزاوية لأصالة تطور موقف السان سيمونيين بالنسبة لديانة النبي نفسها، ولم ينكر الرفاق القدامى للمرأة رغبتهم الأولى في العمل على تحرير النساء الشرقيات، وقدموا وصفًا أقل عدوانية لموقفهم الحقيقي. وفي نص غير منشور لعبد الرحمن (براكس Prax) دفع عن نفسه الادعاء بضرورة "التزام النساء بالحجاب" وأكد أن "هذه العادة مقتضى (...) تعطي الحرية للنساء اللاتي يسرن في الشوارع وتقيهن من الشعور بالتحرش والإهانة بسبب مقتضى الفرص"، ويتذكر مناقشات ١٨٣٢ في فرنسا حول إعادة إقرار الطلاق، لافتًا النظر – بقدر كبير من التبسيط – إلى أن المرأة في الشرق "تتمتع بحرية الانفصال عن زوجها، بشرط واحد يتمثل في إبداء الأسباب والدوافع، ورد المهر الذي حصلت عليه عند زواجها"[١٢]. ولم يتم إغفال الحريم أيضًا عملية رد الاعتبار الحازمة والمتباينة في الوقت ذاته، فقد رأى براكس في الحريم وسيلة مناسبة لتقليل عناصر الغيرة في الحياة الزوجية[١٣]. وأظهر جرانال Granal من جانبه أن الحريم مجرد معزل أكثر منه مكانًا "للرغبة الهمجية والعنيفة" وأن هذا "السجن" هو أيضًا "عرش النساء". وأما السؤال عن وجود حالات تمرد كامنة به، فاقتصر جرانال على نقل الأسطورة القائلة بوجود تمرد نسائي في زمن الخلفاء الأوائل بعد وفاة الرسول، بوقوف عائشة ضد علي مؤيدة مطالبة النساء بحقهن في الزواج بأكثر من رجل. ويروي جرانال أن هذا الوضع أدى برجل أكثر مكرًا من الآخرين إلى اقتراح الإحالة إلى الرسول وذلك عن طريق إرسال رسالة له بواسطة غراب. ويؤكد جرانال بأن النساء لا تزال ينتظرن الغراب!"[١٤] ويمكننا أن نضيف مثلهن مثل السان سيمونيين الذين تمنوا دون جدوى نزول المرأة المسيح التي كان من المفترض أن تؤسس تعدد الأزواج الذي حلمت به النساء المعاصرات للسيدة عائشة، وفي الواقع ففي الشرق كما في الغرب لا تحمل النساء لحواريي السان سيمونية سوى صدى أسئلتهن الخاصة. ويرى أوربان أن مشكلة الحريم والحجاب – الصورة المتنقلة لفكرة الحريم – يصعب الفصل فيهما:

" إن غموض الحياة الخاصة والانطباعات الشخصية للعائلات تظل محجوبة وغير معروفة. إننا لم نر الزوجة في وجود زوجها، ولم نسمعها وهي تتكلم (...) هل هي سعيدة في وسط كل ما يحيط بها من ترف؟ أتأمل في وضع أفضل في الزواج؟ أتئنُ مما نطلق عليه نحن عبوديتها؟ لا أحد يعرف. إن البوح بالأسرار الفردية ليس له أية قيمة مؤكدة هنا؛ لأن المرأة تخدع وتكذب عندما تلاحق بأسئلة تتجه إلى المبالغة، ولا يجوز لنا أن نفسر قصص الحب غير الشرعية والقصيرة والسهلة وغير العميقة التي أقرها الطلاق منذ زمن بعيد بأنها نوع من التمرد ضد قانون الزواج الذي يسود الشرق. فهذه القصص الغرامية ليس فيها ما يجعلنا نفترض أنها تترك في نفس النساء اللاتي يسرن في ركابها بعدم اكتراث ولا مبالاة أي ألم نفسي أو أي حاجة للاستقلال (...). ومن المستحيل لنا أن نصدر رأيًا حول مصير النساء في الشرق إلا اعتمادًا على تعاطفنا أو نفورنا الشخصي المتعلق بما يسمح لنا برؤيته."[١٥]

وبالفعل فإن تعليقه للحكم لا يرجع إلى غموض المرأة بقدر ما يرجع إلى إدراكه لمـدى الاختلافـات الثقافية وطابعها الذى يقتضي الاحترام. وعندما تناول أوربان الموضوع بطريقة أكثر عمقًا عام ١٨٥٤ بـدأ بذكر بداية العائق، واقترح التمييز – في نهاية المطاف – بين الدين والعادات:

"في كل مرة أردنا تقييم وضع المرأة المسلمة حكمنا عليها من وجهة نظر عاداتنا ومعتقداتنا دون أن نأخذ في الاعتبار اختلاف الحضارة وتأثير المناخ والعادات التقليدية. إن الإسلام هو الذي يحمـل بطريقـة طبيعيـة مسئولية الحالة الاجتماعية للشرق، ولم ننشغل في البحث عن وضع المرأة في الجزيرة العربية قبل محمد، ومـا قدمه القانون الجديد لها، وما يمكن أن نأمله، بالبقاء مخلصين للعبقرية الخاصة بالأمم الشرقية".

وأظهر أوربان عن طريق حياة محمد ولا سيما عن طريق تفضيله لعائشة حتى لحظة وفاتـه "الـدور المباشر والنشط الذي اضطلعت به النساء في تطور الديانة الإسلامية"(١٦).

بيد أن المنطق واللاهوت ليسا السبيلين الوحيدين اللذين يلجأ إليهما السان سيمونيون لإنجاز مهمة نقـل الشرق الإسلامي إلى فرنسا. فقد خصص مذهبهم مكانة أساسية "للعاطفة" ، وبعبارة أخرى للتمثـيلات غيـر العقلانية والأساطير والحساسية إذ كانوا يدركون أن قصيدة شعر أو قطعة موسيقية يمكـن أن تكـون أكثـر فاعلية من خطاب طويل.

وكان جرانال وهو محامٍ سابق وأستاذ اللغة الفرنسية بمدرسة الطب البيطري بحامون (بـأبي زعبـل) الذي أعلن– عندما قرر العودة إلى فرنسا – عزمه أن يكون "في الغرب علامة حية للقوة والخصوبة اللتـين يضعهما الشرق في قلوب محبيه". وبسبب فيض الحنان الذي يغمر روحه، كما اعترف في تعبيرات مصورة بأنه يملك " بلسمًا مصنوعًا من رحيق الصحراء وعطور الأراضي يمكن للنحل جمـع العـسل مـن فـوق شفتيه"(١٧). واستخدم أنفانتان ذات المحاكاة للغة الشعرية الشرقية لإعلان عودة الملحن فيليسيان دافيد بصحبة جرانال، حتى يتمكن هذا "الطفل الرقيق" من التعبير(...) عن الرحيق الذي نهله هنا، ويتعين – وفقًا لاستعارة جريئة للأب – وجود "يد فرنسية" قادرة على "اعتصاره" مثل إسفنجة؛ لأن دافيد حـاول "أن يعتـصر نفـسه ويلويها" في مصر ولكنه لم ينجح هناك في إخراج كل الشمس التي "غمرته داخليًا"(١٨)، وحدث كل شيء كما لو كان سان سيمونيو مصر لا يستطيعون إظهار استشراقهم إلا في عيون مواطنيهم، كما لو كان تحـولهم لا يمكن أن تدركه سوى حساسيات تعلمت في ذات الشفرة.

ويدخل نشر حكايات عربية في سلسلة في إطار هذا المشروع الخـاص بمواءمـة عناصـر شـرقية وتدوينها.

ويبدو أن إسماعيل أوربان هو الذي فكر في تدوين ونشر حكايات شعبية سمعها أثناء إقامته في مصر، ففي تاريخ ٢٢ يوليو ١٨٣٥ في كتابه "رحلة الشرق **Voyage d'Orient** " صرح: "للتعريف بالعادات الشرقية في الغرب سوف يكون من المستحب نشر بعض الحكايات من هذا النوع (علي المحرون) لا تنطوي على أية عناصر خارقة". ومع ذلك يرى ضرورة الإبقاء على أسماء عربية "لكل الأشياء التي لا يمكن أن نسميها إلا أسمائها العربية"، حتى وإن قمنا في المقابل بصياغة معجم خاص. ولما شعر بأن الصياغة التحريرية قد تغير الطبيعة الشفاهية لهذا الجنس الأدبي، فكر في تقديمه على المسرح للحصول على "تبشير أكثر حيوية". وسمحت له مشاركته في جريدة "**Le Temps**" الفرصة في تنفيذ هذه الفكرة، ففي ١٨ ديسمبر ١٨٣٦ – على سبيل المثال – وقع في باب "المتنوعات" تحت عنوان "حكاية عربية" قصة الحسابات السيئة للحاج رضوان، فهذا التاجر الشجاع القاهري الذي يعمل بسوق السكرية بعد أدائه للحج خرج بدرس يقول بأنه "يتعين دراسة تقاليد شعوب عدة مختلفة لمقارنتها مع تقاليد بلاده"؛ حتى يتمكن بعد ذلك من شكر الله "لتحرره من الهمجية". وبعد أن زادته هذه التجربة قوة تزوج من إحدى زبوناته، وكان لها صوت ساحر وتهوى شراء قمر الدين. وإذا كان في بداية الأمر يشعر بسعادة ورضا بالغين في تنفيذ وصية الرسول "فأتوا نساءكم أنى شئتم"(*)، فإنه سريعًا ما أدرك أن الشباب الجميل لزوجته عائشة يخفي غباء عظيمًا. ألم تتصور أن رمضان رجل ، حتى إنها أعطت لعابر سبيل تصورت أنه هذا الرمضان الشهير، كافة المؤن التي كرسها زوجها لهذا الشهر الكريم؟ وقرر الحاج رضوان مغادرة القاهرة مرة أخرى هروبًا من الخزي، ولكن بينما هو يسير في الطريق قابل بالقرب من مدينة دمياط موكبا لعروسين يشعر فيه الناس باليأس؛ لأن العروس كانت ضخمة الحجم حتى إنها لا تستطيع أن تخطو عتبة غرفة بوجهها، وأوصى التاجر الذكي الفتاة بالمرور بالجنب، وكسب من هذا العمل ومن أعمال أخرى من ذات الطراز جوائز عوضته عن المؤن المفقودة. واستخلص في نهاية المطاف أن الغباء ظاهرة عالمية، وعاد إلى زوجته.

وما يجذب أوربان في هذه الحكاية – فضلاً عن مضمونها وفكاهتها – هو طابعها البرجوازي بالنسبة للحكايات الشرقية التي يعرفها الجمهور الفرنسي، وهي بالطبع "ألف ليلة وليلة". ومن المرجح أنه يرى فيها تماثلاً مع التطور الذي قاد الأدب الفرنسي من روايات الفرسان إلى الرواية الواقعية. بيد أن هذا التوازي الضمني لا يمنعه من محاولة إعادة تحديد الموقف الخاص للراوي العربي وجمهوره بالنسبة لقارئ المسلسل، وذلك بالحديث في الديباجة عن حلقة المستمعين الذين يمسكون في يد الشيبوك وفي اليد الأخرى "فنجانًا من القهوة اليمنية"، وذلك كله في إطار ليلة تزين النجوم سماءها. وطلب قبول أن يتوجه لا إلى "السادة" بل إلى

(*) لعله يقصد الآية الكريمة "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم" سورة البقرة – الآية رقم ٢٢٣.

"إخوته" أو إلى "المؤمنين" ، وبدأ بذكر الله وفقًا للتقليد المتبع في هذه الأحوال[١٩]. وعندما خلف كولان أوربان في هذا الباب حرص قبل أن يروي حكاية "محرون" على الحديث عـن مـصاحبة الحكـي بآلـة موسـيقية والشخصية النمطية للحاكي وجو المقاهي أو القافلة الذى يمارس فيه والمبادلات – غير المعتادة في أوربـا – بين المستمعين والممثل الذي يُلقى الحكاية، ولحسم مسألة ناقشها بطريقة تقليدية مؤرخو الأدب، والتي تتمثـل في الغياب غير المفهوم للمسرح في الإسلام، قال كولان بصورة عامة إن الحكاية وهـي "مرويـة شـعرية وموسيقية" تضطلع بدور الدراما في الشرق[٢٠].

واسترشد بيرون في بعض أبحاثه في الأدب العربي بأذواق مختلفة وانشغالات متماثلة، وإن كـان قـد ترجم "سيف التيجان" بدافع أن الأمر يتعلق "بمقابل" غريب للحروب الصليبية و"برواية واقعية" و"فروسية" فى المقابل مع الروايات الخيالية ، وكان بيرون مفتونًا قبل كل شيء بما أطلق عليه "اللطف" العربي وذلـك فـي عصور الجاهلية. وكرس لها مدير مدرسة الطـب دراسـات تتعلـق بفقـه اللغـة ذات جهد بحثى كبير في "Le Journal Asiatique" وفي **la Revue de l'Orient**. وكانت دراسته حول "نساء العرب قبل ومنذ ظهور الإسلام"، وهي مجلد كبير يزيد على الستمائة صفحة والتي ظهرت عام ١٨٥٨، تهدف إلـى تقـديم "الحيـاة الفكرية" و"التأثير" و"القيمة والعمل الاجتماعيين لنساء القبائل العربية". ويسعى بيرون من خلال المقارنـة أن يبين أن المرأة العربية قد تدهورت بشكل كبير على الرغم من "تنظيم الإسلام لوضعها في العائلـة بطريقـة واضحة وجادة". فهو يقدم "السيدات المتعلمات في الخليج وكأنهن "مدام دو ديفان **Du Deffant** ومـدام ديـه جيوفران **des Géoffrin** ومدام دوشاتيليه **"Du Chatelet"** يقمن بتنظيم صالونات أدبية تحـت الخيـام. وفـي الوقت نفسه كان ذكره لملكة سبأ الأسطورية أو الحكماء الأربعة أو الأمهات الثلاثة الـسعيدات أو للـشاعرة أميمة ذريعة لذكر المرويات الخارقة أو قصائد مصورة. وكانت الأطروحة المركزية – ذات الطابع الـسان سيموني الخالص – لهذا العرض الكبير من الشخصيات على طريقة سانت بوف **Sainte-Beuve** تتمثل فـي التنديد بالاتجاه السائد للرجال – في الجزيرة العربية وكذلك في فرنسا – لاستبعاد المرأة من الوظائف الدينية والسياسية[٢١].

والحق أنه ليس أكيدًا أن هذا الأسلوب لتفسير التاريخ الأدبي العربي يمكن أن يوافق أذواق القارئ الشرقى وممارساته، وكذلك هناك شك في أصالة اللون الشرقي للموسيقى التي نقلها فيلسيان دافيد من الشرق. ويبدو أن الرجل الذي تطلق عليه سوزان فوالكان عندليب منلمونتان العذب " كاد يخزق عيني أوليفييه **Ollivier** في اليوم الذي أوصاه فيه هذا الأخير بأن "يجعل من أذنه أذنًا عربية"؛ ليقدر الفواصل العربية، وليتعلم مواءمتها مع الفواصل الأوروبية" ، بصورة تسمح له "بأن يكون (..) مهيئًا للتأليف للزيجات الجديدة،

أي الاتحاد بين الشرق والغرب"(٢٢). وفي هذا الصدد نرتكز على التحليلات الأخيرة لمتخصص علم الموسيقى الأمريكي رالف لوك Ralph Locke الذي أثبت أن دافيد عندما أثار انطباعًا سطحيًا بالغرابة لم يقدم ولم يسع إلى تقديم النغمات العربية بما لها من خصوصية(٢٣). ولكن يمكننا أن نتساءل إذا ما كان ينبغي مواءمة الموسيقى التي استوردها من مصر لعادات الغربيين حتى يتسنى لهم سماعها وتقديرها أكثر مما يقدر الفلاحون المجندون في النظام الجديد نشيد فرنسا الوطني (المارسلييز Marseillaise). إن مجرد تعديد عناوين حركات مقطوعة "الصحراء Le Désert" القصيد السيمفونى الذى يعد الانتصار الأول للملحن السان سيموني يجعلنا نتخيل الغرابة التي شعر بها الجمهور الفرنسي لعام ١٨٤٤: ١- الدخول في الصحراء وأغنية الصحراء (تسبيح الله)، وظهور القافلة وسير القافلة وعاصفة الصحراء. ٢- نجمة فينوس ونشيد الليل والفانتازيا العربية (لحن سوري)، ورقصة العوالم (لحن مـــصري)، والحرية في الصـــحراء، وحلم الليل (لحن وكلمات أغـــنـــية مصرية) . ٣- شروق الشمس، وأذان المؤذن، واستئناف القافلة لمسيرتها، وغياب القافلة بعيدًا، واغنية الصحراء (تسبيح الله). وكان أوجست كولان Auguste Colin هو مؤلف كلمات هذا التصوير الموسيقي المسيرة الإنسانية نحو اللانهائي وسط اللانهائي.

بقدر ما يعطى فحص علاقات تعاون السان سيمونيين انطباعًا بأنهم – مع بعض الاستثناءات وإذا مـــا استبعدنا تلاميذهم العرب – لم يتعاملوا مباشرة إلا مع مصريين من أصل تركي بقدر ما يبدو بالنسبة للمجال الثقافي أن الحوار يدور مع مصر العربية ليتناول من الشريعة وحتى النغمات الموسيقية مـــرورًا بالمـــسائل الشائكة الخاصة بالعبودية ووضع المرأة، مما يوضح قوة الحركة التي فجرت الإطار العثماني وحملت سياسة محمد علي الاستقلالية نحو تكوين هوية مصرية. وحول إعادة تنظيم الرتب عام ١٨٤٧ لخص شارل لامبير شبه الثورة تلك في جملة واحدة تؤيد ملاحظات إسماعيل أوربان حول الحكاية العربية والتي تبـــدو وكأنهـــا مكتوبة في مروية شعرية:

"وصل العربي ممثلاً في الطبقة الوسطى، فغادر الأمراء الأتراك الذين كانوا نصف آلهة تدريجيًا"(٢٤).

ولكن يبدو واضحًا أيضًا – إلا إذا ما تركنا أنفسنا لخداع البصر فيما يتعلق بالعلاقـــات الثقافيـــة – أن الأسئلة التي أثارها السان سيمونيون عن الإسلام تعكس قلقهم واختيارهم النسبي للمجتمع الفرنسي كما يرونه وهو يتحول. وليس من قبيل الصدفة أن تكون النقطتان الحساستان في الحوار وهما العبودية ووضع المـــرأة هما ذاتهما الموضوعان اللذان يشكلان محور المذهب السان سيموني: "استغلال" (وهى الكلمـــة التـــى كـــان يستخدمها بازار) الخدم و"الطبقات الكادحة الحديثة" (عمال الصناعة) وإقصاء المرأة مـــن الحيـــاة الـــسياسية والاجتماعية. والسؤال الذي يدعونا إلى التفكير اليوم هو إذا ما كانوا قد وجدوا جزئيًا إجابة لهذه المسائل من خلال تواصلهم مع مصر.

الهوامش

(1)Voir "commerce des liquides en Orient", *Le Temps*, 7 novembre 1837.

(2)"Des paquebots postes de la Méditerranée", *Le Temps*, 7 décembre 1837.

(٣) المقال مقدم على شكل رسالة ل"م ***" وتحمل تاريخ فبراير ١٨٣٧ – الإسكندريـــة "L'Egypte moderne", *Le Temps*, IS décembre 1837.

(4)"Lettres sur l'Egypte - Commerce", loc.cit., t. XVII, pp. 63-81.

تتبع فكرة إلغاء الوسطاء المتطفلين من مذهب فورييه. كما أن الموافقة– التى نجدها فى المقال نفسه– على العرض الذى قدمه محمد علي لبعض الأوروبيين لإشراكهم فى أرباح مصانعه تعد بالنسبة لكولان تحالفا بين رأس المال وبين العمل والموهبة وفقًا للصيغة التقليدية لفورييه.

(5)"Du tarif de douane avec la Porte", *Le Temps*, 19 janvier 1838.

كان كولان فضلا عن ذلك مراسل الجريدة لابورص المالية "La Bourse" ومؤلف "رسائل عن مصر" فى مجلة "روڤو دى دوموند"، وحاول فى هذه المجلة تقديم ميزانية الدولة المصرية لعام ١٢٥٠هـ. كما كتب لوسيان دافيزار فى هذه المجلة المرموقة مقالات عن محمد على.

(6)"Souvenirs des Français en Egypte", *Le Temps*, 19 octobre 1836.

(7)"Des femmes juives d'Egypte", *Le Temps*, 28 avril 1836.

(٨) خليل بن إسحق، رغم أنه لقب الأندلسى، فإنه قاضٍ مصرى عاش فى أوائل القرن الخامس عشر (القرن الهجرى السابع) Op.cit., t. I. "Aperçu préliminaire", p. VII

(٩) العنوان العربى : ميزان الشريعة، وقد ترجمه بيرون من الطبعة المصرية عام ١٨٦٢ ونشرت الترجمة فـــى الجزائـــر العاصمة عام ١٨٩٨ بعد موت المترجم.

(10) Loc.cit., rubrique de "critique littéraire", pp. 208-220.

(11) "Les esclaves noires d'Egypte", *Le Temps*, 26 septembre 1836.

فى نهاية فترة حكم محمد على أظهر نوايا "إنسانية"، ولم يعطِ المثال على ذلك بنفسه بالتخلى عن حريمه والزواج من جواريه فحسب، بل قرر فى ٤ ديسمبر ١٨٣٨ الإعلان رسميًا عن عزمه "إلغاء عبودية السود"، وكلف لامبير بكتابة رسالة تعليمات بهذا المعنى لغيطانى بك؛ "هى رسالة موجهة لكلوت بك ويجوز له استخدامها وفقًا لإدارته".

(12) Circoncision, F.E., Ms. 7773/90, ff. 4 r° et 5 yo.

(13) Ibid.

(14) "Le harem", *Le Temps*, 12 septembre 1837.

(15) "Les harems d'Egypte", *Le Temps*, 5 juillet 1836.

(16) "Le Koran et les femmes arabes", *Revue de Paris*, IS mars 1854, pp. 885-900.

(17) Lettre à Lambert du 25 juin 1836, F.E., Ms. 7.730/48.

(18) Lettre à A. Saint-Hilaire du 22 février 1835, F.E., Ms. 7.676/138.

(19) "Une femme du Caire", *Le Temps*, 12 février 1837.

(20) "Ali L'otage, conte arabe", *Le Temps*, IS juillet 1838

ويذكر أوربان أيضا هذه الحكاية فى كتابه رحلة الشرق . وبعد رحيل أوروبا للجزائر كولان ولا سيما جرانـال تـابعوا مهمة الحاكى والمحلل فى باب مسلسلات ومنوعات بالصحيفة.

(21) Op.cit., passim, en particulier pp. I, 8, 246-247.

ينبغى الإشارة، على الأقل للقيمة الرمزية، لطلب سعيد باشا الذى كان يخضع للعلاج من بيرون أن يترجم نـص النـشيد الوطنى المصرى الذى كتبه رفاعة الطهطاوى

(Revue de Paris, n° du 15 avril 1856, pp. 281-85 - voir F.E., Ms. 7.770/52).

والأغنية المصرية عن حفر قناة السويس لنفس المؤلـف (L'Isthme de Suez, Journal de l'Union de Deux Mers, n° 125 juin 1856, pp. 15-16).

(22) S. Voilquin, *Souvenirs d'une fille du peuple*, p. 268; lettre d'Ollivier à Lambert du 7 décembre 1834, F.E., Ms. 7768/29.

(23) Voir l'ouvrage cité en Bibliographie et la communication de R. Locke au colloque de Sénanque, "Félicien David, compositeur saint-simonien et orientalisant".

(24) Lettre à Enfantin du 7 mars 1847, F .E., Ms. 7.740/94.



(توماس إسماعيل أوربان) رسم بالقلم الرصاص

0, 16×0, 24 Fonds Enfantin Bibliothèque de l Ársenal

(توماس إسماعيل أوربان):

نتعرف على الشخص من خلال اسمه المذكور بالقلم الرصاص. وينسب دالمان هذا الرسم لماشـرو. وهو يرتدى زى منيل سونتان والجاكت مزرر على الصدار المشهور (ونلمح ياقته المطرزة بالأحمر)، والعقد يبين أن هذا الرسم تم بعد منتصف فبراير ١٨٣٤.

ولد في كايان **Cayeinne** (جويانا) في ٣١ ديسمبر ١٨١٢، وهو ابن مخلطة حرة كـان جـدها عبـدًا أسود، وسجل إسماعيل أفندي في السجل المدني باسم والدته أبولين **Appoline** وكان اسـمه الأول تومـاس وأوربان. وكان والده الطبيعي أوربان برو **Urbain Brue** يعمل قبطانًا تجاريًا وينتمـي لعائلـة ثريـة مـن أصحاب السفن من فابر، وكان أبوه لا يستطيع ولا يريد الاعتراف ببنوته. ولم يعطِـه سـوى اسـمه الأول، وأوصاه بأن يجعل لنفسه اسم أسرة مزيفًا؛ لإخفاء كونه ابنًا غير شرعي ولإخفاء أصـوله العبوديـة. وبعـد انتهائه من الدراسة الثانوية في مارسيليا اضطر "توماس أوربان" إلى الاستقلال والاعتماد على نفسه. وكـان متمردًا، واتجه نحو الأفكار الجمهورية ثم نحو السان سيمونية التي تقدم فـي نظـره مزيجًـا مـن الوثنيـة والمسيحية على نسق أصله المزدوج من سكان الجزر.

واستقبل في منلمونتان بوصفه "شابًا واعدًا" وتميز أوربان هناك بتأليفه وإلقائه للـشعر النثـري الـذي امتدح فيه جمال المرأة السوداء. وأثناء سجن الأب قام ببعثة في الجنوب وفي كورسيكا بصحبة كـايول ثـم انضم إلى مجموعة بارو التي سافرت في مارس ١٨٣٣ لاستدعاء الأم في القسطنطينية. وبعد طـرده مـن تركيا مع باقي رفاق المرأة عاد إلى الإسكندرية ثم توجه إلى لبنان حيث التقى بالسيدة سـتانهوب **Stanhope** وبصفة خاصة بسليمان بك ("الكولونيل" سيف).

وبعد مشاركته في رحلتين استكشافيتين لمنطقة السويس عاد إلى القاهرة، حيث عمـل معلمـا لأبنـاء الدكتور دوساب وهو عجوز قريب لأفكار السان سيمونية، وزوجته حليمة وهي جارية سوداء، كانت تـذكره بصورة أمه، بيد أن اوربان أضطر لمغادرتها؛ ليلحق بوظيفة مدرس للغة الفرنسية بالمدرسة الحربية بدمياط. وأدت وفاتها المفاجئة إلى دخوله في أزمة نفسية لم يخرج منها إلا بعد قراره الزواج من هانم ابنـة حليمـة وهي مخلطة مثله، ثمرة ثقافتين مثله أيضًا. وكان يأمل في أن يجد في شبه الأخت هذه وسيطة تنـضم إلـى رسالته، ولكن أخاها عارف هدد بالوشاية بها لأبيهما بسبب هذه العلاقة البريئة، لكنها حـرة مـع أوربـان. وشعرت هانم بحنق شديد وانتهت إلى فكرة غير سديدة بالقضاء على هذه الشكوك بـاقتراح قـسمة العـيش والملح مع الشاب السان سيموني. وقبل أوربان دون أن يفهم المعنى السليم لهذا العمل؛ لأن هـذا التقليـد لا يحولهما إلى خطيبين بل إلى أخ وأخت بالتبني، وقد سهلت مبادرة هانم في البداية لقاءاتهما، ولكنها حرمـت

زواجهما للأبد. وشعرت هانم بالتمزق بين احترامها للتقاليد وحبها لأوربان، وتعرضت لمرض الطاعون وماتت بدورها. وأدى هذا الحادث إلى اعتناق أوربان للإسلام يوم ٨ مايو ١٨٣٥، ليسمي نفسه إسماعيل كذكرى لأصله غير الشرعي والعبودي.



إسماعيل أوربان – رسم منقول عن صورة بريشة السيدة سي. هانوتو – الجزائر – الجزء ٢ من تاريخ المستعمرات الفرنسية – المدير – جيه – هانوتو و أ. مارتينو – باريس ١٩٣٠ – ص ٣٤٣

وبهذه الطريقة وجد "إسماعيل أوربان" لنفسه هوية مزدوجة، ووظيفة، هى الدفاع في الغرب عن الإسلام والعرب، وسافر إلى فرنسا، وكافح في هذا الاتجاه عن طريق مقالات عديدة نشرها بصفة خاصة في الجريدة اليومية "لوتون "، وفي مجلة تعليمية شعبية " **Le Magasin Pittoresque**" (التي أسسها وأدارها السان سيموني إدوارد شارتون Edward Charton)، وأوصى به ميشيل شوفاليه Michel Chevalier لبوجو Bugeaud فاغتنم فرصة استئناف مهمته في عمل على أرض الواقع في وظيفة مترجم عسكري في الجزائر.

وكان هذا بداية طريق قاده لأن يكون مستشارًا يقدره الدوق دومال D'Aumale، ثم نابليون الثالث الذي استلهم منه السياسة التي يطلق عليها "المملكة العربية". ولما كان المستعمرون يكرهون أوربان لولعه بكل ما هو عربي، فقد كان يوقع المراسلات الجزائرية لجريدة "ديبا **Debats**" لمدة سنوات طويلة، كما نشر كتيبات لقيت صدى كبيرًا مثل "الجزائر للجزائريين" (١٨٦١)، وشارك مع بيرون فى الباب الشرقي في المجلة الأدبية المهمة لماكسيم دي كان **Maxime du camp**: "La Revue de Paris".

وفي ١٨٤٠ تزوج أمام القاضي في قسطنطينة جهمونة بنت مصرون اللبايتي، ورزق منها بابنة أسماها بهية، وتوفيت زوجته عام ١٨٦٤، وتزوج مرة ثانية من لويز لورا عام ١٨٦٧.

وتوفي أوربان عام ١٨٨٤، ودفن بالمقبرة المسيحية بالجزائر العاصمة(١).

القاهرة . ألكسيس بوتي :

لا يمكن للتوقيع أ. ب أن يدل سوى على ألكسيس بوتي.. وهو زوج أخت كاتب العدل روبينيه **Robinet** والذي أدت وصيته لصالح أنفانتان إلى اتهامات بالاستيلاء على إرث وجهتها المحكمة العامة ضد السان سيمونيين . ولد أمبرواز، ألكسيس بوتي في مو **Meaux** في ٢٥ إبريل ١٨٠٥، وينتمي إلى طبقة برجوازية قديمة وحصل على نمطين من الدراسة غير تقليدين فكان محاميًا وخريجًا من مدرسة روفيل **Roville** الزراعية، ولكنه وقبل كل شيء كان يقدم نفسه بوصفه "ابنًا وحيدًا لأم تمتلك ٤٠,٠٠٠ فرنك من الريع"، ولما شعر بالضيق المرتبط بالترف حاول في كافة المجالات بما في ذلك الرسم والتصوير قبل أن يجد في السان سيمونية مخرجًا من ضيقه من الحياة.

وفي مصر صاحب فى البداية أنفانتان في رحلته لاستكشاف منطقة السويس في يناير ١٨٣٤، وكلف هو ودوجيه بتعيين مهندسين وفنيين من فرنسا لبناء سد النيل. والتقى من بين شباب الفنانين "بخميرة شرقية حقيقية" وحاول إرسال بعضهم إلى الأب باستمالتهم" بنمط وطابع مصريين". ويشهد على جهوده هذه المطبوعة الحجرية ونشر خطاب نداء عام ١٨٣٤ في مجلة "لارتيست **L'artiste**". وحقق نجاحًا أكبر مع بوسكو زوج ابنة دي لومبال الذي قاده معه إلى الإسكندرية لتأسيس مزرعة نموذجية (انظر الفصل الخامس).

وعند عودة بوتي من مصر اهتم مع والدته بتجربة زراعية اشتراكية في فوزيل **Vauzelles** (بالقرب من شاتورو **châteaurox**). وتوفي في ١٨٧١ تاركًا أرشيفات أعطى أبناؤه منها جزءًا لمكتبة الأرسنال(٢).

فيليسيان دافيد:

يُنسب رسم صورة دافيد – وهو مُرتدٍ بدلة منلمونتان والحرف الأول من اسمه مطرز على الصدر في شكل قيثارة أحيانًا لليون كونييه **Léon Cogniet** شأنها شأن سلسلة من صور أخرى للسان سيمونيين كانت تملكها الآنسة دونيان **Donien**، وأحيانًا أخرى للرسام السان سيموني ريمون بونور **Raymond Bonheur** (والد رزوا بونور)(٣).

ولد فيلسيان دافيد (١٨١٠– ١٨٧٦) في بروفنس، وعرف اليتم وهو في الثامنة من عمره، ودخل في الموسيقى بوصفه طفلاً في جوقة كنيسة السان سوفير **Saint-Sauveur** بمدينة أكس Aix. وكان تلميذًا في

الكونسرفاتوار بباريس ووجد في السان سيمونية وسطًا اجتماعيًا وفكريا ملائمًا لتنمية مواهبه. واستقبل في منلمونتان، وألف فيها لأغاني الكورال الخاصة بشعائر أنفانتان ألحانا شكل نجاحها نقطة انطلاقه المهنية. وأدخل بعض هذه الألحان مع كلمات أخرى في مؤلفاته الموجهة للجمهور العريض.

وفي مارس ١٨٣٣ غادر دافيد فرنسا بحرًا نحو الشرق ومعه بيانو معدني للرحلات خصيصًا أهداه له مصنع شافان **Chavan** لبعثة جماعة رفاق المرأة. واستخدمه اعتبارًا من مرحلة أزمير لتأليف مسرحيات شرقية مثل (الحريم أو العالمة) ولتقديم حفلات موسيقية لسكان أزمير ساهمت بصورة كبيرة في التعاطف مع السان سيمونية. وتأكد النجاح لدى الجمهور وتزايد في الإسكندرية – حتى وإن لم يحقق ظهور الألحان الشرقية عام ١٨٣٦ في فرنسا أي نجاح. وفي القاهرة لم يمارس دافيد موهبته إلا في حفلات خاصة وفي بعض الدروس الخصوصية، ومع ذلك فكر فيه لينان دي بيلفون ليقدم الموسيقى لعمال موقعه على النيل: "وقد صدرت بالفعل الأوامر لحفلات بموسيقى عربية، وانتظارًا لما هو أفضل (هكذا)، تحدثت عن دافيد ليأتي لتنظيم حفل جيد"(٤)، ولكن لرغبته في نقل اكتشافاته الشرقية إلى فرنسا ليشتهر فيها غادر مصر في ربيع عام ١٨٣٥.

واستضافه فيليكس تورنو في إيني **Igny** (بالقرب من فرساي) وارتبط كما تفرض عليه تقاليد الوسط السان سيموني برفيقته إيما **Emma**(٥)، ومر بفترة صعبة لمدة سنوات عدة قضاها في سد ثغرات تكوينه كملحن. وساعده أوجست كولان في الخروج من العزلة بدفعه – على ما يبدو – لكتابة سيمفونية الصحراء (١٨٤٤). وليلة تقديم العرض الأول دعا أنفانتان القدامى للاستماع إلى أغنيات منلمونتان المقترنة بذكريات مصر. وبطبيعة الحال كان الجمهور أكثر حساسية نحو العناصر الغربية والجديدة في الموسيقى عليه للاستلهام الاجتماعي للنص والرمزية السان سيمونية للموضوع. وأعجب الجمهور إعجابًا كبيرًا بدافيد. وحمله برليوز نفسه إلى السحاب، ورأى أنفانتان في ذلك دعمًا عظيمًا للدعاية، فنظم جولة لعزف العمل في ألمانيا والنمسا لترويج مشروعة الخاص بقناة السويس.





القاهرة – مطبوعة حجرية لرسم لألكسيس بتى.

0, 32×0, 42 Fonds Enfantin Bibliothèque de lÁrsenal



فيليسيان دافيد – لوحة زيتية محفوظة بمتحف محليات سان جيرمان إن لاي

Saint-Germain-en-laye

وحافظ دافيد حتى النهاية على إيمانه السان سيموني رغم الفتور السابق لعلاقاته الشخصية مع أنفانتان وآرليس دوفور وتقاربه مع عائلة بيرير الذين رغم كونهم سان سيمونيين فقد كانوا في مجال الأعمال منافسين لآرليس والأب.

ومُحيت اليوم من الذاكرة تقريبًا موسيقى فيلسيان دافيد التي عرفت مجدًا مؤكدًا أثناء الإمبراطورية الثانية، ونذكر منها بصفة خاصة[٦]: موسى في سيناء (١٨٤٦)، وكريستوفر كولومبس (١٨٤٧)، ولؤلؤة البرازيل (١٨٥١)، وهرقل (١٨٥٩)، ولا لا روخ (١٨٦٢).

السلطان أبو مدين: رسم صورته ماشرو

جوزيف ماشرو هو ابن بواب ولد في ٩ إبريل ١٨٠٢، ويعد شخصية شبه أسطورية للسان سيمونية المصرية. تتلمذ على يد الرسام دافيد وتعلم أيضًا الموسيقى في الكونسرفتوار بباريس .

وكان هذا الفنان الذي ينتمي إلى الطبقة الكادحة "يرسم الكاريكاتير المناهض للبرجوازية ولرجال الدين وشارك في بعثة بلجيكا وكتب في مجلة "L'organisateur belge" وصاغ منشورات سان سيمونية. وفي منلمونتان رسم بطاقة الإيضاح لتوليفات أغاني الشعائر، وبالرغم من الميل إلى اعتباره رسام كل الصور التي لم يتم التوقيع عليها في هذه الحقبة، فمن المحتمل – بالنظر إلى ألبوماته – أن يكون هو صاحب رسومات عدة مجهولة الصاحب .

وفي مصر لم يجد ماشرو أية صعوبة ليعين مدرسًا للرسم في مدرسة الفروسية بالجيزة. واعتنق الإسلام وأطلق على نفسه اسم محمد المهدي وتزوج بسيدة اسمها عائشة وأنجب منها ابنًا أسماه محمد عيسى توفي في سن صغيرة وأربع بنات أسماهن هانم وزهرة وحميدة وأسماء. وأكسبه مظهره الخارجي البوهيمي ومزاجه الكوميدي الذي يظهر في لوحاته وموهبته في الرسم العادي والزيتي حماية سليمان باشا الدائمة والذي صمم له قصره كما قربه سعيد باشا منه وعينه مديرًا لمسرحه الخاص عام ١٨٦٠. ونشرت الكتب الكلاسيكية لجي . إم . كاريه وأف شارل رو تصميمات ماشرو "لصالة البلياردو" الخاصة بسليمان باشا وذلك نقلاً لزخارف مأخوذة من "وصف مصر"[٧] وكذلك تصميم "فندق الشرق" في القاهرة وذلك في نهاية عهد محمد علي نقلاً عن رسم لماشرو[٨].

محمد أبو مدين ابن السلطان عبد الرحمن اليتيم هو أخو السلطان الحاكم في دارفور محمد فتحي، وعندما اضطهده هذا السلطان – لرغبته نقل الولاية لأبنائه – هرب إلى مصر عام ١٨٣٣. ومنحه محمد علي الحماية وجعله يستقر في كردفان. وفي عام ١٨٣٨ دعاه الباشا للقاهرة والإسكندرية لزيارة إنجازاته الصناعية والعسكرية ودعاه لمحاكاته عند وصوله إلى الحكم. ووفقًا لشهادة بيرون كان أبو مدين "معجبًا مولعًا" بمحمد علي وكانت روحه تصبو إلى معرفة أوروبا إلى الحد الذي كان يأمل فيه في السفر للدراسة في فرنسا، وأخذ دروسًا في اللغة الفرنسية من الطبيب السان سيموني. وكان وصوله إلى السلطنة وشيكًا عام ١٨٤٣، وأثناء ترجمة بيرون لمروية الشيخ كانت الجيوش المصرية تنتظر فصل الأمطار للانتهاء من غزو السودان[٩].

ومن جانبهم بدأ السان سيمونيون كومب Combes وتاميزيه Tamisier ولوفافر Lefévre وبـــراكس رحلاتهم الاستكشافية لإفريقيا اعتبارًا من مصر، وكتبوا جميعا عنها.

الشيخ محمد بن عمر التونسي:

هو "كبير مراجعي مدرسة الطب بالقاهرة"، وكان الشيخ مدرس اللغة العربية لبيرون في أبـــي زعبـــل عندما حدثه عن رحلاته في السودان، ووافق على "استخراج هذا اللؤلؤ من قوقعة روحه" وهو ما يعنى فـــي النثر الغربى الباهت، أن يكتب مذكراته.

وكان جد الشيخ وهو المشرف على أموال السلطان في تونس قد استقر في سنار لإعادة جمع ثروتـــه بعد غرق السفينة التي استأجرها للسفر إلى مكة تاركًا خلفه ثلاثة أطفال عهد بهم لولاية عمهم الـــسيد أحمـــد وهو عالم فقيه. ووجد عمر أبو الشيخ ابنه المفقود صدفة في قافلة وأعاد العلاقات الأسرية وبدأ عمر دراسات في القاهرة بالأزهر حيث كان رئيسًا لقسم الدارسين المغاربة. وعلى الرغم من أن الشيخ محمد ولد في تونس عام ١٧٩٠ – من هنا جاء لقبه "التونسي" – فإنه تربى في مصر ودرس أيضًا بالأزهر. وتتكرر قصة العائلة ويتركه والده ليسافر بدوره إلى سنار ثم إلى دارفور وأخيرًا إلى عوادي (شرق الـــسودان). وعنـــدما أراد أن يلحق به الشيخ محمد قام بالرحلات موضوع كتابيه اللذين ترجمهما بيرون وقدم لهما جومار وهما "الرحلـــة إلى دارفور" و"الرحلة إلى عوادي".

وعند نشر هاتين المرويتين اكتسبتا أهميتهما من عدم دخول أي أوروبي أو وصفه لهذه البلدان. بيد أنه في يومنا هذا فإن شخصية الشيخ محمد والشكل العربي لسرده الذي احترمته الترجمة تضفيان عليهما قيمة جديدة.

وإدراكًا لهذا المصدر الثاني للاهتمام حرص مع ذلك بيرون في مقدمته على الإدانة الصريحة والقويـــة للعبودية التي يبررها الشيخ ويمارسها بحجة وثنية السود، وبوصفه سان سيمونيًا صالحًا يـــشرح "أن نظـــام القمع المطلق للعواطف والأمر بالامتناع عن الشهوات وكبتها" التي سادت الإرساليات المسيحية قد "أخـــرت بالفعل التقدم الفكري والصناعي لسكان هذه البلاد"، وأكد على العكس "أن القوى الصناعية والتجارية هي التي يتعين أن تبدأ غزوها السلمي" و"فتح الطريق للثقافة الأخلاقية والعلمية".



السلطان أبو مدين – رسم م. ماشرو – رسام فرنسي أستاذ رسم بالمدرسة الحربية بالجيزة – رسم حجري ش. رازان – رسم الغلاف لكتاب "رحلة دارفور" للشيخ محمد بن عمر التونسي – ترجمه إلى الفرنسية د. بيرون – باريس – ١٨٤٥ – ٤٩١٠ ص. في ٨٥.



الشيخ محمد بن عمر التونسي – رسمه في القاهرة السيد ماشرو صورة غلاف كتاب "رحلة عوادي" للشيخ محمد بن عمر التونسي – ترجمه د. بيرون إلى الفرنسية – صورة الغلاف بريشة لبينته فرونتيسبيس – باريس ١٨٥١ – ٧٥٦ ص – في ٨٥.

وما يصفه بيرون بأنه "سذاجة الشيخ والذي يطلق عليه جومار" براءة اللغة وسذاجة الـــراوي" يظهـــر بوضوح اختلاف العقليات القائم بين السان سيمونيين المُستخدمين في مدارس الباشا ذات الطراز الأوروبـــي من جانب ومن عمل معهم من المعيدين والمترجمين والتلاميذ الذين تعلموا فى المدارس الإسلامية من جانب آخر، ومع ذلك اتفق الجانبان على الاحتفاء بروح الملاحظة والذاكرة غير العاديتين للتونسي الأزهري (١٠).



اللوحة السابعة لرحلة عوادي – رسومات ماشرو

اللوحة رقم ٧ لرحلة عوادي: شكل ٣٢ سيدة من عوادي تضع على رأسها الأبشنجة شكل ٣٢. والأبشنجة شكل ٣٤ فاجب دليل هو كبير قضاة عوادي شكل ٣٥. فاجب لالى من عوارب. عويدان من مقاطعة بتباب.

"إن الصور المقدمة هنا لشخصيات عدة من وسط إفريقيا رسمها من الواقع الفنان الفرنسي البارع ماشرو. وحتى يتسنى إقناع هذه الشخصيات من عوادى وبارنو والمندرة والموجودين آنذاك فى القاهرة بالوقوف أمامه (ولم يكن هذا الأمر يسيرًا) لجأ إلى الحيلة وكذلك إلى تدخل سلطان دارفور أبو مدين، والحق أن هؤلاء الرجال كانوا يجهلون ما يقوم به الفنان. (...) وعادة ما كان يأتي إلى القاهرة رجال من عوادي ودارفور وبجيرمة والمندرة.... إلخ. البعض يأتي للدراسة بالجامع الأزهر والبعض الآخر للسفر من مصر للحج والعمرة" (مقدمة جومار).

أنفانتان مدير خط سكة حديد باريس - ليون - مارسيليا (P.L.M)

أحد التحولات الأخيرة للأب هو ذلك البرجوازي الكبير الذي يقف لتبقى صورته خالدة بأسلوب بيرتان إينيه Bertin Ainé، ولكن إذا ما نظرنا عن قرب فإن الكتب الثلاث التي يتكئ بجانبها مصفوفة تباعًا في نظام محسوب: التوراة (المجلد الأغمق لونًا) ثم القرآن (مجلد موضوع فوق التوراة) وبعد ذلك "سان سيمون" واقفًا. وتبقى معرفة من سيملأ الصفحة البيضاء التي يخرج طرفها عن الطاولة.

وعلى الرغم من تحول أنفانتان إلى رجل صناعة في نهاية عهد ملكية يوليو وفي ظل الإمبراطورية الثانية فإنه لم يترك البتة المجال الأيديولوجي. ولذا نشر في عام ١٨٧٤ تحت عنوان "مراسلات فلسفية ودينية" سلسلة من الرسائل الموجهة إلى شخصيات متنوعة مثل جيزو وإدجار كينيه والكونت آلبير دي بويز (الذي يطلق عليه ببساطة "كاثوليكى") وميشيليه. ودافع أنفانتان في هذه الرسائل عن الإسلام ضد الأحكام الاختزالية السائدة في ذلك الحين.

"إنكم على حق عندما تقولون إنني متحيز لضم محمد إلى الرجال الذين ساعدوا بصورة كبيرة في تقدم الجنس البشري في طريق مصيره الديني: وأطالب الآن العالم المسيحي إلى أخذ هذا الموقف في الوقت الذي يريد فيه تناول العالم الإسلامي بوصفه صديقًا (...) ولا يمكن أن أتصور أن أكون من الذين يرون محمدًا دجالاً ساعد في تأخر الشعوب الشرقية (...). إنني مقتنع مثلكم أن هناك الكثير الذي يتعين مراجعته في الإسلام وكذلك في حياة النبي محمد والإمام علي أو حتى في حياة محمد علي باشا مصر أو في حياة السلطان عبد المجيد أو أخيرًا في حياة الأمير عبد القادر. (...)، ولكن من أي نقطة ومن أي جانب يمكننا تناول هؤلاء الرجال وما هم سوى بشر! أيتعين علينا فقط أن نبتر ونشذب بالسيف؟ هل يتعين علينا فقط أن نقلم ونقضب؟ بالتأكيد لا، يتعين علينا أن نزرع ونطعم وأن نتواصل عن قرب"(١١).



أنفانتان – مدير P.L.M - رسم زيتي على القماش - بتاريخ ١٨٥٧ بريشة بيرينيون 0, 97×0, 80 Fonds Enfantin Bibliothèque de lArsenal - نسخ من صورة غلاف كتاب اش – آر – دالماني - بروسبار أنفانتان وكبرى مشروعات القرن التاسع عشر.

الهوامش

(1) Sources : autobiographies inédites, Fonds Eichthal (de l'Arsenal), Mss. 13.737 et 13. 744; "Ismayl Urbain, éléments pour une biographie", communication de Michel Levallois au colloque de Sénanque (à paraître). المـــأساة المعيشـــة فـــى مصر مذكورة فى كتاب رحلة الشرق ولكن سوزان فوالكان هى التي تعطي المفتاح الثقافى لها عندما أشارت إلى ما باحت به هانم من أسرار.

("Lettres sur l'Egypte, suite et fin de la XI lettre", feuilleton du Siècle du 30 août 1837).

(2) Sources : *Procès*; F.E., Ms. 7.614, if. 97-99, et Fonds Petit (de l'Arsenal), Ms. 15031; L'Artiste, t. VII, 18° livr., pp. 201-202.

(3) Voir sa reproduction dans Charléty, *Histoire du saint-simonisme*, éd. de 1931, et dans R.P. Locke, *Music, musicians and the saint- simonians.*

(4) Lettre à Lambert du 15 juin 1834, F.E., Ms. 7.671/184.

(5) Voir F.E., Mss. 7.671/135 et 7.789/20.

(6) Source : R.P. Locke, ouvrage cité en Bibliographie.

(7) *Voyageurs et écrivains français en Egypte*, t. 2, p. 95.

(8) "L'Egypte de 1801 à 1802", in *Histoire de la nation égyptienne*, dir. G. Hanotaux, p. 71. ولـــم نستطع تحديد موقع النسخة الأصلية

Sources sur Machereau : *Procès* ; note de Perron dans le *Voyage au Ouâday*, p. 739 ; F .E. Ms.7.768/15 ; Auriant, notice sur "Mohammed ef- fendi" in Le manuscrit autographe, janv. - fév. 1930, pp. 67-71.

(٩) توجد نسخة من كتاب Voyage au Dârfour فى أرشيف أنفانتان برقم F.E. 518.، والعنوان الأصلى فـــى العربيـــة يحمل معنى: شحذ العقل أو رحلة إلى السودان وبين العرب وفى وسط إفريقيا.

(١٠) الاستشهادات مقتبسة من الكتابين المذكورين Cote du Voyage au Ouaday dans le Fonds Enfantin F.E. 561، وقد أرسلت لنا جنيين آلوم الملاحظة التالية عن عم الشيخ محمد: "خصص وقته لمراجعة الترجمات التى قام بهـــا المبعوثون العائدون من فرنسا:

رسالة فى علم النبات ترجمة السيد حسين غانم مطبعة بولاق ١٢٥٧ هـ؛ مختصر الجراحة الصغرى ترجمة محمد البقلى ١٢٥٩/١٨٤٣، روجعت بالتعاون مع الشيخ القناياتى؛ رسالة فى الصحة، ترجمة محمد الشافعى ١٢٦٠/١٨٤٤، روجع بالتعاون مع بيرون؛ مدخل إلى طب الأطفال لكلوت بك، ترجمة محمد الشافعى ١٢٥٠/١٨٣٤، رسالة فى التشريح لكروزلييه، ترجمة محمد الشوباشى، ١٠٢٦٦/١٨٤٩ كما ترجم أيضًا مع بيرون أعمالاً تطبيقية فى الكيمياء، ٤٥-١٢٥٨-٦٠/١٨٤٢؛ وراجع ترجمة القاموس الطبى لفابر وهو كتاب فى ٨ مجلدات حشد له جميع المترجمين المذكورين ومجمل أفراد البعثة الطبية لعام ١٨٣٢، أنجز فى عام ١٨٥١، ولم ينشر إلا فى عام ١٩١٤ فى مطبعة المقتطف وشارك أخيرًا فى تحقيق القاموس المحيط ومقامات الحريرى والمستطرف للأبشيهى. وفى سنواته الأخيرة كان يُدرِس الحديث فى مسجد السيدة زينب بالقاهرة، ومات عام ١٢٧٤/١٨٥٧.

الفصل السابع

يوتوبيا ذات حداثة عالمية : قناة السويس

"Oui, ce vieil isthme de Suez, espace pierreux, ce désert morne et vide, la mer va le conquérir à son empire, et nous allonger ainsi nos rivages.

....

L'amour de cette mer pour l'autre mer est comme l'amour de la perle pour le sein des beautés. Là nos navires se promèneront comme des fiancées, et les hommes que nous aimons accourront parmi nous.

Les hommes des déserts, les hommes des régions cultivées, attirés par les charmes séducteurs de ce bienfait, arriveront à nous comme les pluies fécondes; et les merveilles de leur industrie viendront nous caresser.

Les savants de tous les pays viendront vous visiter; les célébrités de l'intelligence aimeront notre Egypte. Et quand nous rencontrerons quelque homme illustre, nous tâcherons de l'enlacer comme le gibier dans nos filets.

Allez dire à l'Orient, à l'Occident, allez dire aux étrangers et aux Arabes : les distances ont dépouillé le voile qui les couvrait, et notre société est florissante à jamais.

L'étoile du commerce brille dans notre ciel ; la fortune revient habiter parmi nous ; la lumière des conseil nous visite des nations étrangères, et notre espoir touche enfin le but.

Proclamez, annoncez à toutes les nations, aux royaumes, aux empires, que pour tous nous avons une invariable amitié, et que cette sympathie est en nous un don de la nature."

(نشيد مصرى عن حفر برزخ السويس، كتبه الشيخ رفاعة وترجمه الدكتور بيرون، بطلب من محمد سعيد باشا). [١] (*)

(*) نورد هنا الترجمة الفرنسية لنشيد الطهطاوى لتعذر الحصول على النص الأصلى .

إن القناة التي دعا السان سيمونيون إلى حفرها، ليست هي قناة السويس الحقيقية التـي افتتحـت عـام ١٨٦٩ ولا هي يوتوبيا البحرين – هذه القناة النموذجية التي اقترحوها على مصر وعلى قرنهم بوصـفها أداة للحداثة والعالمية ورمزًا لها. وعلى عكس التسجيل القدري للأحداث الماضية الذي يمثله تاريخ المـؤرخين، وعلى عكس الوصف السلبي لسطح الأرض الذي تقدمه الجغرافيا، فإن دراسة الاختلافـات الممكنـة للقنـاة المقترحة والتي تم استبعادها يدفعنا إلى الشك في ضرورة الأحداث الإنسانية واسـتقرار وجـه العـالم. مـا ضرورة الجراحة للبرزخ الطبيعي؟ لماذا مسار مباشر، بدلاً من مسار غير مباشر؟ ما سبب تحفـظ محمـد علي؟ والسؤال الأهم: ما معنى هذا الطريق للمواصلات بالنسبة للداعين إليه من السان سيمونيين؟

أسئلة كثيرة يبدو من الصعب تقديمها كلها ومع ذلك فمن المفيد أن نوجه النظر إلى آفاق السويس.

***

هنـاك طرفـة سابقة للتاريخ تتمثل في اسم مهندس الكباري والطرق الذي كلفـه بونـابرت لدراسـة إمكانية الربط بين "بحر الهند" و"البحر المتوسط" عن طريق البحر الأحمر وبرزخ السويس: جي. إم. لـوبير J. M. Le Père، وهذا الرجل ليس له أى علاقة بالأب (لوبير باللغة الفرنسية) وهو أنفانتان. وكان لـوبير هو أول من صمم الطريق المباشر من السويس إلى منطقة بيلوز Péluse القديمة. ويتعين قـراءة مذكراتـه لمعرفته، لأنه ليس ثمة ما يشير إلى ذلك في المجلدين الضخمين لجول شارل رو Jules Charles – Roux اللذين لا يزالان يشكلان المرجعية في فرنسا. ويؤكد مؤلف هذه المجموعة وهو نائب رئيس الشركة العالمية على العكس من ذلك أنه في مقال لميشيل شيفالييه عام ١٨٤٤ طرح للمرة الأولـى الـسؤال حـول قنـاة مباشرة(٢).

والحـق أن مسيرة أثرية قادت لوبير إلى تكريس جزء كبير من مذكراتـه لاكتـشاف ركـام القنـاة الفرعونية القديمة وقناة عمر، ويتعين علينا الإشارة إلى مشروع علي بك الكبير (١٧٦٨ – ١٧٧٣) بإعـادة قناة الخليفة عمر، واحتراما من المهندس لماضى البلاد وتجربتها اتجه نحو حل يركز على الملاحة الداخليـة عن طريق النيل وصولا إلى الإسكندرية مع تحويلة محتملة عن طريق القاهرة. وبرر العالِم فى المعهد العلمـى هذا الخيار بصعوبة إقامة ميناء عميق على شاطئ البحر المتوسط بمكافحة طمى النيل وزحف الرمـال عـن طريق التيارات الساحلية. وأضاف أن هذا الطريق من الناحية الاقتصادية يسمح بـ "الاتصال النـشط بـين مختلف أماكن التجارة في مصر".

بيد أن هذا التفكير بدا محفوفاً بالمخاطر من الداخل بسبب الفرضية الجديدة القائلة: "بأن الحالة الراهنة للأمور قد تسمح بصورة أكبر بالفتح المباشر والقصري للبرزخ". وقدم لوبير براهين جد قوية لصالح هذا الخيار الثاني. بداية بدد التخوف القديم من غزو عن طريق البحر بفضل اختراع الأهوسة، ثم أكد أن الملاحة يمكن أن تصبح مستدامة لعدم "خضوعها لبدائل الفيضانات وانخفاض مياه النيل". وأخيرا قرر أنه من السهولة بمكان الحصول على عمق أكبر "عن طريق تيار يغذيه الخزان الضخم للبحيرات المُرة، حيث يتسبب سقوط المياه في إكسابها سرعة يمكنها تجنب تراكم الرمال التي تحملها الرياح من الصحراء". وبما أن هذه المياه ليست محملة بالطمي فلن تؤدي إلى تكوين حاجز، كما هو الحال في ثغريْ دمياط ورشيد، وسوف تغذي على العكس "الطرادات" التي يمكن للأرصفة تضييقها وجعلها أكثر قوة لتغذية مجرى المياه. والعيب الوحيد كما يرى مهندس بونابرت – يتمثل في استقلال مثل هذه القناة بالنسبة للقنوات الداخلية في عدم وجود صلات مع إفريقيا ومع الأنشطة الاقتصادية المتمركزة حول القاهرة. ولكن يكمن العائق الذي يمسك لوبير عن اقتراح هذا الطريق الأسرع والأكثر راحة في الصعوبات التي يراها في "إعادة حفر وصيانة القناة على عمق مناسب بين السويس ومرساها"(٣).

وكانت لجنة مصر بهذه الطريقة جد قريبة من الحل المباشر، ولكنها لم تصل إلى ذلك إلا بعد أخطاء في مجال الملاحظة. وتمثلت نتائج رفع العينات التي أجراها المهندسون بعناية في ارتفاع منسوب البحر الأحمر عن البحر المتوسط، مما يؤدي – وفقًا لهم – إلى قيام التيار الذي سينتج بحفر وصيانة الميناء المزمع إنشاؤه على البحر المتوسط. أما بالنسبة للوسائل المالية فقد دعا لوبير إلى إعطاء الامتياز "لشركة تجارة" حتى يكون المشروع في منأى عن عدم ثبات الحكومات والتنافسات الوزارية، ومع ذلك فهناك مجال لملاحظة أن الإطار الاجتماعي والسياسي للتنفيذ يتمثل، فى نظره، في "إقامة مستعمرة فرنسية على الضفاف الشرقية للبحر المتوسط" تدعمها بقوة الحكومة المركزية وتحميها، وتقوم "بالجلب الحصري لبضائع الهند"(٤)، ومن ثم فإن فكرة القناة نشأت من اعتبارات فنية بعيدًا عن مسألة التنمية الخاصة بمصر وصولا إلى تهديد استقلالها.

والحق أن أول سان سيموني بعد بعثة أنفانتان أثار الحوار مرة أخرى حول مشروع لوبير لم يكن سوى أوجست كولان في إحدى "رسائل مصر" التي نشرها في مجلة "**Les Deux Mondes**" عام ١٨٣٨، ويستبعد كولان بدايةً ترميم القنوات القديمة وربط أطرافها ليمد على الجانبين المتقابلين "نظام القنوات الداخلية". وبالرغم من المعارضة الفرنسية القوية للشأن الإنجليزي، يرى كولان أن بناء خط للسكك الحديدية من القاهرة وحتى السويس هو مشروع قابل للتنفيذ. وقد أعطي هذا المشروع في ١٨٣٤ للأخوة جالوواي

Galloway، ونام هذا المشروع أيضًا مثل مشروع القناطر. بيد أن كولان كـــان يرى أن هذا النمط من النقل لا يمكن استخدامه إلا لنقل "المسافرين والخطابات والبضائع التي يجب أن تظل في مصر للاستهلاك المحلي أو ليتم تقسيمها وتوزيعها"، ويمكن أيضًا استخدامه لنقل بضائع ثمينة قليلة الوزن (الذهب والفــضة واللؤلــؤ والبن والشاى). ويضيف كولان معترضًا بأن النقل بالسكك الحديدية لن يُصلح في شيء مــصير "البــضائع الضخمة" التي تنقل بطريقة عبثية عبر رأس الرجاء الصالح، وتمثل القناة بالنسبة لهذه البــضائع مكــسبا لا يمكن الاستعاضة عنه في الوقت والمال.

ومن ثم أعلن كولان بوضوح عن رأيه لصالح حفر القناة؛ وهى قناة "ممتدة" تأخذ أبسط الأشكال؛ وهو خط مستقيم يمتد من السويس وحتى خليج تينه. ويستخلص المحامي بأنه "من الناحية المادية" تقدم الموضــوع كثيرًا اعتبارًا من لوبير: تم بناء المراكب البخارية واستخدام السفن البخارية بين بومباي والــسويس وإهــداء محمد علي سفينة بخارية من الحديد للملاحة في النيل وأعمال خرائطية لشركة الهند فــي البحــر الأحمــر.. ويرى كولان أن هذه المؤشرات تؤكد أن إنجلترا تعمل بطريقة سرية لإعادة فتح طريق الهنــد القــديم عبــر مصر. ويصرح كولان بأنه "في الوقت الذي تعتقد فيه إنجلترا أنها تعمل لحساب نفسها" فهى "تعمل للعالم كله، لأن هناك قانونًا قدريًا يقول بأنه ســواء أخــذنا ما هــو شخــصي (بمعنى المصالح الأنانية) كنقطة بدايــة، أو استلهمنا تطلعاتنا من خلال التفاني، فإننا نحقق دائمًا التقدم و"التضامن الاجتماعي". وهكــذا تــم تــسوية إشكالية من طراز سان سيمونى بحث للتعارض بين "ما هو شخصي" و"التفــاني" عــن طريــق "التــضامن الاجتماعي" (أو الاشتراكية). ويمكن تطبيق هذا الحل على مسألة قناة البحرين. وفي ذلــك الوقــت توصّــل كولان – متأثرًا بالإيديولوجية المشابهة – وهي "مذهب فورييه" – إلى إعطاء صبغة مستوحاة من زمر فورييــة ليوتوبياه بتصور مرافق لنموذج مستخدم في الشركة العامة للملاحة: "قوافل من المراكب مقطــورة بطريقــة متتابعة الواحدة تلو الأخرى تجذبها من الأمام سفينة بخارية أو أكثر": "فالبخار يجب أن يؤدي بنا إلى تــرك الملاحة المنعزلة نحو الملاحة الاجتماعية!"(٤)

ولكن كولان في نفس هذه الدفعة التي قادته إلى فكرة التخطيط المباشر وضم القناة في رؤية اشــتراكية مستقبلية، وصل فعليًا إلى تجاوز مصر بوصفها دولة ذات سيادة، على الأقل جزئيًا. وفى عام ١٨٤٠ نــشر في "La Phalange" باقــي دراستــه المنشــورة في "روفو دي دو موند"، ويفسر أنه وفقًا لمعلوماتــه فــإن تنفيذ خط السكة الحديدية بين السويس والقاهرة قد تعثر بسبب طلب الإنجليز إقامة حصون فــي الــصحراء يقومون هم بحمايتها بالسلاح، وقد رفض الباشا العجوز هذا الطلب ولذا يستلزم الأمر الاتجاه نحــو تأســيس شركة أوربية ليس لها جنسية محددة يتكون رأسمالها من مختلف المساهمات الوطنية ويكون لها "طابع عالمي

وضعي" من شأنه تجاوز الشجارات الدبلوماسية. ويكون لهذه الشركة "بعض الفصائل المسلحة" ومتعددة الجنسيات، على غرار شركة الهند، سواء "للحفاظ على التوازن العادل بين جميع الدول التي تتمتع بالمرور" أو لمنع نهب "عرب الصحراء". وبعد إتمام هذه الخطوة الأولى، ننتقل بصورة طبيعية إلى الخطوة الثانية التي تتمثل في أن القناة ستتبع نفس الطريق بعد بيان الإمكانية أو عدم الإمكانية الفنية لتنفيذ المشروع بعد دراسات جادة عالية المستوى(٦).

وفي ديسمبر ١٨٤٥ حدد كولان، بصورة أدق، أفكاره في نوع من المنشور يحمل عنوان "شركة برزخ السويس، نبذة عامة ومشروع الشركة"، وباستثناء تحفظ يخص خط السكة الحديدية وأمنية كولان في حفر قناة للمياه العذبة أصغر من القناة البحرية وموازية لها تهدف إلى "إنعاش الصحراء"، كان مشروعه يحدد قانونًا دوليًا جديدًا يصل إلى النفي الصريح للمصالح والسيادة المصرية بحجة تجاوز صراعات القوى الأوربية. وكانت "كراسة الشروط" المقترحة تنص بالفعل على ضرورة نزع ملكية مرتبطة بأهداف هذا المشروع ذي الطابع السلمي والعالمي:

١- تحييد البرزخ أو بمعنى آخر تخلي الباب العالى عن جميع حقوق السيادة أو الملكية على البرزخ المذكور والإعلان الرسمي بأنه لا يجوز أن يصبح ملكًا لأية دولة سياسية .

٢- السلطة الممنوحة لمحمد علي – والذي أصبح باشا مصر وفقًا للمعاهدات الأخيرة – في أن يقرر مع الشركة الشروط التي يراها مناسبة ليمنحها ملكية الأراضي التي أعلنت السلطات طابعها الحيادي، دون أن يكون له مع ذلك السلطة لإعاقة هذه العملية الكبيرة وشل تصميم أوروبا والباب على المضى قدمًا فى تنفيذ هذا المشروع.

٣- تحصيل الشركة للرسوم والتعريفات لمدة ٩٩ عامًا، وفي نهاية هذه المدة تعود ملكية المشروعات والأعمال المنفذة إلى المجال العام للأمم (باستثناء خط السكة الحديد إذا كانت الشركة قد تنازلت عنه لمحمد علي).

٤- الوجود غير محدد الزمن والأبدي للشركة، فبعد انتهاء فترة التسعة والتسعين عامًا لن تحصل الشركة سوى على الحد الأدنى من الرسوم اللازمة لصيانة الأعمال ودفع أجور العاملين بالإدارة.

٥- حق الشركة في حراسة الممر وتأمينه مما يستوجب أن يكون لديها رجال أمن تحت تصرفها، وأن يكون لها حق طلب مساعدات أمنية إذا استلزم الأمر وذلك بالتوجه إلى باشا مصر أو خلفائه وإلى السلطان أو حكام الشام أو أخيرًا إلى القوى الأوربية الخمس الكبرى وذلك كما يتراءى للشركة.

٦- الحظر التام لعبور أي سفينة حرب أو قوات عسكرية بأي مبرر - بطريقة صريحة أو خفية - عن طريق قناة السويس أو السكك الحديدية. ونتيجة لهذا الحظر يجوز للشركة تفتيش حمولة أي سفينة تشك في إخفائها ذخيرة حرب أو قوات عسكرية.

ومن ثم وكما يبدو واضحًا في خطاب بدء المشروع كان كولان يتصرف ويفكر بالتعاون الوثيق مع أصدقائه من السان سيمونيين. فهل كان يمكن لفكرة تأسيس "مِلْكية للجنس البشري" أن تتم، دون أن يكون فى ذلك تناقض بفعل إنسان واحد؟(٧)

***

تزامن إحياء موضوع السويس في الصحافة الفرنسية مع فترة تتسم بإعادة تنشيط العلاقات المصرية الفرنسية، وكذلك مع بلوغ مرحلة جديدة من نضج الدراسات التقنية التي يقوم بها في مصر نفسها كل من لينان دي بيلفون ولامبير.

وكان أنفانتان يحفز المهندسين بصورة مستمرة، ومنذ أن غادر الجزء الأكبر من الجماعة مصر، استمر المهندسان في رسم الخرائط وجمع المعلومات بغية تنفيذ المشروع الكبير. وأخطرت على سبيل المثال رسالة من لامبير بتاريخ يناير ١٨٤١ الأب بأنه "يعمل بقوة مع لينان لربط البحرين والسد حتى تكون جاهزة تماما في الوقت المناسب"(٨). ولما عهد بالسد لموجل **Mougel** أصبحت القناة وفي المقابل التخصص الجديد للينان. وفي عام ١٨٤٣ انتهى عمليًا من كتابة بحث حول هذا الموضوع وساعده لامبير في "ترتيبه" دون أية أوهام حول فرص تنفيذ قريبة للمشروع، ولكنه كان يأمل على الأقل في الحصول على تاريخ لنشره. ولهذا أطلع أنفانتان عام ١٨٤٤ - عن طريق رسالة وجهها له لامبير - عن رغبته في أن يعتني بنشره في فرنسا. وأرسل لامبير النص في يناير ١٨٤٥ عبر مسار يعكس اهتمام الحكام الفرنسيين بالموضوع مرة أخرى: فقد نقله قنصل فرنسا إلى وزير الخارجية جيزو الذي نقله بدوره إلى جومار (الوسيط التقليدي منذ بونابرت لكل ما هو مصري) الذي سلمه في نهاية المطاف إلى الأب وأرسلت الخرائط بعد ذلك بشهر بعد أن أخطر القنصل بنيديتي لينان تقدير الوزير لعمله(٩).

ومهدت هذه الضجة لرحلة للدوق مونبنسيه خلال الصيف التالي إلى مصر. وبالفعل شرّف ابن لويس فيليب، لينان بإجراء حوار طويل معه حول القناة وطلب منه اصطحابه في جميع أنحاء البلاد(١٠). ومن هنا اقتنع مهندس الباشا بقدرته على الاعتماد على نفسه، وبدأ في إظهار منحاه الأول فى استغنائه عن مساعدات السان سيمونيين المشبوهة. ولما أدرك لامبير ذلك أدانه بلغة فظة نوعًا ما متهمًا إياه بالسعي إلى "إظهار عذرية تامة أمام الأمير"، بيد أن لينان عاد سريعًا إلى حالة التواضع بسبب عدم الثقة التي أظهرها دوق

مونبنسيه إزاء قدرته التكنولوجية، وانتهى بالاعتذار لأنفانتان[11]. والحق أن اهتمام الدوق كان موجهًا في الواقع للسان سيمونيين، فمرافقه وهو الكولونيل تييرى Thierry زميل دراسة برونو بمدرسة الهندسة العليا كان معجبًا منذ زمن بعيد بالسان سيمونية، وكان يؤيد أفكار أنفانتان المعارضة لسياسة بوجو Bugeaud في الجزائر، وتشهد على هذا التفاهم نتيجة ملموسة وكذلك اللقاءات السياسية آنذاك بين مصر وفرنسا. ففي شهر أغسطس منح محمد علي البكوية لكل من لينان و"اثنين من أكثر العرب تميزًا من الذين تعلموا في فرنسا في مجال الأشغال العامة". و"هما مظهر ومصطفى (بهجت)"[12]؛ وذلك تحقيقًا لرغبة ضيفه الأمير. وبعد ذلك بعامين منح لامبير البكوية بعد طلب جيزو الصريح له بذلك[13]، ويُظهر أسلوب الترقي هذا الدور المحوري للسان سيمونيين وقدامى طلاب الإرساليات المدرسية في العلاقات بين الحكومات.

وفي مارس ١٨٤٧ عندما أخطر لينان – الذي تم استدعاؤه بطريقة عاجلة للقصر – أنفانتان عن ردود فعل الباشا إزاء النشر المبكر لأنشطته في جريدة فرنكفورت لم يشعر أنفانتان بأي غضب من التأكيد – الزائف بالطبع – عن الضلوع المباشر للحكومة الفرنسية في تكوين جمعيته. وعندما قابل الأب في غرفة انتظار الدوق مونبنسيه للأمراء المصريين (ومن بينهم إسماعيل) الذين جاءوا لتحية الأمير الفرنسي قبل عودتهم، أكد للينان أن "الكولونيل تييري" قد تحدث معهم عن مشروع السويس وعن إمكانية إخطار أنفانتان بدرجة النضج التي توصلت إليها في فرنسا فكرة الانتهاء قريبًا من هذا المشروع الضخم الذي يجب أن يتوج حياته (...)، فيجعلها أكبر وأعظم ألف مرة مما لو كان قد استولى على القسطنطينية[14].

وفي الأشهر الأولى لعام ١٨٤٧ أثارت الأخبار – التي انتشرت في مصر حول تكوين جمعية في باريس تهدف إلى حفر قناة السويس – قلقًا شديدًا لدى الدبلوماسيين الفرنسيين، وأنذر قنصل القاهرة بارو وزيره "من التأثير الهائل الذي اكتسبته حكومة النمسا على اللجنة" ومن المخاطر التي ستظهر جراء حديث الباب العالي الذي لا يمكن تجنبه عن مشروع بهذا الحجم:

"لن يفوت أعداء محمد علي أن يقولوا بالفعل إن حفر قناة في برزخ السويس لا يشبه أي مشروع نفذه حتى الآن الوالي في مصر، وإن القنوات الداخلية وسد النيل هي مشروعات ذات نفع محلي لم يكن لأي قوة أجنبية حق التدخل فيها؛ ولكن لن ينطبق ذلك على قناة تعبر مضيق السويس لتربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر وبحور الهند، وإن ممرًا بهذه الدرجة من الأهمية يعني إلى أقصى حد جميع القوى البحرية، وإنه من غير المقبول أن يعهد إلى الوالي بتنفيذ مثل هذا المشروع ومراقبة مصالح ضخمة تكون قناة السويس مركزها، وإنه إذا ما نظرنا إلى النتائج الهائلة التي ستستتبع بالضرورة حفر قناة السويس على تجارة جميع القوى المطلة على البحر المتوسط أو التي لها أي مخرج عليه، فسنجد من البديهي أن مسألة فتح البرزخ لا يمكن حسمها إلا باتفاق مشترك مع نفس هذه القوى. ونظرًا لأن محمد علي ليس سوى تابع للباب، لذا يتعين على هذه القوى أن تضع مع الباب نفسه قواعد المفاوضات التي تحدد حقوق وواجبات كل جانب"[15].

والحق أن الباشا الذي يملك معلومات أفضل من القنصل أخذ المبادرة للحديث معه "مرارًا" حول ردود فعله عند الإعلان عن الخبر. وحيث إن بارو بدا وكأنه ينقل حديثًا، فمن المناسب أن نذكر بصورة كاملة خطاب محمد علي غير المباشر والذي تتخلله تعليقات الممثل الفرنسي:

"يعرف الوالي أن حفر قناة عبر برزخ السويس سوف يكون من شأنه إعطاء الوضع الذي أسسه في مصر عناصر قوة واستمرارية غير موجودة في الوقت الراهن، وذلك بربط المصالح التجارية لجميع القوى المطلة على البحر المتوسط بالمصالح المصرية الخالصة. ولم يستطع إلا أن يرى بمزيد من الرضا الخطوة الهامة التي توشك مسألة القناة على إحداثها، ومن ثم فقد قرر أن ييسر – طالما كان الأمر في يده – مهمة المهندسين وعقد آمال كبيرة على النتائج التي ستنتج . ولكنه لا يُخفي أنه، حتى وإن قبل أن الدراسات ستثبت إمكانية وسهولة حفر قناة السويس، سيظل أمامه مع ذلك صعوبات يجب حلها. وتتمثل هذه الصعوبات فيما يلي:

١. المعارضة الخفية أو المعلنة التي ستوجهها إنجلترا للمشروع. ولا يتعلق الأمر في هذا الشأن بنوع من التخوف فستخسر إنجلترا بالفعل بحفر قناة السويس التي ستفتح ممرًا لتجارة القوى المطلة على البحر المتوسط في البحر الأحمر وفى خلجان الهند ما تكسبه هذه القوى فيها، ومن جهة أخرى فإن لإنجلترا مصلحة سياسية في أن تكون ممتلكاتها في الهند أبعد ما يكون عن اتصال أوربي بها، وأعتقد أنني لا أخطئ سيدي الوزير – عندما أصرح بوجهة نظري في أن هذه القوة – التي ما كانت لتتردد هي نفسها لحظة في حفر القناة إذا كانت تملك الأرض لأنها كانت ستنظم الملاحة فيها وفقًا لتقاليدها – سوف تعارض دومًا في حفر قناة تمر فيها البحريات التجارية لجميع الأمم. ولهذا السبب تدفع الوالي لبناء خط سكة حديد بين القاهرة والسويس يسهم في إظهار القناة، كأنها عديمة النفع وفي الوقت نفسه يكون مفيدًا بصورة حصرية للمسافرين الإنجليز، ويخدم من ناحية أخرى بطرق عدة رؤاها المستقبلية في البلاد.

٢. لن يوافق الوالي أبدًا على أي منح شركة مشروع حفر القناة ولا بدرجة أقل – أيًا كان الثمن – استغلالاً. وأكد أنه يملك الوسائل اللازمة ليقوم بهذه الأعمال بنفسه ودون مساعدة رؤوس الأموال الأجنبية، وسيطلب من فرنسا مهندسين لإدارة الأعمال، ولكن هؤلاء المهندسين سيعملون لحسابه فقط. وهذا القرار لجلالته سيغضب بالضرورة الموقعين على عقد الشركة التي تحدثتُ عنها لسعادتكم، لأن هدفهم – إن لم أكن مخطئًا – هو تقديم الخرائط لأصحاب رؤوس الأموال الأوربيين بمجرد انتهاء الدراسات التحضيرية وتكوين شركة منفذة بمساعدة الحكومة المصرية شبيهة للشركات الموجودة في جميع أنحاء العالم لبناء السكك الحديدية".(١٥)

وبصورة أساسية وفي كلمة واحدة، ففي مقابل اليوتوبيا العالمية للسان سيمونيين التي تركز على أوربا وبصفة خاصة فرنسا قدّم محمد علي اليوتوبيا الوطنية الخاصة به (أو اليوتوبيا الأسرية كما قد يقول البعض)، والتي ترتكز حول مصر التي تصالح وتحايد القوى الأوربية بعضها عن طريق بعض على أساس استقلال دولته. وقد أوضحت برقية من قنصل الإسكندرية بنيديتي، بتاريخ ٩ يوليو ١٨٤٧ قبل أقل من عام من مرض الباشا، وجهة النظر تلك بطريقة متماسكة وصريحة:

"محمد علي الذي لم تتغير لغته حول هذا الموضوع الذي يربط حفر قناة السويس بفكر حياته كلها، والذي يتمثل في جمع القوى العظمى في تنسيق مشترك يهدف إلى ضمان حرية التمتع بالقناة لفخامته وذريته من بعده دون الحاجة إلى خط شريف من السلطان، عن طريق عمل دبلوماسي ومباشر، ويترتب على هذا الضمان تثبيت ملكية مصر الهادئة في أسرته دون الحاجة إلى خط شريف من السلطان، وقال سوف أحفر الخليج بمجرد اتفاق القوى على هذا المشروع، وبمجرد أن تحدد أوربا التي ستستفيد أعظم الاستفادة من هذا المشروع حدود المزايا السياسية التي يجب أن تمنح لوالي مصر. ولذلك – سيدي الوزير – فإن قرار الوالي بالرفض التام لتدخل شركة لا يمثل سوى مصالح الأفراد ومخاوف فخامته من الدخول في صراع مع النفوذ السياسي الذي قد يمنح تأييده سواء في أوربا أو في القسطنطينية بصفة خاصة لأي مشروع من هذا النمط"[١٧].

وهذه النوايا الطيبة تجاه أوربا وهذا الإصرار الشرعي على الاستقلال المصري لا يتعارض مع الاعتراف اللاحق لبارو بأنه "في صميم قلبه لا يريد (أي الباشا) أن ينجز أيًّا من المشروعين"، لا القناة ولا السكك الحديدية، وكان يجد ميزة في "إمكانية الاعتماد على إنجلترا لرفض القناة، وعلى فرنسا والنمسا لمعارضة السكة الحديدية "؛ لأنه – كما يضيف محمد علي – كان سيعطي موافقته في حالة الاتفاق التام. ولكن القنصل كان دائمًا ما يقدم دون جدوى الحجة القائلة بأنه على خلاف السكك الحديدية فإن لقناة السويس نفعًا ومعنًى دوليين[١٨].

* * *

وعلى خلاف عامي ١٨٣٣ – ١٨٣٤ فإن مشروع السان سيمونيين – كما يمكن أن نتصور – كان هذه المرة هو موضوع مناقشات وعناية محمد علي.

ولم يهمل أنفانتان الملف الذي حصل عليه من لينان، وحكم عليه – عن حق – بأنه "سيئ ومكتوب بطريقة سيئة ومشوش"، وأعرب عن عدم ثقته – وهنا أيضًا عن حق – في متانته العلمية[١٩].

ومع ذلك قبل الملف كما هو بوصفه نقطة بداية، وكان واضحًا في مناقشات الباشا مع القناصل أن الأمر لا يتعلق إلا بقناة بحرية مباشرة، وإذا كانت دراسة لينان "حول الاتصالات التي ينبغي أن تقيمها قناة السويس بين البحرين الأحمر والمتوسط"[٢٠] تعتمد على معرفة تجريبية بالواقع، فإنها لا تجدد إثارة المشكلة التي عرضها لوبير. بالرغم من أخذ مهندس الباشا على مشروع منافس قدمه كوردييه **Cordier** نقل نتائج مهندسي بونابرت، فقد كرر هو نفسه الأسلوب والمعطيات الأساسية بعد تحديثها وتأكيدها ببعض الملاحظات الإضافية. وكانت فكرته التي تقوم على أساس اختلاف المنسوب الذي أشار إليه لوبير تتمثل في شق قناة بحرية حرة تأخذ شكل خط مستقيم بين السويس وتينة وتكون نوعًا من النهر المالح أو من البوسفور الجديد – على حد تعبيره – تمر بها أكبر السفن. وكان من المفترض أن يحفر التيار – الذي ينشأ من اختلاف المنسوب– ذلك المصرف الإشكالي في البحر المتوسط.

وبالفعل بدأ تأسيس شركة عالمية لقناة السويس منذ ١٨٤٤، ففي خريف هذا العام ساعدت جولة سيمفونية "الصحراء" التي ألفها فليسيان دافيد في إقامة علاقات مع مترينخ **Metternich** ودي بروك **Bruck** عن طريق الشريك البروسي آرليس دوفور والبروتستانتي الفرنسي دوفور فيرونس، كما عرض المهندس النمساوي نيجريللي وهو مستشار للإمبراطور ومفتش الإدارة العامة لسكك حديد الدولة مساعدته الحماسية. ومن ناحية إنجلترا وافق الشهير ستيفنسون **Stephenson** والمهندس ستاربوك **Starbuck** على التعاون. وفي فرنسا نفسها فضلاً عن المخلص آرليس دوفور لم يجد أنفانتان عناءً في إقناع الإخوة تالابو Talabot وهم شركاؤه في مشروعات السكك الحديدية.

وفي ٢٧ نوفمبر ١٨٤٦ اجتمع آرليس دوفور ونيجريللي وسيلييه **Sellier** (ألماني الجنسية) وستاربوك (إنجليزي الجنسية) وستيفنسون والإخوة تالابو (جول وليبون وبولان) عند أنفانتان لتأسيس "شركة دراسات قناة السويس" برأسمال يبلغ ١٥٠٠٠٠ فرنك ومقرها محل إقامة الأب نفسه. وقد افتتح هذا الأخير الجلسة بكلمة عبر فيها عن الجهود التي بذلها منذ ١٨٣٣ والتضحيات التي قدمها السان سيمونيون خلال حملتهم وزرع المجموعة الصغيرة في مصر التي يقوم فيها لامبير بدور المنشط. واختتم بأن القناة "لم تعد قط نظرية فلسفية أو مسألة سياسية"، ولكن "قضية". وبعد بحث "دراسة" لينان التي وافق الحاضرون على مشروعها بصورة مجملة قرروا استكمال الدراسات الميدانية وتقسيمها فيما بينهم وتحديد التكاليف والآثار التجارية قبل التحول المحتمل لهم إلى شركة تنفيذ(٢١).

وسرعان ما أضيفت الاشتراكات والمساعدات المالية الى الاكتتابات الشخصية للمؤسسين وهم: غُرفتا تجارة ليون ومارسيليا، وليود **Loyd** النمساوي، وبلدية تريستا، وشركة فيينا الصناعية، وكبار تجار ليبزج ودرسد. وظل الإنجليز وحدهم متحفظين في هذا الشأن لأسباب قومية بديهية، ومع ذلك قدم ستيفنسون خرائط جس البحر الأحمر ورسومات ميناء السويس التي أنجزتها شركة الهند. أما الجانب الألماني فقد كان جد محتدم (والدليل على ذلك عدم التزام السرية والأنشطة الدبلوماسية التي أثرت على الباشا). ولكن نيجريللي أبحر إلى جنوب الإسكندرية في نهاية مارس ١٨٤٧ لإجراء جزء من الدراسات الميدانية المسبقة. أما بالنسبة لفرنسا – أخيرًا – أرشد برونو – المدير السابق لمدرسة طرة ومساعد بولان تالابو في سكك حديد مارسيليا – في مصر اعتبارًا من شهر سبتمبر فريق عمل كوّنه تالابو تحت قيادة المهندس بوردالو لإجراء جسات كاملة بين القاهرة وخليج تينة. والتزم محمد علي بتعهداته ومنح الجميع التصاريح والتسهيلات المادية اللازمة وتعجب الأب من ذلك، وقال "إن أغرب ما في هذا الموضوع هو أن الجميع يعرف أن السيد أنفانتان هو مركز هذه العملية"(٢٢).

وبدت الأمور بشكل أفضل عندما قدم فريق العمل الذي شكله تالابو نتائجه: وعلى عكس مناسيب بعثة مصر والتحققات المزعومة التي أجراها لينان اتضح أن منسوب المياه متساوٍ تقريبًا في البحرين. والموضوع لا يشوبه أى شك، ومع ذلك رفض لينان تصديقه(٢٣). ومن ثم أصبح المشروع في مجمله في حاجة للإعادة لأن كل التخطيط للطريق المباشر كان يقوم على أساس اختلاف حوالى عشرة أمتار تم قياسها عام ١٧٩٩، ودون اختلاف في المنسوب لن يكون هناك بالفعل تيار، ودون تيار لن تكون هناك قناة عميقة ولا ميناء ولا مرسى في البحر المتوسط، ويرى بولان تالابو أنه يتعين العودة إلى نقطة البداية، أي إلى الإسكندرية وإلى مسار غير مباشر(٢٤)، وأخذت الصعوبة التقنية أبعادًا ضخمة، فكان يتعين إعادة الرسومات منذ البداية، وتضاعفت التكاليف المتوقعة. وأخيرًا جاءت ثورة فبراير ١٨٤٨ للقضاء على الآمال؛ إذ أثرت سلبا على العالم السياسي وأوساط الأعمال، بوصول عباس للحكم حصلت إنجلترا على سكتها الحديدية التي أسرع ستيفنسون من أجلها بالتخلي عن شركة دراسات قناة السويس.

وظل الموقف مجمدًا على هذا الحال حتى عام ١٨٥٤، وعلى الرغم من حصول البارون بروك على منصب سفير النمسا في القسطنطينية مما يسمح له بالتصرف، فإنه أوصى بالانتظار.

وأدى مقتل عباس ووصول سعيد إلى الحكم إلى انطلاقة جديدة، فالمعروف أن فردينان ديليسبس كان مشاهدًا متعاطفًا لبعثة أنفانتان عندما كان نائبًا لقنصل الإسكندرية وعند وصول سعيد للحكم دعاه، إذ كانت تربطه به علاقة صداقة منذ ذلك الحين. وعندما نما إلى علم آرليس دوفور خبر هذه الدعوة، وجد فيها فرصة، وتقرّب من ديليسبس، وأعاد علاقاته مع الإخوة بيريير للحصول على وعد للحصول على مساعدة مالية منهم لتكوين شركة تنفيذ. وقبل أن يغادر البلاد لم يفت الدبلوماسي القيام بزيارة آرليس وأنفانتان وتالابو ليتسلم ملفاتهم. وفي ١٧ يناير ١٨٥٥ كتب لآرليس جملة تشبه الالتزام: "تبدو لي الرئيس المنتظر لمجلس إدارة شركتنا القادم".

وباقي الحكاية يعود لحكاية أخرى. فالمعروف أن نقطة الانفصال الرسمية بين ديليسبس والسان سيمونيين تمثلت في مسألة المسار المباشر الذي قرره سعيد باشا بسيادة تامة، والواقع أن قيادة العمليات خرجت تمامًا من أيدي السان سيمونيين خلال عام ١٨٥٥.

وإذا ما أخذنا بالمظاهر فإن شركة الدراسات، ومن باب المفارقة، بإثباتها خطأ لجنة مصر فيما يتعلق باختلاف منسوب البحرين، قد فشلت وهي بالقرب من نقطة الوصول .

والواقع أن الطريق غير المباشر الذي رسمه بولان تالابو لم ينشر إلا في مايو ١٨٥٥، عندما كانت المباراة على وشك الانتهاء وكما لو كان ذلك لأخذ موعد في حالة فشل ديليسبس. وعندما أكد آرليس دوفورعلانية أن المسار غير المباشر ليس موضوع عقيدة، أشار إلى أن الاختلاف يخص أمرًا آخر. وذكر نيجريللى الذي كان يؤيد ديليسبس في شهر يونيو بأنه يرى أن "موضوع السويس ليس موضوعًا مصريًّا

أو تركيًا فحسب كما يدعي السيد ديليسبس: فهو بصورة خاصة موضوع أوروبي بل وعالمي والشركة التي ستنفذه ستكون – لا محالة – تعبيرًا عن إرادة القوى المهتمة بهذا المشروع، ولن تكون نتيجة هوى أو مجاملة سعيد باشا لأحد أصدقائه"(٢٥). وهذا هو ما قاله لينان بطريقته ومن وجهة نظر أخرى عندما كان في باريس لحضور المعرض العالمي وقابل لامبير وشرح له أن أنفانتان أخطأ عندما نظر إلى المشكلة "من جانبها السلبي"، أي "بما هو غريب على مصر".(٢٦)

إن التناقض المطلق الذي أقامته جملة آرليس بين المصالح الشرقية والمصنفة بوصفها تعسفية بسبب الشكل الاستبدادي لحكم الوالي، والطابع العالمي المزعوم للمصالح الغربية، كان له الفضل غير المقصود لتحديد النقطة التي تأثرت فيها يوتوبيا السان سيمونيين بالمنطق الاستعماري.

ومع ذلك هل كان آرليس مخطئًا؟

وبعد مرور مائة عام حلّت مصر التناقض بامتلاكها الكامل والتام للقناة ولتتحمل لحسابها نصيبها من العالمية.

الهوامش

(1) *'L'isthme* de Suez journal de l'union des deux mers.

من منشورات الشركة العالمية لقناة السويس البحرية، عددا ٢٥ يونيه ١٨٥٦، ص ١٥ – ١٦ . وهذا النشيد كـان معـدًا ليغنيه الجيش المصرى.

(2) *L'isthme et le Canal de Suez,* Paris, Hachette, 1901, t. I, p. 207. Il s'agit du diptyque sur Panama et Suez paru dans la *Revue des Deux Mondes* de janvier 1844. اكتفى شوفالييه – بعد انفصاله عن أنفانتان عام ١٨٣٣ وعمله بمفرده – اكتفى بتكرار آراء لوبير المؤيدة للمسار المباشر، وتكمن قيمة عمله في إعـادة توجيه انتباه الجمهور نحو السويس.

(3) *Mémoire sur la communication de la mer des Indes à la Méditerranée, par la Mer Rouge et l'isthme de Suez, par J.M. Le Père, in Description de l'Egypte*, t. XI, "Etat moderne", Paris, 2ème éd. (1822), en part. pp. 130 (n. 2) et 151-52.

(4) Ibid., p. 161-62, 282 et 48.

(5) "Lettres sur l'Egypte. Rétablissement de l'ancienne Route de l'Inde", *Revue des Deux Mondes,* 4ème série, t. XIII 15, janvier 1838, pp. 237-48.

(6) "Question égyptienne", *La Phalange, 3ème série*, t. 1, 6 et 9 septembre 840, pp. 58-62 et 70-76. Ce périodique est l'organe du fouriérisme.

(7) Manifeste imprimé et lettre d'envoi en F.E., Mss. 7 830/26 et 27.

(8) F.E., Ms. 7.740/31.

(9) F.E., Mss. 7 740/55, 61, 63 et 64. Le journal d'Enfantin. ونشرت هذه الجريدة في ١٢ مارس ١٨٤٤ أن لينان أنهى بحثه، وأضافت أن مظهر أفندي ومصطفى أفندي مكلفان بدراسة ري وادى صحراء السويس، وهـي فكـرة تمس من قريب فكرة قناة السويس.

(10) Lettre de Lambert du 17 juillet 1845, F.E., Ms. 7.740170.

(11) Voir F.E., Ms. 7.740171, 74-75, 78.

(12) Id., 4 août 1845, F.E., Ms. 7.740/71.

(13) Lettre n° 84 du consul Benedetti du 28 avril 1847 *Archives des Affaires Etrangères,* Egypte (1847-/848), t. 19.. تم التصريح بطلب الوزير في رسالة خاصة بتاريخ ١٠ ديسمبر السابق.

(14) Lettre du 10 mars 1847, F.E., Ms. 7.830/321 f° 36

(15) Dépêche n° 80, en date du 26 mars 1847, ibid., f° 53 بدات بوادر الضجة مع البرقية رقم ٧٥ المذكورة سالفا.

(16) Dépêche n° 75, en date du 6 février 1847, ibid, ff. 24-26.

(17) Dépêche n° 7 du consul d'Alexandrie, ibid., ff. 180 v° - 109 r°.

(18) Dépêche n° 90 du consul du Caire, 6 décembre 1847, v° 192 r°.

(19) Lettre à Dufour du 20 mars 1847, F.E., Ms. 7.830, f° 38.

(٢٠) المخطوط بتاريخ ١٨٤٤ موجود بذات العنوان فى أرشيف أنفانتان (Ms 7.83216) وملخصه كما يلى: ١- مقدمة واعتبارات سياسية. ٢- وصف جيولوجى لبرزخ السويس. ٣- الجغرافية المائية للبرزج وما يمكن استخلاصه من دراسة هذا البرزخ. ٤-الجغرافية الحالية للمضيق بالنسبة لجغرافيته القديمة. ٥- مناقشة حول الجغرافية القديمة للبرزخ. ٦- تاريخ قناة البرزخ وحدود الخليج بالنسبة للبحر الأحمر فى مختلف العصور. ٧- نقد مختلف الأعمال والمشروعات المنجزة والمقترحة لوصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر. ٨- مشروع وصل البحرين من داخل مصر - المصروفات سبل التنفيذ والعائدات. ٩- مشروع الاتصال المباشر بين البحرين. المصروفات وسبل التنفيذ والعائدات، ملخص.

(21) F.E., Ms. 7.831/1.

(22) Lettre à Lambert de janvier 1847,

(23) F.E., Ms. 7.830, f° 18.

(24) (voir F.E., Ms. 7.830/38, f° 47).. أعلن أنفانتان الخبر لينجرللى فى ٨ يناير ١٨٤٨

(25) Lettre reproduite, s.d., in Notices historiques des (Oeuvres de Saint-Simon et Enfantin, t. XII, pp. 238-45.

(26) Lettre du 23 octobre 1855, F.E., Ms. 7.740/107.



فرمان محمد على بشأن رحلة السويس

7262, f 101.10,2475,47 Fonds Enfantin

Bibliothèque de l'Arsenal

فرمان محمد علي الخاص برحلة السويس :

كُتب الفرمان باللغة التركية العثمانية وحَمل ختم ديوان الباشا، وتعد هذه الوثيقة جواز مرور، وقد مُنحت للمسافرين الفرنسيين "بروسبير (أنفانتان)، ورينيه (هولستين)، وأنطوان (أوليفييه)، وشارك (دوجيه)، وألكسيس (بوتييه)، وتوماس (أوربان)، أي ستة أشخاص مسافرين معًا ". بتاريخ ٢٨ شعبان ١٢٤٩ (١٠ يناير ١٨٣٤) لفترة صلاحية شهر، وتضمّ هذه الوثيقة المرشد أيضًا، وتم توجيهها لحكام المقاطعات والولايات.

عندما قرر أنفانتان الابتعاد عن القاهرة لعدم إعاقة الخطوات التي يقوم بها فورنل لدى محمد علي، قرر السفر للتعرف على منطقة السويس، وكانت هذه طريقة أيضًا للإعلان الصريح عن نواياه، وقدم سليمان بك (سيف) الخيام والمواد والغذاء للبعثة، وتم تحديد يوم ١٠ يناير للسفر، وكان ذلك التاريخ موافقًا لغرة شهر رمضان. ووصل المسافرون إلى السويس بعد شهر كامل من هذا التاريخ، ونما إلى علمهم أن فورنل تخلى عن موضوع القناة. وعلى الفور عاد أنفانتان بعجالة وحده لمحاولة إعادة فورنل إلى الطريق الصواب. ووصف أوربان – الذي بقي مع الآخرين لزيارة الضواحي – حاكم السويس بأنه "عجوز تركي طيب وبريء ويحسن استقبال الأوروبيين". وتحدث مع السان سيمونيين عن بونابرت في البداية ثم عن كولان وألريك اللذين قابلهما منذ بضعة شهور، وأضاف أوربان: "وانتقل بعد ذلك إلى مسألة اللاهوت وهو يطلق ضحكات صاخبة بالطريقة التركية كذلك". وهكذا اقتصرت بعثة التعرف على النماذج البشرية والجوانب الجمالية الطبيعية للبلدة[1].

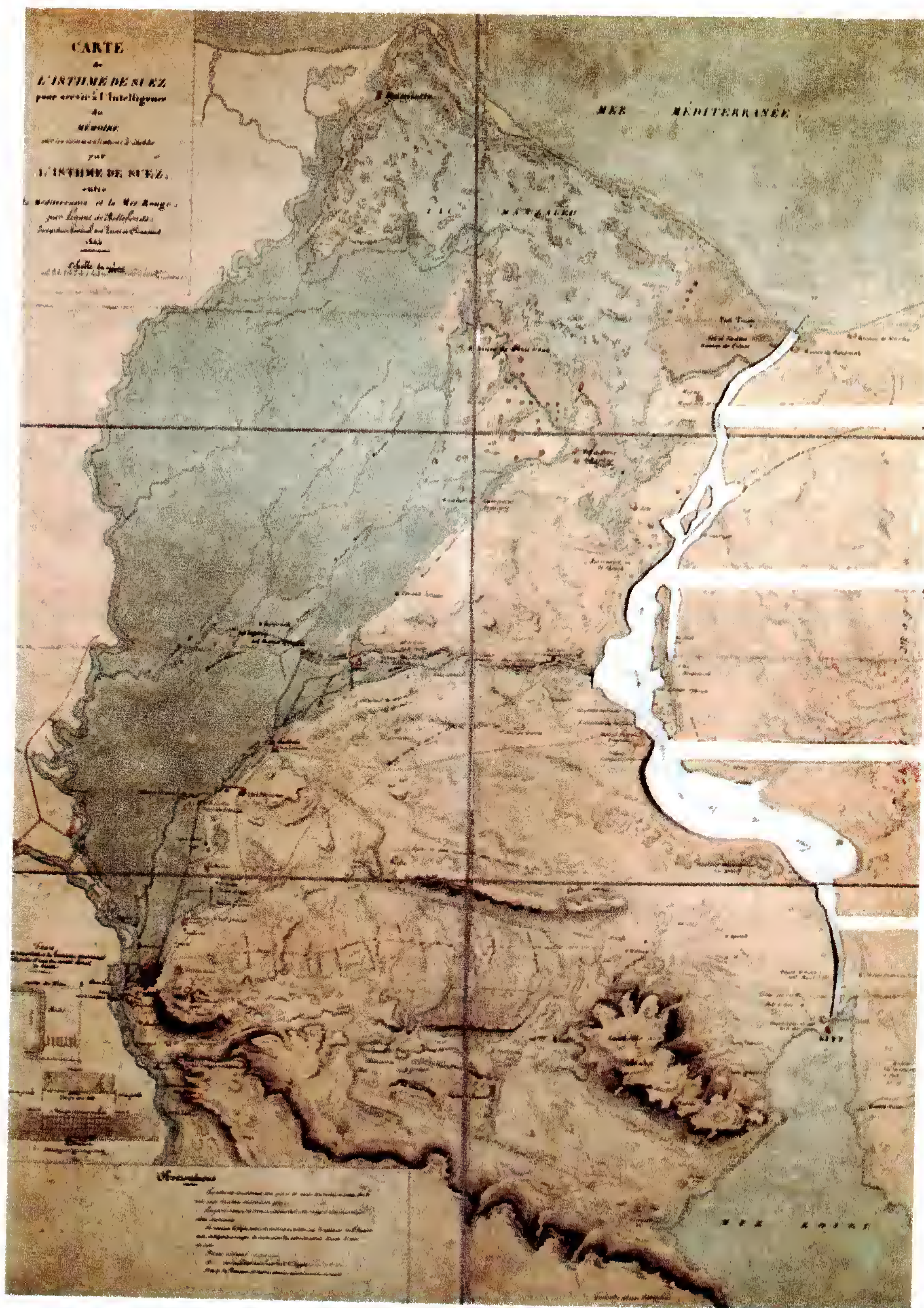
خريطة برزخ السويس لاستخدامها في الدراسة حول الاتصالات التي يجب أن يوفرها المضيق بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، رسم دي لينان بيلفون.

وهذه الخريطة، حيث يوجد لسان متحرك من الورق مقطوع يساعد على تمثيل أحد المسارات الممكنة للقناة، هي نتيجة قياسات الارتفاعات التي أجرتها لجنة مصر وملاحظات لينان الميدانية.

وتمثلت إحدى الفرضيات التي قدمها المهندس في الإقرار بالمسار غير المباشر الذي صممه لوبير. وربط لينان هذا الحل ببناء سد الدلتا وارتفاع المياه الذي يستتبعه أمام المشروع : ويستخدم السد الذي يتكون بهذه الطريقة كنقطة لتقسيم فرعَي القناة اللذين يتجه أحدهما نحو الإسكندرية والثاني نحو وادي طوميلات والبحر الأحمر. وافترض لينان امتلاء حوض البحيرات المرة بمياه النيل، مما يضمنه على هذا النحو إلى نوع من النهضة الزراعية في المنطقة. وكان يرى أن عمق المياه من المفترض أن يصل إلى ٣,٥٢ م في كافة الأوقات، وقال بضرورة بناء ستة أهوسة لتعويض المنحدر المفترض من ارتفاعات ١٧٩٩.

أما تالابو فكان يرى أن المستويات الحقيقية وفقًا لقياسات فريق عمل ١٨٤٧ ستعطي في الواقع عمق مياه غير كافٍ للقناة البحرية. كما نقد أيضًا موقع جلْب المياه (بالقرب من القاهرة) للفرع الشرقي، وفي رأيه أنه يطيل دون جدوى المجرى ويربط الملاحة بالصعوبات التي يمكن أن يمثلها مجرى النيل بين السد والقاهرة.

ويرى تالابو أن المسار المباشر – الذي اقترحه لوبير وفضّله لينان – "أكثر عقلانية وأعظم"، لأنه يخلق بطريقة اصطناعية "بوسفور جديدًا" ويوفر مشروعات كان من المفترض تنفيذها. فبعض الجسور في المناطق الأكثر انخفاضًا تؤدي إلى تجنب صب المياه المالحة في الدلتا. ووفقًا للينان فإن الميناء الذي ينفذ على البحر المتوسط والذي يحفره تيار القناة لن يحتاج سوى جسر لحمايته من الرواسب الساحلية للنيل(٢).



خريطة الخليج، السويس لاستخدامها في الدراسة حول الاتصالات التي يجب أن يوفرها المضيق بين البحرين المتوسط والأحمر.
إعداد : لينان دي بيلفون، مفتش عام الكباري والطرق – ١٨٤٤
0, 92×0, 67 Fonds Enfantin, Bibliothèque de lÁrsenal



Notice sur le Nivellement

PAR

BOURDALOUË,

Ingénieur Résident

des Chemins de Fer du Gard.

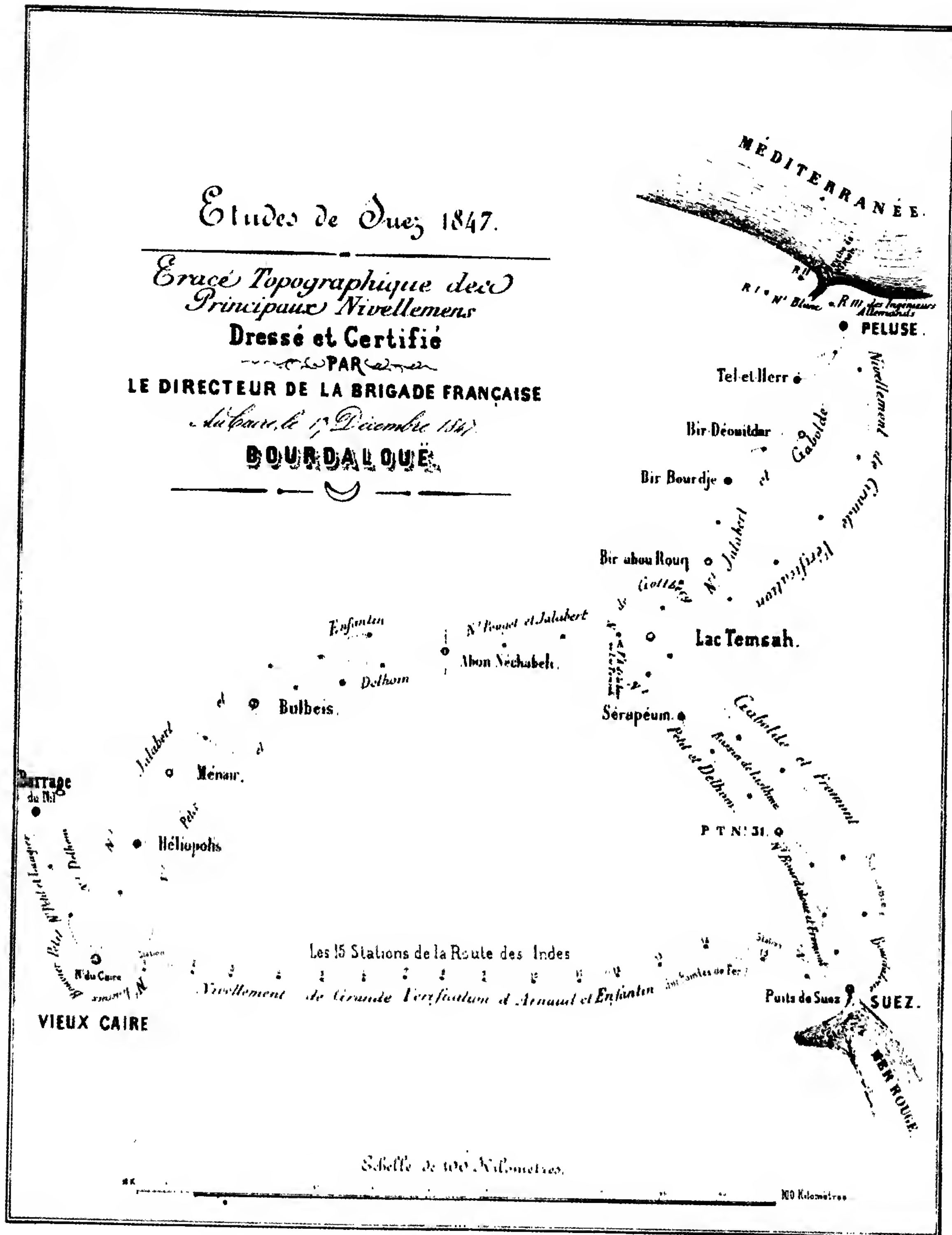
18.me Table de Repères.

ISTHME DE SUEZ ET BASSE EGYPTE.



ÉTUDES DE 1847.





التخطيط الطوبوغرافي للمناسيب الرئيسية التي رسمها واعتمدها مدير فريق العمل الفرنسي. Fo3vo من المذكرة حول المناسيب.

إعداد : بوردالو، المهندس المقيم للسكك الحديدية لدى جار.

Fonds Enfantin, Bibliothèque de l'Arsenal

المسار الطوبوغرافي للمناسيب الرئيسية التي رسمها واعتمدها مدير فريق العمل الفرنسي:

كان لابلاس **Laplace** وحده من بين علماء المعهد الذي شكك بصورة جادة في الاختلاف المثير للدهشة بين منسوب البحرين الذي أكده لوبير، وكان تالابو يعتقد من ثم أنه يتعين فقط الحصول على المزيد من التفاصيل.

ووصل فريق العمل الفرنسي الذي كان يقوده بوردالو **Bourdaloue** إلى القاهرة في ١٧ سبتمبر ١٨٤٧ وتم استقباله أفضل استقبال، ودعم الوالي البعثة بسخاء: موكب من ستين جنديًا وعشرة من البدو وثمانين جملاً واثنتين وثلاثين خيمة ... إلخ. وصرح للينان مدير عام الكباري والطرق في مصر وأربعة طلبة في المهندسخانة بمصر بالانضمام إلى فريق العمل. وتم التحقق الأخير في ٦ يناير ١٨٤٨. وعند مغادرة بوردالو البلاد سلم أرتين بك مساطر الارتفاعات المعدلة التي استخدمها لإيداعها بالأرشيفات، وذلك كدليل على عرفانه بالجميل. واستخدمها لينان بعد ذلك للقيام بالتحققات الخاصة به عام ١٨٥٣.

وكان آرتور **Arthur** ابن أنفانتان عضوًا في فريق العمل، وكان آرتور متمردًا على النظام التعليمي الفرنسي، وعهد به أنفانتان إلى لامبير ولينان عام ١٨٤٥؛ ليتعلم منهما الأشغال العامة بمدرسة بولاق وفي المواقع، وأيضًا اللغتين العربية والإنجليزية.

برزخ السويس (مسار تالابو)

بسبب عدم وجود أي اختلاف بين منسوب مياه البحر الأحمر والبحر المتوسط ومن ثم أمام انهيار الأمل في إحداث تيار قوي من البحر الأول نحو الثاني، رأى تالابو أنه من المستحيل التغلب على مشكلة الإبقاء على ممر وفتح ميناء في خليج تينة بسبب امتلائه بطمي النيل، وخلص إلى أن الأفضل هو الرجوع إلى ميناء الإسكندرية الذي يوفر كافة الشروط اللازمة.

واقترح تالابو من ثم اعتماد مسار غير مباشر يقطع النيل مرة واحدة. وتقع نقطة الفصل بين مصبَّي القناة على مدخل الدلتا، وسيتم الحصول على عمق المياه اللازمة إما بعد الانتهاء من بناء السد أو عن طريق قناة جسر.

ووفقًا لتالابو فإن المسار غير المباشر يتوافق بصورة أفضل مع مصالح المصريين، وكان يتوقع حتى بطريقة غريبة "معارضة متعنتة من جانب الحكومة المصرية لأي مسار من شأنه إبعاد حفر هذا الطريق الملاحي الهام عن أرض البلاد والذي لا يربط بين عاصمة مصر وميناءها الوحيد على البحر المتوسط والملاحة في النيل[٣].

بولان تالابو :

لم يكن بولان تالابو (١٧٩٩ – ١٨٨٥) سان سمونيًا مناضلاً قَطُّ مثل أخيه الصغير أدمون الذي توفي في منلمونتان ولكنه كان يجسد الاتجاه الصناعي للحركة.

كان بولان تالابو مهندسًا من مدرسة الهندسة العليا(دفعة ١٨١٩) وكان طالبًا بمدرسة الكباري والطرق. وأدار مناجم لاجران كومب **Grand Combe** (بإقليم جار **Gard**)، وصمم ثم أدار بناء السكة الحديد التي تربط مناجم الفحم الحجري بالبحر المتوسط. وكان مهندسًا وإداريًا متمكنًا، واحتل منصب مدير عام شركة سكك حديد باريس في ليون والبحر المتوسط. وخلال الصراع العنيف بين الأخوين بيريير **Péreire** والأخوين روتشيلد **Rothschild** وقف إلى جانب الأخيرين وتقاسم معهما ثمرة انتصارهما شأنه شأن أنفانتان الذي ساعده في الدخول إلى عالم الأعمال.

وبعد إقصائهما هما الاثنين من الشركة العالمية التي أسسها ديليسبس عاد تالابو إلى الجزائر ساعيا إلى استخدام مناجم فحم دي جار ومنجم الحديد الجزائري لإنشاء مصنع حديد وصلب ضخم بالقرب من بون، بيد أن هذا المشروع المتوسطي فشل أمام أساطين مسابك كروزو.

آرليس دوفور:

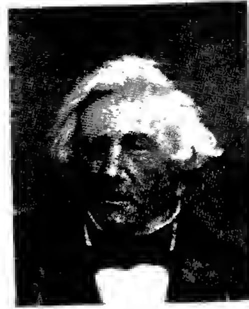
فرنسوا بارتيليمي آرليس (١٧٩٧ – ١٨٧٠) بروتستانتي الأصل، كان والده يعمل ضابط صف بالجيش الإيطالي، وترقى فرنسوا سريعًا بفضل قدراته الشخصية في مؤسسة دوفور التجارية في باريس والمتخصصة في مجال النسيج. وعند زواجه من الآنسة دوفور تولى إدارة فرع ليون، ثم أسس مؤسسته التجارية الخاصة في ذات المدينة. وأفلس عام ١٨٣٧ بسبب الأزمة القادمة من الولايات المتحدة، ولكن سرعان ما استعاد ثروته من خلال العمل في مجال الأقمشة الحريرية، ثم مد نشاطه إلى السكك الحديدية (خطوط أورليان – باريس، وباريس – ليون – مارسيليا)، وأكسبته سمعته بالنزاهة التامة فضلاً عن نجاحاته وقوته المالية تأثيرًا كبيرًا في غرفة تجارة ليون، واستقر في أولان، وطبق فيها تجربة لصالح العاملين وأنشأ مدرسة خاصة ومكتبة.

وترجع صداقته مع أنفانتان إلى عام ١٨١٤، عندما كان طالبًا بمدرسة الهندسة العليا وشارك في الدفاع عن باريس. وأصبح الرجلان رحالين تجاريين أحدهما في مجال تجارة النبيذ والآخر في مجال تجارة الحرير والتقيا في ألمانيا على طاولة مضيف، ولم تتوقف منذ ذلك التاريخ علاقاتهما. ودون أن ينضم آرليس

رسمياً إلى حركة السان سيمونية قدم لكافة مشروعات أنفانتان دعمه من مال وعلاقات، وقام بدور الوساطة بصفة خاصة حتى يقرأ لويس فيليب وحاشيته وكذلك لامارتين مراسلات أنفانتان المصرية، ثم للحصول على تعيينه في اللجنة العلمية للجزائر أو ليعهد إليه بمفاوضات دمج شركات السكك الحديدية. كما دعم بأموال لا تُرد جريدتي الجزائر **l'Algérie** ولوكريدي **Crédit** اللتين أسسهما أنفانتان لدعم أفكاره.

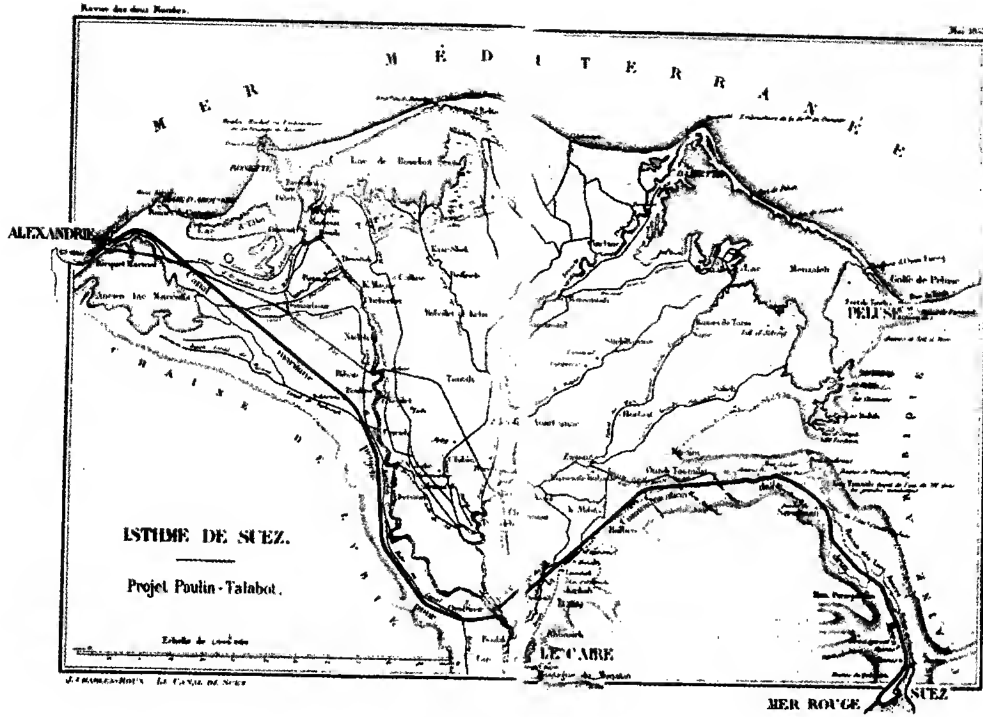
وفي عام ١٨٥٥ دفعه تعيينه في منصب أمين عام معرض باريس الدولى(٥) إلي القيام بأنشطة متعددة.





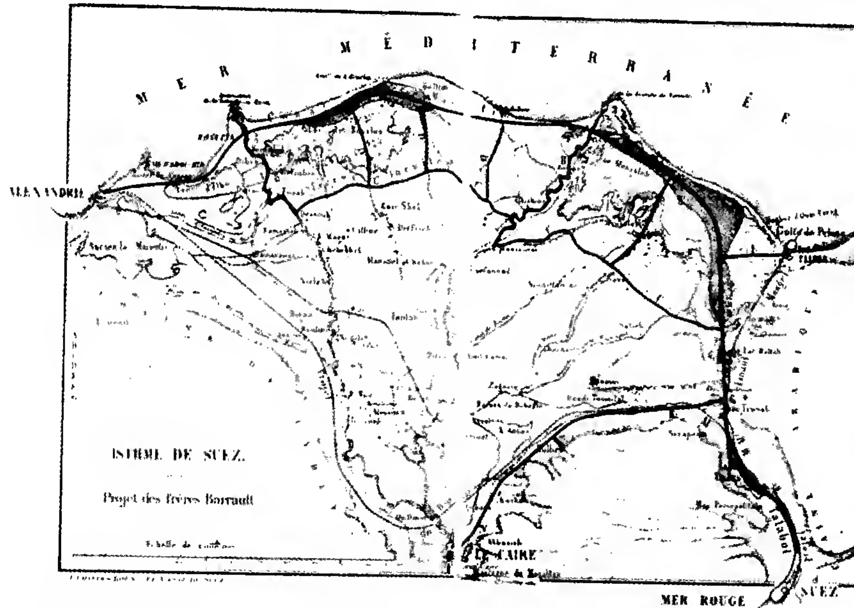
١- بولان تالابو – صورة منسوخة عن جي شارل – رو – مضيق وقناة السويس – ج ١ – ص٢٢٣ نائبًا عن آليه (١٨٦٣ – ١٨٧٠) عمل في لجنة الجزائر لصالح الانتقال إلى الإدارة المدنية(٤).

٢- آرليس دوفور – صورة منسوخة عن جي – شارل – رو – مضيق وقناة السويس – ج١ – ص ٢١٩.



ج. شارل- رو- قناة السويس

برزخ السويس (تخطيط تالابو) خريطة نشرت بعد مقال ب. تالابو حول "قناة السويس"، مجلة روفو دي دو موند عدد الأول من مايو ١٨٥٥ – أعاد رسمها شارل رو – برزخ وقناة السويس – الجزء الأول.



قناة السويس – مشروع الأخوين بارو – خريطة منشورة في "سياسة قناة السويس – مسائل تقنية واقتصادية" – باريس ١٨٥٦.
نسخة محفوظة بمكتبة الأرسنال تحت كود F.E 538.
وثيقة نسخها جي – شارل – رو – مضيق وقناة السويس – المجلد ١ خارج الترقيم.



برزخ السويس مع تخطيط القنوات التي وافق عليها صاحب الجلالة والي مصر لربط البحرين الأحمر والمتوسط وربط النيل ببحيرة التمساح كما قررت اللجنة الدولية عام ١٨٥٧.

خريطة أدرجت في "حفر قناة السويس، عرض ووثائق رسمية" تأليف فردينان ديليسبس – باريس – ١٨٥٥ – نسخها جي – شارل – رو – مضيق وقناة السويس – خارج الترقيم.

قناة السويس. مشروع الأخوين بارو Barrault

يعد مشروع إيميل بارو وأخيه ألكسيس وهو مهندس بالمدرسة المركزية استكمالاً لدراسة نشرت في مجلة "La Revue des Deux Mondes" في الأول من يناير عام ١٨٥٦، وانبثق هذا المشروع من مبادرة المؤلفَيْن فقط، ويقبل كأمر مفروغ منه النتيجة التي توصل إليها تالابو باستحالة إقامة ميناء عميق في خليج تينة. ومع ذلك يتجنب مسار الأخوين بارو عبور الجزء الخاص بوسط مصر السفلى، بمسار طريق يقطع فرعي النيل بالقرب من ساحل البحر المتوسط الذي يتبعه بصورة موازية للوصول إلى الإسكندرية، وسوف يغذي النيل هذه القناة ويعمل "كأداة للتخصيب".

وكان عرض الموضوع يجعل من اختيار المسار غير المباشر نقطة فلسفة سياسية.

"تعبر سياسة المسار المباشر عن حدود لحيادية القناة والبرزخ وتمام السيادة في مصر أي استقلال شروط الأمن في أوروبا التجارية ومزايا القوة المجاورة؛ ومن ثم فهي سياسة أنانية وسياسة تحدٍّ وعداءٍ نابعة من منظومة الأحادية والعزلة.

وتعبر سياسة المسار غير المباشر عن امتداد الحياد إلى كل الدولة التي ستُحفر فيها القناة وممارسة محدودة لسيادة الأمير بمعنى وجود علاقة بين المزايا التي تتمتع بها الحكومة المحلية وحصانات الملاحة الأوروبية. ومن ثم فهي سياسة تنسيق وضمان متبادل وسلام نابعة من منظومة التضامن".

ويهدف هذا النسق من التفكير بالتأكيد إلى نمو مصر، ولكن بصورة كمالية لانطلاق التجارة الأوروبية ومقابل "تحييد" يشبه إلى حد بعيد الوضع تحت الوصاية.

ويبرز مشروع الأخوين بارو – على العكس – كيف يدخل خيار سعيد باشا في إطار سياسة استقلال والده محمد علي. وعلى أية حال لم يفت بارو ملاحظة أن المسار المباشر يحافظ على ميناء الإسكندرية الحربي وأن فرمان الامتياز يُبقي على إمكانية وجود تحصينات تهدف بصورة واضحة إلى إعطاء القناة وظيفة دفاعية في مواجهة الإمبراطورية العثمانية"(٦).

أكد ف. ديليسبس في عرضه الاستهلالي لكتابه "حفر برزخ السويس" أنه لم يتلقَّ من أى جهة أي تكليف" عندما دعاه محمد سعيد بعد وصوله إلى الحكم.

ولم يُنطْ به أي مهمة إلا بعد صدور فرمان ٣٠ نوفمبر ١٩٥٤ الذى خوّله "السلطة الحصرية لتأسيس شركة تضم أصحاب رأس المال من كافة البلدان (...) تحمل اسم "الشركة العالمية لقناة السويس"، ومن ثم حمل ديليسبس بصحبة لينان وموجل مهمة جديدة لاستكشاف الميدان، وبناءً على تعليمات صدرت في ١٥ يناير ١٨٥٥ أعلن عن تأييده للمسار المباشر الذي قدمه المهندسان.

وفي التمهيد للمشروع الذي قدمه لينان وموجل أشادا بالأعمال التي أنجزتها شركة الدراسات عام ١٨٤٧، ولكن أثبتا – وذلك خلافًا لتالابو ولتقليد لم يناقش ويرجع إلى قرار الإسكندر بإقامة ميناء مصر الكبير بعيدًا عن مصب النيل – أن رواسب الخليج لا تأتي من النهر ومن ثم ليست من الطمي ويمكنها أن تتحمل تمامًا الأعمال اللازمة لتهيئة ميناء في المياه العميقة(٧).



الخديوِ إسماعيل خديوِ مصر – برونز مفضض لكوردبييه
ارتفاع القاعدة: ٠,٥٠ م – صورة خاصة

وكان إسماعيل باشا حفيد محمد علي من ابنه إبراهيم باشا، وخلف إسماعيل باشا عمَّه سعيد باشا بعد وفاته عام ١٨٦٣، ودفع بطريقة أقوى من عمه سياسة تحديث محمد علي. وافتتح ببذخ قناة السويس عام ١٨٦٩. ولكن بعد مرور عشر سنوات وبعد فترة قصيرة من مظاهرة قام بها ضباط مصريون من بينهم من سيصبح فيما بعد عرابي باشا، دفع من خلعه – الذي ألزمته به الدول الأوروبية – ثمن مديونية ثقيلة وكذلك ثمن استقلال وتنمية اقتصادية وعسكرية ربما تفسر تعجل الباب للإذعان للأوامر الأوروبية.

وبمناسبة المعرض الدولي لباريس عام ١٩٦٧، ساد التمثال النصفي الذي نفذه كورديبه **Cordier** على "الركن المصري" لهذه المظاهرة. ولخصت ثلاثة مبانٍ مقامة على الشان دي مارس **Champ de Mars** تاريخ مصر: نموذج لمعبد فيلة يتم دخوله عبر "طريق على جانبيه تماثيل أبى الهول"؛ وسلاملك وعكـل (النـسخة المصرية من خان القوافل)، فضلاً عن محلات عدة لحرفيين يعملون على مرأى من الجمهور. وكان جـزء من هذا الفضاء المصري مخصصًا "لأشياء معروضة بهدف تحسين الظروف الماديـة والنفـسية للـشعب". وتمثلت الفكرة الرئيسية في إظهار أنه "تم اختيار مصر خصيصًا لتُعلِّم باقي الشرق الحضارة الحديثة"(٨).

وكان شارل أدمون "المفوض العام لمعرض والي مصر" ومؤلف الكتالوج المصري صحفيًا برودونيًـا لجأ إلى مصر هربًا من اضطهاد الشرطة له. وكان ألكسندر ماسول **Alexandre Massol** "الفنان السابق" لعام ١٨٣٣ هو الذي أوصى به لشارل لامبير(٩).

الهوامش

(١) نحن ندين للسيدة جيلين آلوم بترجمة الفرمان F.E., Ms. 13.736, *Voyage d'Orient,* quatrième cahier, p. 44 et suiv.

(٢) انظر تحليل لينان للمشروعات فى مقال ......؟

P. Talabot, *"Canal de Suez", Revue des Deux Mondes*, 1er mai 1855.

(٣) استشهادات مقتبسة من المقال الذى رافق الخريطة.

(4) Sources: Ernouf, *Paulin Talabot, sa vie, son oeuvre,* Paris, 1886 ; A. Rey-Goldzeiguer, *Le royaume arabe, la politique algérienne de Napoléon III*, S.N.E.D, Alger, 1977.

(5) Sources: *Arlès-Dufour,* Paris, 1874, par C[ésar] L[habitant], F.E. 664; Fonds Petit de l'Arsenal, Ms. 15031/932; F.E., Mss. 7.682 et 7.684, passim.

(٦) استشهادات مقتبسة من المقال الذى رافق الخريطة.

(٧) نجد الاستشهادات والوثائق الكاملة فى الكتاب المذكور لفردينان ديليسبس (exemplaire du Fonds Enfantin sous la cote F.E. 538).

(8) *L'Egypte à L'Exposition Universelle de 1867,* Paris, Dentu, 1867, 383 p. in 4°.

(٩) انظر الهامش رقم ٥٥ من الفصل الخامس.

التسلسل الزمني للأحداث

وضِعَ هذا التسلسل الزمني من واقع أرشيف السان سيمونيين. ويقتصر هذا التسلسل الزمني بشكل مقصود على الأحداث المتصلة بوجود السان سيمونيين على أرض مصر.

١٨٣٣

٢٧ يناير: نبوءة بارو بظهور المرأة – المسيح هذا العام في الشرق.

٢٩ يناير: منذ سجنه في سانت بيلاجي (Sainte-Pélagie)، حدد أنفانتان تاريخ ٢٢ مارس لرحيل بعثة الشرق التي شكلها بارو.

٢٤ فبراير: كيول يعلن في طولون بعثته القادمة إلى مصر.

٢٢ مارس: إبحار مجموعة "رفاق المرأة" من ميناء مارسيليا على متن الكلوريند (la Clorinde)، وهم: بارو وريجو وتوشيه وتورنو وداڤيد ودوشارم وبراكس وجرانال وكونيا وألريك وچان وكارولوس وأوربان.

٧ إبريل: إبحار كل من كيول وبانونتيه وجارمان وفليشي من ميناء مارسيليا على متن البولاكو (le Polacco) باتجاه الإسكندرية.

١٥ إبريل: وصول فريق بارو إلى القسطنطينية.

١٩ إبريل: دعوة السان سيمونيين إلى الحضور لرؤية السلطان وهو ذاهب للصلاة. تم القبض عليهم في العشرين من إبريل، ثم ترحيلهم في الثالث والعشرين من الشهر نفسه.

٣٠ إبريل: نزول فريق كيول إلى الإسكندرية.

٢ مايو: أول محاولة لفريق كيول للحصول على موعد لمقابلة من محمد علي.

٣ مايو: وصول فريق بارو إلى ميناء أزمير.

٤ مايو: مقابلة كيول ورفاقه للباشا في أسطول الإسكندرية وتحيته.

١١ مايو: المؤتمر الأول الذي عقده كيول بالإسكندرية.

١٤ مايو: مغادرة كل من بارو وتورنو وتوشيه ودوشارم وريجو وأوربان على متن الإكسلون (l'Excellent) إلى الإسكندرية.

١٧ مايو: المؤتمر الثاني الذي عقده كيول بالإسكندرية.

٢٤ مايو: وصول الإكسلون ميناء الإسكندرية. استقبال فريق كيول للرفاق.

٢٩ مايو: الاجتماع الشعبي الأول لبارو بالإسكندرية.

١ يونيو: الاجتماع الشعبي الثاني لبارو بالإسكندرية.

٩ يونيو: مغادرة كل من بارو وتوشيه مجددًا إلى أزمير. إرسال بارو أمرًا إلى كونيا وجرانال للسفر إلى سوريا.

٢٨ يونيو: رحيل كل من أوربان ودوشارم إلى سوريا.

٢ يوليو: وصول أوربان ودوشارم بيروت.

٤ يوليو: مقابلة أوربان ودوشارم لكونيا وجرانال اللذين نزلا ضيفًا على السيدة ستانهوب، والتي استقبلتهما أيضًا.

٦ يوليو: زيارة لبنان.

١٢ يوليو: العودة إلى السيدة ستانهوب.

١٤ يوليو: الرحيل باتجاه صيدا.

٢٠ يوليو: رحيل جرانال ودوشارم متجهيْن إلى قبرص.

٢٨ يوليو: مقابلة كونيا وأوربان لسليمان بك (الكولونيل سيف). وفي اليوم التالي، يدعوهما لزيارته بعد شهر في القاهرة.

٣١ يوليو: العفو عن أنفانتان بمناسبة ذكرى الثلاث السنوات المجيدة، وخروجه من السجن.

٥ أغسطس: رحيل كونيا وأوربان باتجاه قبرص.

٧ أغسطس: مُغادرة كل من ماشرو وكولان وشاربان وروبول وماريشال وتاميزيه ولامي وكومب وديتار من ميناء مارسيليا على متن التليجراف. بعد بضعة أيام يغادر روچيه وماسول إلى الجزائر (التي عادا منها في الشهر التالي).

١٠ أغسطس: وصول كونيا وأوربان إلى قبرص ولقاؤهما بجرانال.

١٣ أغسطس: مغادرة قبرص إلى الإسكندرية.

٢٤ أغسطس: وصول أوربان وكونيا إلى الإسكندرية حيث انضم لهما لاحقًا ماشـرو. وصـول كـل مـن ماريشال وروبول ولامي وكولان وتاميزيه وكومب وشاربان وديتار في الثلاثين من شهر أغسطس.

١٩ سبتمبر: سفر شارل دوجيه، على متن الإيجيبسيان (**L'Egyptien**)، إلى الإسكندرية للتحضير لوصـول أنفانتان.

٢٣ سبتمبر: سفر كل من أنفانتان وأوليشتين وفورنل ولامبير وأوليـفيه وبتى من ميناء مارسيليا مُتجهين إلى الإسكندرية على متن برانسيب إيريديتاريو (**Principe Ereditario**).

٢٤ سبتمبر: وصول بارو من أزمير مرورًا بقبرص والقدس وحيفا برفقة داڤيد وجرانال.

٧ أكتوبر: الحفل الثاني الذي نظَّمه السان سيمونيون بالإسكندرية (حيث جرى الحفل الأول في بداية الشهر).

٨ أكتوبر: مغادرة أوربان وكونيا إلى القاهرة بناءً على طلب سليمان بك.

١٣ أكتوبر: وصول أوربان وكونيا إلى القاهرة ولقاؤهما بكولان وألريك قادمَيْن من الـسويس، حيـث تـم إرسالهما للاستطلاع في الأيام التالية، وقاما بسياحة في القاهرة في أبى زعبل والخانكة. ثـم زارا مدرسـة الطب (مديرها كلوت بك) ومدرسة الطب البيطري (مديرها أمون).

٢٣ أكتوبر: وصول أنفانتان وفريقه إلى الإسكندرية.

١ نوفمبر: مغادرة أنفانتان الإسكندرية مُتجهًا إلى القاهرة.

٤ نوفمبر: تقديم فورنل إلى بوغوص بك.

٨ نوفمبر: بعد لقاء كل من ريجو وتوشيه وتورنو (بعد الرجوع من الشرق) مع سيسيل فورنـل وكلوريـند روجيه، سافرت تلك المجموعة الأخيرة برفقة توشيه من مارسيليا على متن الماريا (la Maria).

١١ نوفمبر: وصول كل من داڤيد ولامي وروبول وتاميزيه وكومب إلى القاهرة.

١٢ نوفمبر: وصول أنفانتان إلى القاهرة لدى سليمان بك.

١٦ نوفمبر: استلام دوجيه وسونيرا وأوربان من أنفانتان مهمة التعرف على بداية طريق السويس عن طريق الصحراء.

١٩ نوفمبر: المؤتمر الأول لبارو بالإسكندرية حول الفن (نشر تقرير عنه في المونيتور الإيچيبسيان في ٢٦ نوفمبر).

٣٠ نوفمبر: وصول دوجيه وسونيرا وأوربان إلى البحيرات.

٥ ديسمبر: العودة الى القاهرة وتقديم تقرير إلى أنفانتان.

٢٢ ديسمبر: رحيل بارو.

٢٩ ديسمبر: وصول فورنل إلى القاهرة.

١٨٣٤

١٠ يناير: رحيل كل من أنفانتان وأولشتين وأوليـڤيه ودوجيه وبتى وأوربان إلى السويس. قاموا باستراحة طويلة عند بحيرة التمساح.

١٣ و١٥ يناير: مُحادثات فورنل مع محمد علي حول مشروعاته للأشغال العامة.

٢٤ يناير: القنصل ميمو يُسلِّم مُذكرة إلى الباشا من قِبل فورنل بخصوص مشروع السكة الحديد الذي يمتد من السويس إلى القاهرة.

٢٨ و٢٩ يناير: مناقشة داخل المجلس الأعلى للقلعة حول موضوع السد.

٣٠ يناير: فورنل يطلب من ميمو التدخل لتعيينه مهندسًا لمناجم سوريا.

٣١ يناير: الجلسة الثالثة للمجلس الأعلى حول السد.

٣ فبراير: قرار الباشا ببناء السد وبتكليف لينان بتلك المسئولية.

٩ فبراير: فريق أنفانتان يغادر بحيرة التمساح مُتجهًا إلى السويس.

١١ فبراير: الوصول إلى السويس. خبر تخلى فورنيل. قرار أنفانتان بالعودة فورًا إلى القاهرة. بقاء باقي الفريق في موقعه.

٥ مارس: عودة أوليـڤييه وبتى وأوربان إلى القاهرة وسكنهم بحى الأزبكية ... إلخ.

٢٢ مارس: دوجيه وبتى يغادران القاهرة مُتجهَيْن إلى فرنسا في ذات الوقت مع هنري وسيسيل فورنل. يتولى الرجلان مهمة جلب مهندسين لبناء سد النيل، وصولهما إلى مارسيليا في الرابع من الشهر التالي.

٥ مايو: تعيين لينان رئيسًا للمهندسين، مع حصوله على الوسام المُترتب على ذلك.

٩ مايو: نزول أنفانتان ولامبير إلى موقع السد. تعيين سُليمان بك مفتشًا عامًا على المدارس وحصوله على رتبة لواء ومنحه لقب باشا.

١٢ يوليو: سفر كل من أوار وبرونو إلى مصر على متن الأونوراتا.

١٦ يوليو: أوربان يترك عائلة دوساب حيث كان يقطن لديهما منذ ٣٠ إبريل للالتحاق بوظيفته كمدرس لغة فرنسية بالمدرسة الحربية في دمياط.

٢١ يوليو: بدء المناقشات حول مشروع لائحة مدرسة المهندسخانة.

١٥ أغسطس: حفل أُقيم في موقع السد نظَّمه أنفانتان على شرف عيد ميلاد نابليون الأول، وشارك في الحفل كل من مختار بك وأدهم بك وسليمان باشا وفردينان ديليسبس (نائب قنصل فرنسا)، وفي غضون ذلك التاريخ وصل إلى أوربان- وهو في دمياط - نبأ وفاة حليمة دوساب.

٢٠ أغسطس: مغادرة أوار وبرونو وفوركاد الإسكندرية متجهين مباشرة إلى موقع السد.

١٣ نوفمبر: سفر سوزان ڤوالكان من مارسيليا على متن الميلناريز، وذلك بصحبة درووه وجوندريه وماسول وروچيه.

٢٠ نوفمبر: سفر بارو إلى فرنسا.

ديسمبر: توافد المتطوعين إلى موقع السد ومنهم: بيس وچينوڤوا ولوفاڤر وڤيلارسو وآشار وچالا.

٧ ديسمبر: استقبال فردينان ديليسبس لسوزان ڤوالكان ورفاقها بالإسكندرية.

١٨٣٥

١١ يناير: حفل استقبال لدى سليمان باشا على شرف المارشال مارمون.

١٢ يناير: بدء عمل كل من لامبير وأوار في الرسوم الهندسية تقدير التكاليف لمشروع السد.

٣ فبراير: تعيين لامبير مديرًا لمدرسة المناجم.

١٣ فبراير: عرض لامبير لحساب تكاليف السد.

٢٠ فبراير: وفاة فوركاد مدير مستشفى أبي زعبل إثر إصابته بالطاعون.

٢٤ فبراير: مغادرة كل من لامبير ولوفاڤر وماسول في رحلة استكشافية إلى صعيد مصر بتكليف من الباشا وخروج أنفانتان أيضًا في رحلة.

٢ إبريل: توقف أنفانتان بالكرنك، حيث مكث عدة أشهر لتعلم اللغة العربية والصيد. لم يعد أنفانتان إلى القاهرة إلا في سبتمبر.

٩ إبريل: وفاة ألريك إثر إصابته بالطاعون في أبى زعبل.

١٤ إبريل: وفاة هانم دوساب إثر إصابتها بوباء الطاعون.

١٦ إبريل: وصول لامبير ولوفيڤر وماسول إلى شلالات النيل.

٢٩ إبريل: قرار أوربان في أثناء وجوده في دمياط، باعتناق الإسلام.

٣ مايو: وفاة الدكتور دوساب.

٨ مايو: دخول أوربان في الإسلام.

٢٤ مايو: وفاة ماريشال متأثرًا بالطاعون بالقاهرة في مستشفى الأزبكية بعد ١٩ يومًا من المرض.

١٧ يونيو: وفاة دومولار إثر إصابته بالطاعون في موقع السد.

١٠ سبتمبر: دخول براكس في الإسلام عند وصوله إلى مكة.

١٤ سبتمبر: أوربان يُقدِّم استقالته إلى الكولونيل مدير مدرسة دمياط.

٥ أكتوبر: عودة ألكسيس بتى إلى مصر بصحبة المهندس الزراعي بوسكو.

١٢ أكتوبر: وفاة هوارت مُصابًا بالطاعون في موقع السد.

١٨٣٦

٣٠ يناير: أنجيليك چاڤاري تلد إسماعيل بروسبار چاڤاري.

٨ فبراير: احتفال اثنين وعشرين من السان سيمونيين في القاهرة بعيد ميلاد أنفانتان بالرقص وتعاطى الحشيش.

١٥ مارس: أوربان يغادر الإسكندرية على متن السيزار.

٢٣ إبريل: تعيين برونو مديرًا للتعليم الحربي بمدرسة طرة.

٩ مايو: وفاة أوليڤييه بالإسكندرية إثر إصابة قديمة بالسل.

١٩ مايو: سوزان ڤوالكان تلد ألفريد شارل بروسبار، الذي يُسجَّل في القنصلية تحت اسم عائلة أمه مونييه. يتوفى الطفل في الرابع من يونيو التالي.

١٧ سبتمبر: سفر سوزان ڤوالكان وچوديث جريجوار وكارولين كاربونيل من الإسكندرية في اتجاه فرنسا على متن البنيلوب (**la Pénélope**).

٦ أكتوبر: ولادة ألين بروسبار بنيلوب جريجوار في البحر، الطفلة غير الشرعية لكل من چوديث جريجوار وشارل لامبير.

٣١ أكتوبر: مغادرة أنفانتان مصر بصحبة دوجيه. بقى في القاهرة كل من: برونو وچاڤاري وزوجته ولامبير وماشرو وبورون وروبول، فضلاً عن لينان والذي توطدت علاقاته بالسان سيمونيين. وظل في الإسكندرية كل من: كولان وجوندريه وچيانين. أما براكس فقد سافر إلى الحجاز. فيما يتعلق بأراجو وسونيرا فكانا في سوريا، وشاربان وكلارا وكاربونيل في كاندي.

١٨٣٧

١٣ فبراير: تجديد انتداب لينان للسد.

٢ مارس: مشروع إنشاء مدرسة طُرة.

٧ مارس: إبراهيم باشا يستأنف الأعمال في السد.

١٣–١٨ مايو: مناقشة اللجنة برنامج مدرسة المهندسخانة.

١٨٣٨

٢٨ يوليو: إغلاق موقع السد.

في نهاية العام: تعيين لامبير مديرًا لمدرسة المهندسخانة.

١٨٣٩

٧ أغسطس: تثبيت لامبير في مهام وظيفته كمدير لمدرسة المهندسخانة.

١٤ سبتمبر: تعيين بيرون مديرًا لمدرسة الطب.

١٨٤٠

في بداية العام: تعيين لامبير مديرًا لمَرْصَد القاهرة الذي أنشأه من خلال معمل مدرسة المهندسخانة.

١٨٤٥

أنفانتان يطلق مجددًا مشروعه لقناة السويس مع كل من لامبير ولينان. مهمة استكشافية للامبير في فصائل وكردفان.

أغسطس: منح كل من بهجت ولينان ومظهر لقب بك.

١٨٤٦

٢٧ نوفمبر: إنشاء شركة دراسات قناة السويس، وذلك في منزل أنفانتان الباريسي بشارع لافيكتوار.

١٨٤٧

٢٨ إبريل: القنصل بنيديتي يُخبر الوزير جيزو بمنح لامبير حديثًا لقب بك.

١٧ مايو: وصول لامبير بك إلى مارسيليا في مهمة علمية وفنية قادته إلى السفر إلى فرنسا ومصر. عـودة لامبير إلى مصر في ربيع العام التالي.

سبتمبر: وصول فريق عمل شركة الدراسات يقوده بوردالو (ويضم برونو وابن أنفانتان).

١٨٥٠

٢ مايو: تجريد عباس باشا لامبير من معظم وظائفه، فيما عدا لجنة العملة.

١٨٥١

في بداية العام: حصول لامبير على لقب باشا ورفعه إلى مرتبة جنرال وحصوله على تصريح بالسفر نهائيًـا إلى فرنسا بنصف راتب.

بخلاف بورون وماشرو ظلت السان سيمونية مُمثلة- بدرجات متفاوتة- من خلال لينان وأنصارها المصريين ومنهم عبد الرحمن رشدي وخاصةً أدهم باشا.

قائمة السان سيمونيين في مصر(١)

إن قائمة السان سيمونيين في مصر التي وردت في المؤلَّف لكلاسيكي لجون ماري كاريه (J.-M. Carré) وفقًا لشارلتي هي نفسها التي أوردها أنفانتان في ختام الخُطبة الافتتاحية التي ألقاها عند تأسيس شركة دراسات قناة السويس، وذلك في ٢٧ نوفمبر ١٨٤٦ (F.E., 7830/1). وقد تراءى لنا من الضروري تصويبها واستكمالها في العديد من النقاط؛ حيث نضيف لها الأنصار المصريين للسان سيمونيين والذين ورد ذكرهم آنفًا.

نذكر الأسماء (والاسم الشخصي، في حالة العثور عليه) ثم نتبعها بالمعلومات التي من شأنها تحديد الشخصيات. ويجب أن ندرك أنه قد تعذر علينا ذكر المصادر، حيث إن المراجع قد تحتل مساحة أكبر بكثير من تلك التي تشغلها القائمة نفسها. ولكن سوف يتمكن الباحثون المهتمون بالأمر من الاطلاع على ملف السِّيَر الشخصية (البيوجرافية) الذي قمنا بوضعه في مكتبة الأرسنال.

آشار (Achard)

رسَّام وصل في ديسمبر ١٨٣٤، مدرس رسم في أبى زعبل في ١٨٣٥، قدَّم استقالته في بداية شهر سبتمبر عام ١٨٣٥،وغادر مُجددًا في نهاية العام.

ألكسندر (Alexandre)

ميكانيكي عَمِل في السد،وتوفى إثر إصابته بالطاعون في موقع العمل.

ألريك (هنري، فريدريك) (Alric)

مثَّال من ستراسبورج وُلِد في ٢٣ من ديسمبر ١٨٠٤، ووصل إلى مصر في سبتمبر ١٨٨٣، وتوفى مُصابًا بالطاعون في ٩ إبريل ١٨٣٤ بأبى زعبل. وهو صاحب تمثال نصفي لمحمد علي، ومدرس رسم بمدرسة الفروسية بالجيزة منذ مايو ١٨٣٤ ثم بأبى زعبل، وقد أسس مع كونيا مصنع زخارف من الكرتون المقوى(٢).

أراجو (أنطوان) (Arago)

قائمقام في فرقاطة وصل في عام ١٨٣٥، وهو قائد أركان حرب لسليمان باشا ومهندس في خدمة محمد علي حتى ١٨٤٨ على أقل تقدير، وهو ابنُ أخى العالِم فرنسوا أراجو والسيدة السان سيمونية أجلاييه سانت إيلار، وقد شغل منصب عمدة مدينة إستاچيل (بيرينيه أورينتال) في نهاية حياته.

(١) تم الالتزام في ترتيب أسماء السان سيمونيين هنا بالترتيب الهجائى للقائمة الفرنسية الواردة في الكتاب الأصلي (المترجم) .
(٢) مقوًى مؤلف من الكرتون والطبشور والجلاتين والزيت، وهو قابل لاتخاذ أشكال مختلفة ويصبح صلبًا بعد الاستعمال.

أوبير (بوسكو) (Aubert)

طبيب جمهوري، ولاجئ سياسي إلى الإسكندرية ضُمَّ إلى السان سيمونية.

بارو (إميل) (Barrault)

أستاذ أدب وصحفي ورجل سياسة. وُلِد في ١٧ مارس ١٧٩٩ بجزيرة موريشيوس، وتوفي في الثاني من يوليو ١٨٦٩، وصل إلى الإسكندرية في سبتمبر ١٨٣٣، ورحل نهائيًا في نوفمبر ١٨٣٤.

برنار (Bernard)

عامل من مدينة في بيزييه، وعاد إليها في عام ١٨٣٦ (وفقًا لما ذكرته سوزان ڤوالكان في مذكراتها). هناك مصادر أخرى تُقدمه هو أو شخصًا له ذات الاسم بوصفه مهندسًا معماريًا (حل محل لامي في شبرا لدى هامون في مدرسة الطب البيطري)، كما تقدمه مصادر أخرى بوصفه تاجر جملة.

بيس (Bès)

عامل وصل في ديسمبر ١٨٣٤ إلى السد، وتوفي إثر إصابته بالطاعون نحو شهر يوليو ١٨٣٥.

بوالكونت (أندريه، أرنست، أوليڤييه، سان، يُقال له بوالوكونت) (Boislecomte)

وُلِد في مدينة تور في ٢٠ يونيو ١٧٩٩، من أتباع بوشيه، أسس بالاشتراك مع بلزاك مجلة الجرائد السياسية، عَمِل ضابطًا ثم دبلوماسيًا وأديبًا، كتب تقريرًا عن الشرق عقب قيامه ببعثة دبلوماسية في عام ١٨٣٣.

برونو (ميشيل، چوليان، رونيه) (Bruneau)

مهندس وقائد مدفعية. وُلِد في ٢٣ مارس ١٧٩٤، وتوفي في ٢٣ نوفمبر ١٨٤٦. وصل في أغسطس ١٨٣٤ وغادر في ١٨٤٦. شارك في أعمال السد، وأدار التعليم العسكري في طُرة منذ إبريل ١٨٣٦. تزوج من سيدة مصرية قبطية وهي أخت صبيحة لامبير، وأنجب منها فتاةً أسماها تريز (توفيت بالقاهرة في ٣١ يوليو ١٨٥٥). وابنته بولين هي الزوجة الثانية للامبير؟ بعد أن أصبح معاونًا لـ ب. تالابو. قاد في مصر في عام ١٨٤٧ الفرقة الفرنسية لشركة دراسات قناة السويس.

بوسكو (أميديه) (Busco)

مهندس زراعي، وهو صهر دومبال (مؤسس مدرسة الزراعة في روڤيل) وصديق السان سيمونيين، وصل في أكتوبر ١٨٣٤، وتوفي في مصر في ١٩ مارس ١٨٣٥، وهو صاحب محاولة إنشاء مزرعة نموذجية.

كربونيل (كارولين) (Carbonel)

وصلت في أغسطس ١٨٣٥، وغادرت في سبتمبر ١٨٣٦. أنجبت فتاةً من لامبير.

كوسيديير (أجاريت) (Caussidière)

عاملة جمهورية من ليون، فتحت خدمة مطعم ومكواة للملابس أصبحت مثار الأحاديث لمقابلاتها الغرامية، فقد ربطتها علاقة مع براكس ثم مع كونيا، حيث صاحبته في الحجاز. وصلت في أغسطس ١٨٣٤، وغادرت نحو شهر أكتوبر ١٨٣٦.

كايول (كازيمير) (Cayol)

وُلِد حوالي عام ١٨٠١، وهو تاجر من مارسيليا، وصل في إبريل ١٨٣٣ وعاد إلى مارسيليا في أكتوبر التالي.

شاربونيل (كلارا) (Charbonnel)

ابنة رجل مصرفي من جنوا، وصلت في أغسطس ١٨٣٣، وغادرت في بداية عام ١٨٣٥ إلى كانـدي بصحبة شاربان.

شاربان (E) (Charpin)

طبيب وهو عم كلير (رجل فرنسي يُقيم بالإسكندرية). وصل في أغسطس ١٨٣٣. بعد إقامته في مصر مكث طويلاً مع كلارا شاربونيل في كانيه (بجزيرة كريت)، حيث عيَّنه الوالي طبيبًا ، عَمِل سكرتيرًا لأنفانتان في عام ١٨٥٠.

كونيا (Cognat)

طبيب وصل في مايو ١٨٣٣، وعُيِّنَ طبيبًا في السد في يونيو ١٨٣٤، وسافر نحو شهر أكتوبر ١٨٣٦: عَمِل مساعد مفتش للموازين والمكاييل في باريس عام ١٨٤٠.

كولان (أوجست) (Colin)

محامٍ من مارسيليا. وصل في أغسطس ١٨٣٣، ومارس مهنته بالإسكندرية خاصةً كمفاوض عن الرسوم لصالح التُجار الفرنسيين. تم ترحيله إلى وطنه بالقوة في نهاية أغسطس ١٨٣٧؛ بسبب إصابته باضطرابات عقلية وأعمال عنف، عَمِل صحفيًا، وتم استمالته للدخول في مذهب فورييه، وكان من أنشط المروجين للقناة.

كومب (إدمون) (Combes)

وصل في أغسطس ١٨٣٣، وغادر نهاية عام ١٨٣٦، كان يعمل مُستكشفًا للحبشة مع تاميزيه في خلال عامي ١٨٣٥ و١٨٣٦، ثم عُيِّن في عام ١٨٤١ قنصلاً لفرنسا في أسيا الصغرى.

كروڤيلييه (Cruvelier)

رئيس بنائين. عَمِل في السد منذ يونيو ١٨٣٤.

داڤيزييه (لوسيان) (Davésiès)

قائمقام جمهوري في فرقاطة، وانضم إلى بعثة الشرق.، عَمِل صحفيًا ثم وكيلاً للوالي في فوركالكييه (في عام ١٨٤٠).

داڤيد (فيليسيان) (David)

مُلحن موسيقي، وصل في سبتمبر ١٨٣٣، وغادر في فبراير ١٨٣٥. وهو من أدخل الموسيقى الاستشراقية إلى فرنسا.

دوشارم (بيير تيودور) (Decharme)

تخرَّج في مدرسة الهندسة العليا بباريس دفعة عام ١٨٢٧، وهو مهندس للكباري والطرق. وصل الإسكندرية في مايو ١٨٣٣، وبعد عودته إلى فرنسا في نهاية العام استعاد وظيفته كمهندس في مقاطعة ڤونديه.

دولونج (ألفريد) (Delung)

طبيب كان موجودًا في مصر قبل السان سيمونيين. حظى برعاية دكتور دوساب، وتوفي مصابًا بالطاعون في القاهرة في ١٠ سبتمبر ١٨٤١.

دورووه (بيير أوجست) (Drouot)

تَخرَّج فى مدرسة الهندسة العليا بباريس دفعة ١٨٢٢، وعَمِل مهندسًا للمناجم. وصل في سبتمبر ١٨٣٤، وغادر بعد حوالي شهر دون انتظار مساعي كل من سليمان وميمو لتعيينه مهندسًا من قِبَل الباشا. كتب مقالات غير موفقة في جريدة لو تان (le Temps) بتاريخ ٤ و٦ أغسطس ١٨٣٥.

دي كان (مكسيم) (Du Camp)

أديب مشهور وصل مصر في نوفمبر ١٨٤٩ بصحبة فلوبير، وأصبح من أتباع لامبير.

دوجيه (شارل أنطوان) (Duguet)

وُلِد في ٢٩ إبريل ١٧٩٩ وعَمِل محاميًا. وصل مع أنفانتان، وغادر مصر معه أيضًا، ولكنه قطع إقامته بمهمة إلى فرنسا لضم متطوعين. وعند عودته إلى فرنسا عَمِل موظفًا في وزارة الأشغال العامة ثم مديرًا للجمعية الزراعية في ڤوزيل.

ديمولار (Dumolard)

عامل حِدادة توفي إثر إصابته بالطاعون في موقع السد في ١٧ يونيو ١٨٣٥.

د. دوساب (Dr. Dussap)

طبيب أقام في مصر قبل وصول السان سيمونيين، بدايةً في خدمة الوالي في الجيش، ثم بشكل حُر. تعاطف مع السان سيمونيين، واستضاف العديد منهم، مثل: أوربان وسوزان ڤوالكان.

دوتار (Dutar)

وصل إلى الإسكندرية في نهاية شهر أغسطس ١٨٣٣، وعاد إلى مارسيليا في نوفمبر من العام نفسه.

أنفانتان (Enfantin)

أقام في مصر من أكتوبر ١٨٣٣ وحتى أكتوبر ١٨٣٦.

فيرّان (شارل) (Ferrand)

ضابط بحري، وهو زميل قديم لأوربان بمارسيليا في المرحلة الثانوية.

فليشي (Flichy)

وصل وغادر مع كيول، لم يجد مكانًا له في الفريق، ورجع سريعًا، وعند عودته تزوَّج من المناضلة النسائية ماري رين جيندورف (Marie-Reine Guindorf)، ثم سافر إلى أمريكا اللاتينية بعد انتحار زوجته في ١٨٣٧.

فوركاد (چوزيف) (Fourcade)

جراح عسكري في مدينة تروا. وصل في أغسطس ١٨٣٤، وعَمِل كبير أطباء في مستشفى طُرة ثم في مستشفى الأزبكية. عُيِّن رئيس أطباء في مستشفى المشاة بالإسكندرية عندما أُعلِن عن ظهور أولى حالات الطاعون وفقًا لكلوت بك (مصادر أخرى منحته منصب مدير لمستشفى أبي زعبل)، وهو أول من يُصاب بالطاعون من بين السان سيمونيين في ٢٠ فبراير ١٨٣٥.

فورنل (سيسيل) (Fournel)

قائدة النساء السان سيمونيات، وهي زوجة هنري فورنل التالي ذكره.

فورنل (هنري) (Fournel)

مهندس ومدير سابق لمسابك كروزو. وصل مع أنفانتان، وتم تكليفه بالقيام بمساعٍ لدى الباشا فيما يتعلق بربط البحرين عن طريق مضيق السويس، وقد خيَّب الآمال المعقودة عليه، وعاد أدراجه في مارس ١٨٣٤.

چينوڤوا (أوجست) (Génevois)

قبل حضوره إلى مصر قاد أعمال البناء في مشروعات صناعية. سافر عائدًا في نهايــة عــام ١٨٣٥ للعلاج من التهاب في العين.

چيرمان (Germain)

عضو في مجموعة كايول، وحضر إلى الإسكندرية في أغسطس ١٨٣٣.

جوندريه (شارل) (Gondret)

كيميائي وموسيقي وُلِد في باريس في ٢٥ يناير ١٨١٦، وصل في ديسمبر ١٨٣٤ عَمِل لفترة مــساعدًا للامبير بمدرسة المناجم، توفيَ مُصابًا بمرض صدري بالإسكندرية نحو شهر أغسطس أو سبتمبر ١٨٣٧.

جوليه (شارل) (Goulet)

كان موجودًا في دمياط كما ذكر أوربان في ١٨٣٥ ثم ذهب بعد ذلك إلى الجزائر.

جوري (Goury)

مهندس معماري انضم إلى السان سيمونية عن يقين راسخ وسافر في رحلة دراسية إلى مصر بالأصالة عن نفسه وعاد إلى فرنسا مع ريجو.

جرانال الصغير (Granal jeune)

شهد أوربان بوجوده وعاد إلى فرنسا في سنوات ١٨٤٠.

جرانال (ب.) (Granal P.)

الأخ الأكبر لجرانال الصغير وعلى ما يبدو أنه عَمِل محاميًا وكان أستاذًا للغــة الفرنــسية بالمدرســة البيطرية بأبى زعبل، خلف أوربان في إدارة مجلة Le Temps ومات بفرنسا في ١٨٥٦.

جريجوار (چوديث) (Grégoire)

زوجة خيَّاط في باريس وصلت في أغسطس ١٨٣٥ وعادت في سبتمبر ١٨٣٦.

هوارت (بيير دوني) (Hoart)

مهندس وقائد مدفعية، توفي في موقع السد في ١٢ أكتوبر ١٨٣٥.

هولشتين (رونيه) (Holstein)

وُلِد في ٧ فبراير ١٧٩٨ وهو صديق طفولة لأنفانتان، وتاجر ورجل مصرفي، وصل مع أنفانتان وغادر مصر قرابة شهر إبريل ١٨٣٤، وأصبح بعد ذلك مديرًا لمصنع شمع ثم مدير مكتب حاكم مقاطعة رون وأمين صندوق نقابة الصرافين في ليون.

چالا (Jallat)

طبيب جاء إلى مصر وغادر مع درووه.

چاڤاري (أنچليك) (Javary)

زوجة الشخصية الآتي ذكرها.

چاڤاري (أو.) (Javary E.)

كيميائي جاء بصحبة أراجو وعلى ما يبدو أنه قد عَمِل لبعض الوقت كأستاذ فيزياء بالمدرسة البيطرية وسافر في مارس ١٨٣٧، توفِيَ بفرنسا عام ١٨٥٢.

چينان، ويُقال له بيرليه (چول) (Jeanin)

كوميديان وموسيقي وُلِد بباريس في ٣٠ سبتمبر ١٨٠٨، وصل إلى مصر في أغسطس ١٨٣٥ بصحبة چوديث جريجوار وكارولين كربونيل وتم توظيفه لبعض الوقت للعمل كأستاذ للغة الفرنسية في مدرسة المترجمين التي أسسها رفاعة الطهطاوي.

لاشيز (Lachèze)

طبيب من باريس حضر إلى مصر في نهاية عام ١٨٣٤، وعُيِّن كبير أطباء في مستشفى الأزبكية، وهو عضو اللجنة التي شكَّلها كلوت بك لملاحظة وباء الطاعون، وغادر مصر بعد انتهاء الوباء بفترة وجيزة.

لامبير (شارل) (Lambert)

المتعاون السان سيموني الرئيس من ١٨٣٣ وحتى ١٨٥١.

لامي (چول) (Lamy)

وصل مصر نهاية أغسطس ١٨٣٣، وتوفيَ إثر إصابته بالطاعون في ١٠ مايو ١٨٣٥ في أثناء عمله كمهندس في بناء إسطبل خيل شبرا.

لوتور (Lautour)

طبيب بيطري (قائمة أنفانتان لعام ١٨٤٦).

لوفيڤر (Lefèvre)

ملازم في البحرية. كان مُرافقًا للامبير عام ١٨٣٥ في الاستكشاف لضفاف النيل في صعيد مصر، وعاونه في مدرسة المناجم، وتوفيَ بسنار في أثناء قيامه باستكشاف عام ١٨٣٩.

لينان دى بلفون (Linant de Bellefonds)

رفيق الطريق للسان سيمونيين منذ بناء السد الأول، لم يبتعد عنهم سوى في أثناء المناقشات التي جرت حول قناة السويس عام ١٨٥٠.

ماشرو (چوزيف) (Machereau)

فنان متعدد المواهب، عُيِّنَ مدرس رسم بمدرسة الفروسية بالجيزة، وبعد اعتناقه الإسلام تزوج من سيدة مصرية، عاش تحت حماية سليمان باشا، وتوفي ماشرو في مصر بعد عام ١٨٦٠.

ماريشال (Maréchal)

عضو فريق الفنانين، توفي إثر إصابته بالطاعون بالقاهرة في ٢٤ مايو ١٨٣٥.

مارتان (Martin)

تاجر قام باستكمال عمل لامي في إسطبل شبرا في ديسمبر ١٨٣٥، وعاد إلى فرنسا في ١٨٤٠.

ماسول (ألكسندر) (Massol)

صحفي مناضل، كان برفقة لامبير في الصحراء عام ١٨٣٥، وعاونه في مدرسة المناجم، وصل إلى مصر في ديسمبر ١٨٣٤، وغادرها عام ١٨٣٨.

نويل (Noël)

"أديب مُستشرق، توفيَ بباريس" (قائمة أنفانتان ١٨٤٦). اعتنق الإسلام وتم توظيفه للعمل مع رفاعة الطهطاوي عام ١٨٣٤.

أوليـڤـييه (أنطوان) (Ollivier)

وُلِد بمونج (لواريه) في ٢٤ أكتوبر ١٨٠٥، ووصل إلى مصر مع أنفانتان، وتوفي بالإسكندرية في ٩ إبريل ١٨٣٦، وكان وراء أغلب محاولات التحديث الزراعي.

بانوتييه (Pannetier)

رفيق كايول، وصل إلى الإسكندرية في أغسطس ١٨٣٣، وتم توظيفه لدى كفيلـه، وهـو المـصرفي فونكلير.

بورون (نيكولا) (Perron)

طبيب باريسي وهو جمهوري، وصل إلى مصر قبل وصول السان سيمونيين وانضم إليهم وعَمِل أستاذًا بمدرسة الطب ثم مديرًا لنفس المدرسة ونائب مدير مستشفى القصر العيني وأخيرًا تولى منصب كبير أطباء بالمستشفى الأوروبي بالإسكندرية عقب إقامته لعدة سنوات في فرنسا لإدارة مدرسة فرنسية-عربية لـم يـتم إنشاؤها مُطلقًا، كان مُترجمًا ومُستشرقًا، تم تكليفه من عام ١٨٥٦ وحتى عام ١٨٥٩ بإنشاء مدرسة ثانوية فرنسية-عربية بالجزائر.

بتي (ألكسيس) (Petit)

مهندس زراعي ومحامٍ وفنان، وُلِد في ٢٥ إبريل ١٨٠٥ ووصل إلى مصر مع أنفانتان، وتم تكليفه مع دوجيه لجلب متطوعين في فرنسا، وغادر مصر نهاية عام ١٨٣٥.

بييرون (Piéron)

رسَّام، غادر مصر بصحبة آشار.

بليشون (Plichon)

عاد إلى فرنسا في ١٨٤٠ ولم يرد أي ذكر آخر له إلا في قائمة أنفانتان لعام ١٨٤٦.

براكس (چون) (Prax)

مهندس وضابط في البحرية وصل إلى مصر نهاية عام ١٨٣٣، وتم توظيفه في السد ثم عَمِل مساعدًا لكبير صيادلة بالأزبكية وبجيش الحجاز، كان سكرتيرًا لكلوت بك من عام ١٨٣٨ حتى ١٨٤٠، واعتنق الإسلام في ١٠ سبتمبر ١٨٣٥، وشَغَل وظيفة مهندس بمدينة تروا عند عودته إلى فرنسا وتوفي في ٢ يوليو ١٨٥٩، وكان نائب قنصل لفرنسا في هاييتي.

بريس داڤِن (Prisse d'Avennes)

انظر الفصل الذي خصصه له كاريه، كان مُرتبطًا بأوربان في أثناء إقامتهما معًا بالمدرسة الحربية في دمياط، ويعتبر من وجهة نظره أحد مُكتسبات السان سيمونيين وقام بمشروع زراعي مع توشيه وأوليـڤـييه. وهو عالم مصريات كبير، ومتخصص في العمارة العربية.

ربول (Reboul)

تاجر وصل إلى مصر نهاية شهر أغسطس ١٨٣٣، كان يقوم بصيد الزراف بالسودان في عام ١٨٣٥، وغادر بعد رحلة إلى سوريا في عام ١٨٣٧، وتوفي في ٢ يناير ١٨٣٩ عقب رحلة ثانية قام بها إلى السودان.

ريجو (أدولف) (Rigaud)

طبيب وهو ابن أخ طبيب يحمل الاسم نفسه والذي توفي مُصابًا بالطاعون في أثناء تأدية مهام وظيفته بالإسكندرية في ١٨٣٥، وصل إلى مصر نهاية شهر مايو ١٨٣٣، وغادر في فصل الصيف وكان عُمدة قنطرة (شارونت) في ١٨٤٦.

سونيرا (چول) (Sonnerat)

حضر إلى مصر وعَمِل موظفًا بأبى زعبل قبل قدوم السان سيمونيين ثم انضم إليهم. وشَغَل وظيفة مدرس بدمياط برفقة أوربان، وعاد إلى فرنسا في خريف عام ١٨٣٧ عقب محاولة فاشلة للتجارة في شرانق دود الحرير بسوريا، وتم توظيفه بعد ذلك في شركة باريس - ليون للسكك الحديد.

تاچان روچيه (كلوريند) (Tajan-Rogé)

زوجة الشخص التالي ذكره، وهى مناضلة نسائية ربطتها علاقة بسليمان باشا وصاحبة محاولة لإنشاء مدرسة نسائية. ونجت من الطاعون الذي ترك لها بعض الآثار، وجدناها في روسيا بصحبة زوجها وسوزان ڤوالكان. وقد ارتبطت مجددًا بأنفانتان في ١٨٤٥، توفيت في ٥ أغسطس ١٨٥٧.

تاجان روچيه (دومينيك) (Tajan-Rogé)

وُلِد نحو عام ١٨٠٣وهو عازف كمان بأوركسترا الأوبرا الكوميدية، عَمِل مدرسًا للموسيقى بمدرسة الجيزة، وسافر إلى سان بطرسبورج في ١٨٣٨ وفي نهاية عام ١٨٤٩ انتمى إلى مجموعة المُعلّمين الاشتراكيين لبولين رولان. ونُفي إلى لندن بعد الانقلاب الذي قام به لوي نابليون بونابرت.

تاميزيه (موريس) (Tamisier)

وصل إلى مصر في نهاية شهر أغسطس ١٨٣٣، وقام بنشر استكشافه للحبشة بصحبة كومب في عامي ١٨٣٥ و١٨٣٦ ثم استكشافه للحجاز.

توشيه (چول) (Toché)

طالب سابق في مدرسة الزراعة بروڤيل، وصل مصر نهاية شهر مايو ١٨٣٣ وغادرها في الصيف، إلا أنه عاد مُجددًا في ديسمبر مع كل من سيسيل فورنل وكلوريند روچيه. ارتبط ببعض المشروعات الزراعية. وعقب إقامته في القسطنطينية (التحق بجريدة لومونيتور أوتومان(٣) (Le Moniteur ottoman) عَمِل تاجرًا في جزيرة موريشيوس مع أخيه.

تورنوه (فيليكس) (Tourneux)

مهندس وضابط مدفعية، كان من المفترض أن يقوم الباشا بتوظيفه لحفر آبار أرتوازية بجزيرة كريت ولكن مع عدول الباشا عن تلك العملية عاد تورنوه إلى فرنسا منذ شهر سبتمبر ١٨٣٣ وعَمِل بعد ذلك مهندسًا للسكك الحديدية.

أوربان (توماس إسماعيل) (Urbain)

مُولَّد من أصل جوياني، وصل في مايو ١٨٣٣، وغادر في مارس ١٨٣٦، شَغَل وظيفة مدرس لغة فرنسية بالمدرسة الحربية بدمياط وكان على الأرجح أول من اعتنق الإسلام وطالب بالاعتراف القانوني بوضعه كـ "فرنسي مسلم"، وألَّف مقالات عن مصر وعَمِل مُترجمًا حربيًّا، ثم مستشارًا للحكومة بالجزائر.

ڤاشيه (Vacher)

ورد ذكر وجوده في السد مرة واحدة في يونيو ١٨٣٤.

(٣) الجريدة الفرنكفونية الأولى المُوَجهة إلى الشعوب العثمانية، وكان أول إصدار لها في الخامس من نوفمبر عام ١٨٣١ بإسطنبول من قِبَل ألكسندر بلاك (Alexandre Blacque) وقام الباب العالي بتمويلها.

ڤيلارسو (إيــڤون) (Villarceau)

أحيانًا يُطلق عليه إيــڤون فقط. طالب سابق في المدرسة المركزية. قَدِمَ إلى مصر في ديــسمبر ١٨٣٤ للعمل في السد. ودرس علم الفلك تحت سلطة لامبير خلال إقامته في مصر. وعَمِــل أســتاذًا للرياضــيات بالمدرسة المركزية وكان يتراسل مع لامبير حول موضوعات علمية وتربوية متعلقة بوظيفة كل منهما. وقــد عَمِل فَلَكيًا في مَرصد باريس في ١٨٤٨. وهو عضو لجنة الدراسات والرقابة على البعثة المدرسية المصرية في ١٨٥٥.

ڤوالكان (سوزان) (Voilquin)

مُؤلفة مذكرات شهيرة عن إقامتها في مصر.

إشارات مرجعية

إن المخطوطات المذكورة عن أرشيف أنفانتان وعن أرشيف إيشتال تم حفظها في مكتبة الأرسنال (١ شـــارع سـولي، باريس ٤)، والتي تعتبر من الناحية الإدارية قسمًا من المكتبة الوطنية. وقد قمنا كذلك بالاطلاع على ملفـــات أرشــيف وزارة الخارجية (٣٧ شارع كيه دورسيه، باريس ٧). ولمطالعة قائمـــة مراجع وافية عن السان سيمونيـــة، يمكننـــا الرجـــوع إلـــى المراجع التالية:

Walch (Jean). *Bibliographie du saint-simonisme*, Paris, Vrin, 1967, in 8°, 132 p.

Régnier (Philippe). «Bibliographie du saint-simonisme de 1965 à 1984», in *Regards sur le saint-simonisme et les saint-simoniens*, dir. J.-R. Derré, pp. 186-206.

لم يرد هنا سوى ذكر المراجع المهمة المتعلقة مباشرةً بالموضوع. أما المراجع العارضة والتي تتناول الموضوع جزئيًّـــا فقد تم ذكرها في حواشي وتوطئة مختلف الفصول.

Allemagne (Henry-René d'). *Les saint-simoniens (1827-1837)*, Paris, Gründ, 1930, in 4°, 451 p.

Allemagne (Henry-René d'). *Prosper Enfantin et les grandes entreprises du XIX° siècle : la colonisation de l'Algérie, la création du réseau P.L.M., le percement de l'isthme de Suez, le «crédit intellectuel», le Crédit foncier, Enfantin homme politique*, Paris, Gründ, 1935, in 4°, 218 p.

Carré (Jean-Marie). *Voyageurs et écrivains français en Egypte*, le Caire, I.F.A.O., 1932, 2 vol. in 8°, 339 et 398 p.

Charles-Roux (Jules). *L'isthme et le canal de Suez.* Historique-Etat actuel, avec 5 planches, 12 cartes ou plans hors texte et 268 gravures, Paris, Hachette, 1910, 2 vol. in 4°, 516 et 550 p.

Clot Bey (Antoine-Barthélémy). *Mémoires de A.-B. Clot bey*, publiés et annotés par Jacques Tahger, conservateur de la bibliothèque privée de S.M. le Roi. Publications de la bibliothèque privée de S.M. Farouk 1er, roi d'Egypte, le Caire, imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1949, 1 vol. in 4°, 417 p. Douze planches.

Clot Bey (Antoine-Barthélémy). *Aperçu général sur l'Egypte*, ouvrage orné d'un portrait et de plusieurs cartes et plans colorés, Paris, Fortin, Masson et Cie, 1840, 2 vol. in 8°, 360 et 570 p.

L'Egypte au XIX° siècle. Actes du colloque international n° 594 sur «l'Egypte au XIX° siècle» organisé dans le cadre des colloques internationaux du Centre National de la Recherche Scientifique, à Aix-en-Provence, du 4 au 7 juin 1979 par M. le professeur R. Mantran, Directeur du Groupe de Recherches et d'Etudes sur le Proche-Orient. Editions du C.N.R.S., Paris, 1982, in 8°, 336 p.

Fakkar (Rouchdi). *Sociologie, socialisme et internationalisme. L'influence internationale de Saint-Simon et de ses disciples. Bilan en Europe et portée extra-européenne,* [thèse, Lettres, Genève, 1967], Neuchâtel, Delachaux et niestlé, 1968, in 8°, 335 p.

Jagailloux (Serge). *La médicalisation de l'Egypte au XIX° siècle (1798-1918),* Editions Recherche sur les Civilisations, Paris, 1986, in 4°, 342 p.

Issa (Muhammad Tala t). *ATbâ Sân-Simon, Falsafatuhum al-Ijtimâ'yah wa tatbiquha fi Misr* [Les disciples de Saint-Simon, leur philosophie sociale et son application en Egypte]. Thèse soutenue au Caire en 1957, publiée vers 1963-1964.

Lambert (Adrien, Juppa bey). *Charles d'Egypte ou le vertige du bien,* la Pensée Universelle, Paris, 1975, in 12°, 221 p.

Linant de Bellefonds bey. *Mémoire sur les principaux travaux d'utilité publique exécutés en Egypte depuis la haute antiquité jusqu'à nos jours,* Paris, A.Bertrand, 1872, in 8°, 620 p.

Locke (Ralph P.). *Music, musicians and the Saint-Simonians,* University of Chicago Press, Chicago & London, 1985, in 8°, 399 p.

Louca (Anouar). *Voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIX° siècle,* Paris, Didier, 1970, in 8°, 362 p.

Marsot (Afaf Lutfi al-Sayyid). *Egypt in the reign of Muhammad Ali,* Cambridge University Press, 1984, in 8°, 300 p.

Le miroir égyptien. Actes des Rencontres Méditérranéennes de Provence (17-19 janvier 1983) sur «L'imaginaire créateur d'histoire : de l'Egypte des Pharaons du saint-simonisme», publiés par Robert Ilbert et Philippe Joutard, éditions du Quai Jeanne Laffite, Marseille, 1984, in 8°, 282 p. Voir en particulier les communications de D. Armogathe («Pour un cent cinquantenaire : 1833 :

L'appel de l'Orient, les saint-simoniens à Marseille»), N. Asfahani («Le canal de Suez, une vision égyptienne»), et A. Rachid («Regards croisés sur la France de l'Egypte [Rifa'a al Tahtawi et Suzanne Voilquin : idéologie et conscience de classe]»).

L'Orient des Provençaux. Série de dix-sept expositions tenues de novembre 1982 à février 1983 à Marseille. Voir notamment les catalogues de : L'Orient des Provençaux dans l'histoire, L'Orient en question (1826-1875), Orient réel et Orient mythique.

Les Saint-Simoniens, *le Modernisme et l'Orient*, dir. Magali Morsy, Actes du colloque de l'Abbaye de Sénanque (25-27 juin). Sous presse.

المؤلف فى سطور :

فيليب رينييه

خريج كلية التربية العليا بفرنسا، وأستاذ الأدب الكلاسيكى، يشغل فيليب رينييه حاليًا منصب رئيس قسم الأبحاث بالمركز القومى للبحث العلمي بفرنسا. وهو أيضًا المخطوطات السان سيمونية بمكتبة الأرسنال بباريس وأمين عام جمعية أصدقاء إسماعيل أوربن.

كاتب التقديم فى سطور :

أمين فكرى عبد النور

كتب مقدمة هذا الكتاب وحققه أمين فكري عبد النور خريج مدرسة العائلة المقدسة بالقاهرة (الجزويت) وكلية الحقوق الفرنسية. ويشغل حاليًا منصب المندوب العام والممثل لبنك التعاون الأوروبى بالقاهرة ومستشار مجموعة شنايدر فى مصر.

المترجمون فى سطور :

١ - أمل الصبان

- حصلت على دكتوراه فى اللغة الفرنسية والترجمة، كلية الألسن جامعة عين شمس .
- وتعمل أستاذًا للأدب الفرنسى بجامعة عين شمس .

من ترجماتها :

- الجمهورية العالمية للآداب – باسكال كازانوفا

  المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٢
- رحالة وكتاب مصريون إلى فرنسا فى القرن التاسع عشر – د . أنور لوقا

  مؤسسة البابطين – الكويت – ٢٠٠٦ (الجزء الثانى من الكتاب)
- شاركت فى ترجمة عدد من القواميس والموسوعات وراجعت ترجمة بعض الكتب .

٢ - أنور مغيث

- حصل على الدكتوراة فى الفلسفة من جامعة باريس 10 عام 1992 .
- أستاذ مساعد الفلسفة الحديثة والمعاصرة بجامعة حلوان .
- مدير المعهد الجامعى لإعداد المعلمين باللغة الفرنسية.
- له عديد من الدراسات فى الفلسفة الحديثة والفكر العربى المعاصر. ترجم الكثير من الأعمال الفكرية عن اللغة الفرنسية من بينها: أسباب عملية بيير بورديو، نقد الحداثة لآلان تورين، وفى علم الكتابة لجاك دريدا. كما راجع عددا من الترجمات من بينها "جهاد" لـچيل كيبل، و"ستون عاما من الصراع العربى الإسرائيلى" لبطرس غالى وشيمون بيريز، "والغرفة المضيئة" لرولان بارت.

٣- داليا محمد السيد الطوخى

- خريجة مدرسة راهبات القلب المقدس بالقاهرة، وكلية الألسن "قسم اللغة الفرنسية" جامعة عين شمس.
- حصلت على ماجستير الألسن فى الترجمة التحريرية والفورية، ثم على دكتوراه الألسن فى اللغة الفرنسية عن دراسة نقدية لترجمة كتاب "الكلمات" لجون بول سارتر .
- وتشغل حاليًا منصب أستاذ مساعد بقسم اللغة الفرنسية – كلية الألسن .
- وقامت بترجمة العديد من الأعمال فى مجالات متنوعة: سياسية وعلمية وأدبية وتاريخية منها: ترجمة كتاب "الخديعة المرعبة" لتييري ميسان عام ٢٠٠٢، وكتاب "الإرهاب الغبي" ٢٠٠٤، المشاركة فى ترجمة التقرير السنوى للمجلس القومى لحقوق الإنسان ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥ وكتاب "علم الحروف فى الإسلام" لبيير لورى ٢٠٠٦، وكتاب "تعبير الرؤيا فى الإسلام" ٢٠٠٧، وكتاب "أمراض ضغط الدم" لبيير لوران (تحت الطبع)، وكتاب "أمراض الشيخوخة" لجاك بروست (تحت الطبع)، وترجمة ثلاث مقدمات لكتاب "الملل والنحل" للشهرستانى .

التصحيح اللغوى : عاطف عبد الفتاح
الإشــــراف الفنى : حســـن كـــامـــل